KAREN HORNEY

كارين هورني

واحدة من أكثر المحللين النفسيين الكبار بعد **فرويد**،
كارين هورني كانت رائدة في المفاهيم المألوفة الآن مثل الاغتراب،
وإدراك الذات، والصورة المثالية،
وأدخلت إلى التحليل النفسي فهمًا جديدًا لأهمية الثقافة والبيئة.

صراعاتنا الباطنية

نظرية بناءة







مكتبة

ترجمة: نور ياسين

صراعاتنا الباطنية

نظرية بناءة
عن مرض
العُصاب

■ اسم الكتاب: **صراعاتنا الباطنية**

■ المؤلف: **كارين هورني**

■ ترجمة: **نور ياسين**

■ الطبعة الأولى **2022 ©**

ISBN: 978-9953-592-43-5

■ الإخراج الفني: TRIGRAPHICS



لبنان | بيروت | شارع المقدسي | بناية ريما | الطابق الخامس
العراق | بغداد | شارع المتنبي | بناية مصرف الرشيد | الطابق الأول
0096101 740 495 | 0096176 938 980
www.nousous.com nousous.ir@outlook.com

كارين هورني

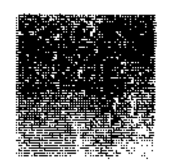
مكتبة | 1173

صراعاتنا الباطنية

نظرية بناءة عن مرض العُصاب

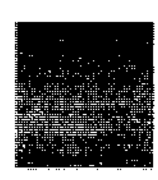


| ترجمة: نور ياسين



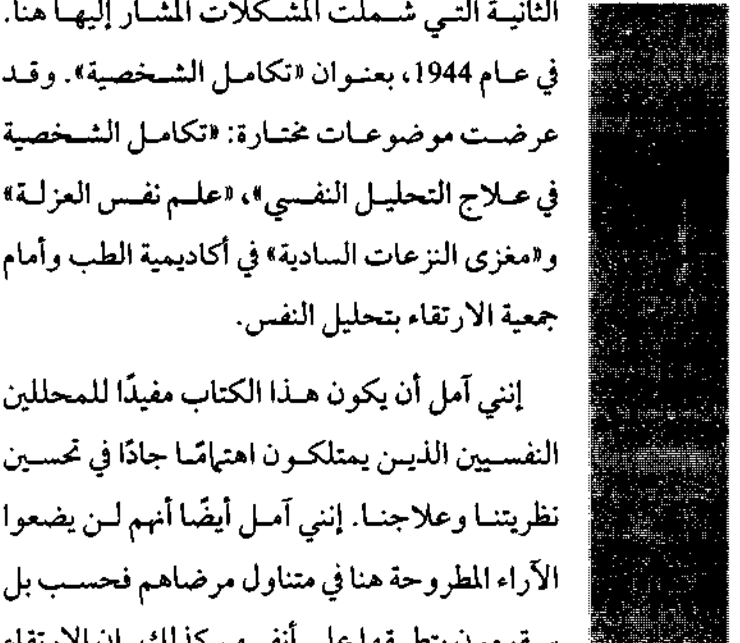
المحتويات





تمهيد

إن هذا الكتاب مكـرس لغرض الارتقاء بتحليل النفـس، فلقد نما عـن خبرتي في ممارسـة التحليل مع مرضـاي ومع ذاتي. وبينما كانت النظرية التي يقدمها قـد تكاملـت عبر فترة مـن السـنوات، فـإن آرائي لم تتبلـور نهائيًـا إلا بعـد أن أخذت علـى عاتقي إعداد سلسلة من المحاضرات تحت رعاية المعهد الأمريكي لتحليـل النفس. كانت الأولى تـدور حول النواحي الفنية للموضوع، وكان عنوانها «مشـكلات أسلوب التحليـل النفـسي» (1943). وقـد ألقيـت السلسـلة الثانيـة التـي شـملت المشـكلات المشـار إليهـا هنا. في عـام 1944، بعنـوان «تكامـل الشـخصية». وقـد عرضـت موضوعـات مختـارة: «تكامـل الشـخصية في عـلاج التحليـل النفـسي»، «علـم نفـس العزلـة» و«مغزى النزعات السادية» في أكاديمية الطب وأمام جمعية الارتقاء بتحليل النفس.



إنني آمل أن يكون هـذا الكتاب مفيدًا للمحللين النفسـيين الذيـن يمتلكـون اهتمامًـا جادًا في تحسـين نظريتنـا وعلاجنـا. إنني آمـل أيضًا أنهم لـن يضعوا الآراء المطروحة هنا في متناول مرضاهم فحسـب بل سيقومون بتطبيقها على أنفسهم كذلك. إن الارتقاء

بتحليل النفس يمكن أن يتم فقط عبر طريق محفوف بالصعاب، عبر طريق يضم أنفسنا وصعابنا. فإن بقينا دونها حراك وغير مكترثين بالتغيير، فستؤول نظرياتنا إلى الجدب والجزم.

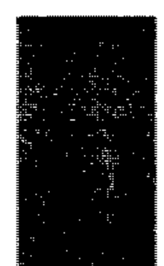
غير أنني، على كل حال، مقتنعة أن أي كتاب ينحو إلى ما وراء مدى الأمور الفنية أو النظرية النفسية البحتة، ينبغي أن يفيد أيضًا جميع أولئك الذين يرغبون في التعرف على أنفسهم، والذين لم يفقدوا الأمل في نموهم الذاتي. وعلى الرغم من أن أمراض العُصاب الحادة ترجع إلى أيدي الخبراء، فإنني ما زلت أعتقد أننا إذ بذلنا جهودًا لا تكلّ، فإننا نستطيع أن نقطع شوطًا بعيدًا باتجاه فك شراك صراعاتنا العُصابية.

يعود امتناني العظيم لمرضاي الذين من خلال عملنا معًا، قدّموا إلي فهمًا أفضل عن المشكلات. كما أنني مدينة أيضًا لزملائي الذين آزروا عملي بفضل اهتمامهم وتفهمهم المتعاطف. إنني لا أشير إلى زملائي الأكبر سنًا فحسب بل أيضًا إلى الأصغر سنًا، ممن تدربوا في معهدنا، والذين كانت نقاشاتهم الناقدة مثيرة ومثمرة.

أحب أن أشير إلى ثلاثة أشخاص خارج حقل التحليل النفسي الذين أعطوني دعمًا، بطريقتهم الشخصية الخاصة، في دفع عجلة عملي إلى الأمام. كان الدكتور آلفن جونسون هو الذي قدّم لي الفرصة بغية عرض أفكاري في المدرسة الحديثة للبحوث الاجتماعية في حينٍ كان فيه تحليل فرويد التقليدي يمثل المدرسة الوحيدة المميزة

في النظرية التحليلية والتطبيق، وبصفة خاصة فإنني مدينة إلى كلارا ماير، عميدة كلية الفلسفة والآداب الحرة في المدرسة الحديثة للبحوث الاجتماعية. فعن طريق اهتمامها الشخصي المتواصل شجعتني عامًا بعد آخر، أن أطرح على بساط البحث أية مكتشفات جديدة تتجمع من خلال ممارساتي التحليلية. ثم هناك ناشر كتابي، دبليو. دبليو. نورتن الذي أدت نصائحه المفيدة إلى تحسينات عديدة في مؤلفاتي. أخيرًا وليس آخرًا، أُحب أن أعبّر عن تقديري إلى موفيت كون التي قدمت لي العون بشكل كبير باتجاه تنظيم أفضل للمادة وصياغة أوضح لأفكاري.

كي. أج.



مهما تكن نقطة الانطلاق وكيفما تكن الطريق ملتوية، فإننا يجب أن نصل في النهاية إلى اضطراب في الشخصية كمصدر للعلة النفسية، نستطيع أن نردد القول نفسه عن هذا كما نستطيع التحدث عن أي اكتشاف نفسي آخر تقريبًا: فهو واقعيًا إعادة الاكتشاف. لقد عرف الشعراء والفلاسفة في كل العصور أن الشخص الهادئ المتزن لن يقع ضحية الاضطرابات النفسية، بل الشخص الذي تمزقه الاضطرابات الباطنية، إن أي عُصابٍ، مهما كانت صورة الأعراض المرضية، هو بلغة العصر، عُصاب الشخصية. لذلك يجب أن تتجه جهودنا في النظرية والعلاج، نحو فهم أفضل لبناء الشخصية العُصابية.

في الواقع، تركز جهود فرويد الريادي على هذه الفكرة بصورة متصاعدة – رغم أن أسلوبه في النشوء لم يتح له فرصة التوصل إلى صياغته على نحو بَيِّن. غير أن الآخرين الذين واصلوا وطوروا جهد فرويد – بصفة بارزة: فرانز الكساندر، أتورانك، وهليم رايخ، وهارالد شولتز هانكه– كانوا قد قاموا بتعريفه بصورة أكثر جلاءً، على أية

حال، لم يتفق أحـد منهم حول كنه الطبيعة المحددة والقوى المحركة وراء بنية هذه الشخصية.

كانت نقطة انطلاقي مختلفة. فقد أثارت في ذهني مسلمات فرويد فيما يتعلق بعلم النفس الأنثوي، التفكير حول دور العوامل الثقافية. كان تأثيرها على أفكارنا حول ما يؤلف الرجولة أو الأنوثة جليًا، كما أمسى جليًا لديّ أن فرويد كان قد توصل إلى نتائج معينة مغلوطة لأنه فشل في أخذها بنظر الاعتبار. وأخذ اهتمامي ينمو بهذا الموضوع خلال فترة خمسة عشر عامًا. وقد تعزّز في جزء منه بالاشتراك مع إيريك فروم الذي جعلني، من خلال معرفته العميقة بكل من علمي الاجتماع والتحليل النفسي، أكثر وعيًا بأهمية العوامل الاجتماعية التي هي أكبر كثيرًا من تطبيقاتها المحصورة في علم النفس الأنثوي، ثم تأكدت انطباعاتي عندما جئت إلى الولايات المتحدة عام 1932. حينئذ، شاهدت أن مواقف وأمراض العُصاب عند الأشخاص في هذا البلد كانت تختلف بطرق عديدة عن تلك التي كنت قد لاحظتها في الأقطار الأوروبية، وأنَّ الاختلاف في الحضارة فحسب يمكن أن يكون مسؤولاً عن ذلك.

ثم وجدت استنتاجاتي التعبير عنها في كتاب شخصية عصرنا العُصابية. كان محور البحث الرئيس هنا أن أمراض العُصاب قد أُحدثت من قبل العوامل الحضارية. مما كان يعني بصورة أكثر تحديدًا أن أمراض العُصاب تُولَّد من قبل الاضطرابات في العلاقات الإنسانية.

أثناء السنوات التي سبقت تأليفي كتاب **الشخصية العُصابية** كنت أُلاحق خطًا مختلفًا من البحث الذي نما عن الفرضية السابقة منطقيًا. كان هذا يدور حول التساؤل عن ماهية القوى الدافعة في مرض العُصاب. وكان فرويد أول من أشار إلى أن هذه كانت دوافع قسرية. وقد اعتبر هذه الدوافع موجودة غريزيًا في الطبيعة، تهدف إلى الإشباع كما أنها لا تحتمل الإحباط إلّا قليلاً. ونتيجة لذلك، فقد أعتقد أنها تقتصر على أمراض العُصاب كما هي، لكنها كانت تؤثر في كل الكائنات البشرية. فإذا حدث، على كل حال، أن نشأت أمراض العُصاب عن اضطرابات في العلاقات الإنسانية، فهذا الافتراض لا يمكن أن يكون صحيحًا. كانت الأفكار التي توصلت إليها في هذا المضمار كما يلي بشكل مختصر: إن الدوافع القسرية هي دوافع عُصابية محددة، تتولد عن إحساس بالعزلة، القنوط، الخوف، والاعتداء، وتمثل أساليب في مواجهة العالم رغمًا عن هذه الأحاسيس؛ وهي تهدف بصورة رئيسة لا إلى الإشباع بل إلى النجاة، وترجع طبيعتها القسرية إلى القلق المترصد خلفها. ظهر اثنان من هذه الدوافع: الرغبة العُصابية الملحة إلى الحنو، وإلى التسلط بشكل مجسم واضح، وقد عُرِضا بالتفصيل في كتاب **الشخصية العُصابية**.

وعلى الرغم من احتفاظي بما كنت أعتبره أساسيات تعاليم فرويد، فقد أدركت في ذلك الحين أن بحثي عن فهم أفضل قادني إلى اتجاهات كانت تتناقض مع فرويد، إذ كان العديد من هذه العوامل

التـي اعتبرهـا فرويد غريزيـة يتقرر ثقافيًـا، وإذا كان الكثـير جدًا مما اعتـبره فرويـد نابعًا عن الطاقة الجنسـية يمثل حاجـة عُصابية للحنو التي اسـتثارها القلق والتي تسـتهدف بالشعور بالأمن مع الآخرين، إذًا فـإن نظريـة الطاقة الجنسـية لا يمكن الدفاع عنهـا. بقيت خبرات الطفولـة ذات شـأن هام غـير أن التأثير الذي مارسـته في حياتنا ظهر تحت ضوء جديد. ثم تبع ذلك بالنتيجة اختلافات نظرية أخرى. من هنا أصبح من الضروري أن أُحدد في ذهني أين كنت أقف أنا بالنسبة إلـى فرويد. فكانت حصيلة هـذا الانجلاء كتاب تحت عنوان: **طرق حديثة في تحليل النفس**.

ثـم تواصـل بحثـي، في الوقت ذاته، مـن أجل القـوى الدافعة في مـرض العُصاب، فدعـوت الدوافع القسريـة بالنزعـات العُصابية، ووصفـت عـشرة منها في كتـابي اللاحق. عنـد ذاك، كنت أنـا أيضًا، قـد توصلت إلى ومضـة إدراك بـأنَّ بنية الشـخصية العُصابية كانت ذات أهميـة مركزية عظيمة. كنت أعتبرها آنئذٍ كنوع من العالم المصغر المكـون من عوالم صغيرة عديدة يتفاعل كل واحدٍ منها مع الآخر: في نواة كل عالم صغير كانت هناك نزعة عُصابية. كان هناك تطبيق عملي لنظريـة مـرض العُصـاب هذه. فـإذا لم يتضـمن تحليل النفس أساسًـا ربط مسـاعينا الحالية بخبراتنا الماضية، إنما اعتمد بالأحرى على فهم تفاعل قوي في شخصيتنا الحاضرة، إذًا يكون إدراك كنه ذاتنا والعمل علـى تغييرها بمعاونة يسـيرة أو حتى بـدون معاونة من قبل الخبراء،

ممكنًا عمليًا بكل معنى الكلمة. ثم بدا أن تحليل الذات يقدم أملاً في إشباع حاجة حيوية، على ضوء الحاجة السائدة للعلاج النفسي وندرة العون المتوفر. ولأن الجزء الأوفر من الكتاب تناول بعض إمكانات وحدود وطرق تحليل أنفسنا فقد دعوته **تحليل الذات**.

على كل حال، لم أكن راضية تمامًا عن استعراضي للنزعات الفردية. فقد وصفت النزعات ذاتها بصورة دقيقة، إلا أن الشعور كان يخامرني بأن هذه النزعات ظهرت، بتعدادها البسيط، بصورة منعزلة أكثر مما يجب. واستطعت أن ألمس أنّ الحاجة العُصابية للحنو والتواضع القسري، والحاجة إلى «رفيق» كانتا ترتبطان معًا، لكن ما فشلت في ملاحظته أن هذه النزعات كانت تمثل معًا موقفًا جوهريًا تجاه الآخرين وتجاه الذات، وفلسفة مستقلة عن الحياة. تؤلف هذه النزعات مراكز ما كنت قد جمعته الآن معًا على أنه «التحرك نحو الناس». كما لاحظت أيضًا، أن هناك شيئًا مشتركًا يجمع بين الرغبة الشديدة القسرية للتسلط والمكانة وبين الطموح العُصابي.

و هي تؤلف عمومًا العوامل التي تتعلق بها سأدعوه «التحرك ضد الناس». لكن الحاجة للاستحسان والدوافع نحو الكمال، رغم أنها كانت تمتلك جميع سمات النزعة العُصابية المميزة وتؤثر في علاقة الشخص العُصابي مع الآخرين، فقد بدت تتعلق بعلاقته مع ذاته بصفة أساسية. كذلك، بدت الحاجة إلى الاستغلال أقل أهمية من كل من الحاجة للحنو أو للتسلط وبدت أقل شمولية من هاتين، كما

لـو أنها لم تكن تؤلف كيانًا منفصـلاً بحد ذاتها، بل كانت قد اجتُزِئت من كل هو أكبر منها.

برهنـت تسـاؤلاتي منـذ ذلك الحـين على أنهـا كانت علـى حق. وتحـول محور اهتمامي في السـنوات اللاحقة نحـو دور الصراعات في مـرض العُصاب. كنت قد ذكرت في **شـخصية عصرنـا العُصابية** أن مـرض العُصـاب كان يحدث مـن جراء تصـادم النزعـات العُصابية المتنافـرة. وكنـت قد ذكرت في **تحليل الـذات** أن النزعات العُصابية لم تعـزز بعضها بعضًا فحسـب بل كانت تخلق الصراعـات أيضًا. ومع ذلك بقيت الصراعات قضية جانبية. كان فرويد في الماضي على وعي متزايـد بأهمية الصراعات الباطنية، وقد نظر إليها على كل حال على أنهـا معركة بين القوى المكبوتة والقوى القمعية. أما الصراعات التي بـدأت أراها فقـد كانت من نوع مختلف. كانت تـدور بين مجموعات متناقضـة مـن النزعـات العُصابيـة، ورغـم أنهـا كانت أصـلاً تتعلق بالمواقـف المتناقضـة تجـاه الآخرين، فقـد ضمت إليها بمـضي الزمن مواقف متناقضة تجاه الذات وسجايا ومجموعات متناقضة من القيم.

ثم أنار بصيرتي تصاعد متعاظم من الملاحظة حول الأهمية البالغة لهـذه الصراعـات. إنَّ مـا لفـت نظـري بقـوة أولاً، كان عـدم إدراك المرضـى للتناقضات الجليـة في ذاتهم. وحينما بيَّنت هـذه التناقضات لهـم أخذوا يتملصون وبـدا عليهم أنهم فقدوا الاهتـمام. بعد تجارب متكـررة من هـذا النـوع أدركـت أن المراوغة كانت تعـبر عن بغض

عميق لمعالجة هذه التناقضات. أخيرًا، أظهرت ردود الفعل المذعورة استجابة لإدراك مفاجئ لصراع من الصراعات؛ أنني كنت أتعامل مع مادة متفجرة. كانت لدى المرضى أسباب وجيهة للنفور من هذه الصراعات: كانوا يرتعدون هلعًا من جبروتها في تمزيقهم إربًا.

بعد ذلك بدأت أُدرك المقدار المذهل من الحيوية والذكاء الذي استثمر في جهود يائسة قَلَّت أم كثُرَت في «حل» الصراعات، أو بصورة أدق، في إنكار وجودها واختلاق توافق مصطنع. لقد شاهدت المحاولات الأربع الرئيسة في الحل على نحو يقترب من السياق الذي أشرت إليه ضمن هذا الكتاب. كانت المحاولة المبدئية تحتم التفوق على جزء من الصراع وإبراز نقيضه لكي يتسلط. وكانت الثانية تتمثل في «التحرك بعيدًا» عن الناس. فظهرت وظيفة العُصابية في ضوء جديد. لقد كانت العزلة جزءًا من الصراع الأساسي – أي أحد المواقف الأصلية المتصارعة تجاه الآخرين؛ لكنها كانت تمثل أيضًا محاولة حل، ذلك لأن الإبقاء على بعد وجداني بين الذات والآخرين، يضع حدًا لفعل الصراع. كانت المحاولة الثالثة مختلفة جدًا في نوعها. فبدلاً من التحرك بعيدًا عن الآخرين، ابتعد مريض العُصاب عن ذاته. أصبحت ذاته الحقيقية برمتها غير واقعية بالنسبة له إذ اختلق مكانها صورة مثلى عن نفسه أضحت فيها الأجزاء المتصارعة متغيرة المظهر جدًا بحيث أنها لم تعد تبدو كصراعات بل كجوانب متنوعة من شخصية ثرة. ساعدت هذه الفكرة على إيضاح

الكثير من المعضلات العُصابية التي كانت ما تزال حتى الآن خارجة عن حدود فهمنا بالتالي خارجة عن متناول علاجنا. ثم وضعت كذلك اثنتين من النزعات العُصابية التي كانت تقاوم الاندماج سابقًا في موضعهما المناسب. وبدت الحاجة إلى الكمال على أنها محاولة من أجل التوصل إلى هذه الصورة المثلى؛ إذ يمكن أن يُرى التوق إلى الاستحسان على أنه حاجة المريض لكسب الثقة بأنه كان حقًا صورة ذاته المثلى. ومن المنطقي أنه كلما ابتعدت الحاجة الأخيرة عن الواقع أكثر كلما أضحت أشد نهمًا. وربما تكون الصورة المثلى هي الأعظم أهمية من كل محاولات الحل بسبب تأثيرها العميق على الشخصية بكاملها. غير أنها بدورها تحدث صدعًا باطنيًا لهذا تتطلب إصلاحًا أكبر. وتنشد محاولة الحل الرابعة التخلص من هذا الصدع في المقام الأول، رغم كونها تساعد كذلك في التخلص من كل الصراعات الأخرى. تجرب العمليات الباطنية من خلال ما أسميته بعملية التخريج لكونها تتواصل خارج الذات. فإذا كانت الصورة المثلى تعني اتخاذ خطوة بعيدًا عن الذات الحقيقية فإن عملية التخريج تمثل انفصالاً أشد تطرفًا عنها. إنها تخلق صراعات جديدة مرة أخرى أو بالأحرى تزيد كثيرًا في الصراع الأصلي - وهو الكائن بين الذات والعالم الخارجي.

كنت قد سميت هذه محاولات الحل الأساسية الأربعة، جزئيًا لأنها تبدو فاعلة بصورة منظمة في جميع أمراض العُصاب - رغم

كـون ذلك يبـدو بدرجات متفاوتـة - وجزئيًا لأنهـا تحدث تغيرات حادة في الشـخصية. لكنها ليسـت الوحيدة إطلاقًـا. هناك محاولات أخرى أقل شـمولية في أهميتهـا، تتضـمن اسـتراتيجيات مثل العدالة الاعتباطيـة؛ حيـث تكـون وظيفتهـا الرئيسـية تهدئة جميع الشـكوك الباطنيـة وضبط النفس الصارم الذي يجعل شـخصًا منهارًا يتماسـك بقـوة الإرادة المحضـة والسـخرية التـي باسـتخفافها بجميـع القيـم تتخلص من الصراعات المتعلقة بالمُثُل.

في الوقـت ذاتـه، كانت نتائج جميع هـذه الصراعات تغدو أوضح بالنسـبة لي تدريجيًـا. كنت أشـاهد المخاوف المتشـعبة الجوانب التي تولـدت وتبدد الطاقة والتعويق الذي لا مناص منه للسـلامة الخلقية واليـأس العميق الـذي كان حصيلة الإحسـاس بالوقوع في شرك لا خلاص منه.

بعد أن أدركت أهمية اليأس العُصابي، ظهر لي أخيرًا معنى النزعات السادية واضحًا للعيان. كانت هذه تمثل، مثلما فهمت آنئذٍ، محاولة في العودة إلى سـابق الحـال من خلال حياة بديلة قـد اقتُحِمَت من قبل شـخص كان يائسًا على الدوام من عودته إلى نفسه. كما أن الانفعال المسـتنزف لكل شيء والـذي غالبًا ما يمكن ملاحظته في الممارسـات السادية، كان يتطور عن الحاجة النهمة لمثل هذا الشـخص إلى انتصار ثأري. بعد ذلك أصبح واضحًا لديّ أن الحاجة للاسـتغلال المدمر لم تكن في الحقيقة نزعةً عُصابية منفصلة، لكنها كانت تعبيرًا لا يقل عن

تلك الوحدة الكاملة الشاملة التي ندعوها بسبب الافتقار إلى تعبير أفضل: السادية.

هكذا ظهرت إلى الوجود نظرية في العُصاب محورها الفعال هو صراع أساسي بين مواقف «التحرك نحو» و«التحرك ضد» و«التحرك بعيدًا» عن الناس. وبسبب خوفه من انهياره من جهة وضرورة تأديته لوظيفته كوحدة واحدة من جهة أخرى يقوم الشخص العُصابي بمحاولات يائسة لحل هذه الصراعات. وبينما يستطيع النجاح بهذه الطريقة في خلق نوع من أنواع التوازن المصطنع تُولِّد لديه صراعات جديدة بصورة متواصلة مما يتطلب علاجات أخرى باستمرار من أجل القضاء عليها. كل خطوة في هذا النضال من أجل الوحدة تحيل المريض العُصابي إلى شخص أشد عدوانًا وأشد بؤسًا وأكثر رهبة وأكثر اغترابًا عن ذاته وعن الآخرين، بالمحصلة فإن الصعاب المسؤولة عن الصراعات تصبح أشد حدةً ويصبح التخلص منها أكثر تضاؤلاً. فيصبح المريض في النهاية يائسًا وقد يحاول التوصل إلى نوع من العودة إلى سابق عهده عبر مساعٍ سادية لها تأثيرها في تصاعد يأسه وهي تخلق بدورها صراعات جديدة.

إن هذه صورة كئيبة بكل معنى الكلمة عن التطور العُصابي وبنيته الشخصية الناتجة. فلماذا أدعو نظريتي بالنظرية البنّاءة؟ فهي بالدرجة الأولى تلغي التفاؤل غير الواقعي الذي يدّعي أننا نستطيع «شفاء» أمراض العُصاب بوسائل بسيطة وعلى نحو متهافت. لكنها كذلك

لاتتضمن تشاؤمًا غير واقعي. إنني أدعوها بنّاءة لأنها تتيح لنا لأول مرة أن نقارع وأن نصرف اليأس العُصابي. كما أنني أدعوها بنّاءة قبل كل شيء لأنها رغم اعترافها بصرامة العقد العُصابية فهي لا تتيح لنا تلطيف الصراعات الكامنة فحسب، بل وتصريفها بصورة حقيقية أيضًا، وهكذا تمكّننا من أن نعمل باتجاه تكامل حقيقي لعناصر الشخصية. ليس من المستطاع حل الصراعات العُصابية بواسطة القرارات المنطقية. كما أن محاولات الشخص العُصابي في حلّها ليست عديمة الجدوى فحسب بل ومضرة أيضًا. لكن هذه الصراعات يمكن أن تُصرف عن طريق تغيير الأحوال ضمن الشخصية التي أوجدتها. إن كل جزء من مهمة التحليل النفسي الذي يُنَفَّذ ببراعة، يُغيّرُ هذه الأحوال بحيث يجعل المرء أقل يأسًا وأقل رهبةً وأقل عدوانًا وأقل غربةً عن ذاته وعن الآخرين.

لقد انبثقت تشاؤمية فرويد فيما يتعلق بأمراض العُصاب وعلاجها من أعماق إنكاره للطيبة الإنسانية والنمو الإنساني. فلقد سَلَّمَ بأن الإنسان محكوم عليه أن يكابد أو أن يهلك. فالغرائز التي تدفعه يمكن أن يسيطر عليها فحسب، أو في أفضل الأحوال، يمكن أن «تتسامى» أما اعتقادي الخاص فيتمثل في أن الإنسان يمتلك القدرة وكذلك الرغبة في أن يطور إمكاناته ليصبح كائنًا بشريًا لائقًا وأن هذه الإمكانات قد تفسد تدريجيًا إذا استمرت علاقته مع الآخرين، ومن هذا المنطق، مع نفسه بالاضطراب. إنني أعتقد أن الإنسان يمكن أن

يتغـير وأن يسـتمر في التغير طالمـا بقي حيًا. وقد نما هـذا الاعتقاد مع فهم أكثر عمقًا.

الجزء الأول

الصراعات العُصابية
نظرية بناءة عن مرض العصاب

الفصل الأول

حدة الصراعات العُصابية



دعني أذكر بدءًا ذي بدء: لا يعتبر عُصابيًا من كانت لديه صراعات، فمن حين لآخر تتجه رغباتنا ومصالحنا وقناعاتنا نحو التصادم مع تلك التي ارتبطت بالآخرين من حولنا. وكما أن مثل هذه الصدامات بين أنفسنا ومحيطنا هي شيء مألوف كذلك صراعاتنا داخل أنفسنا هي جزء لا يتجزأ من الحياة البشرية.

تقرر أفعال الحيوان من قبل الغرائز على نطاق واسع. فتزاوجه وعنايته بصغاره وبحثه عن الطعام ودفاعه ضد الخطر، مقرر بشكل قليل أو كثير ويقع خارج نطاق الإرادة الفردية. على العكس من ذلك فهي ميزة كما أنها عبء بني البشر أن يكون باستطاعتهم ممارسة الاختيار وأن يتعين عليهم اتخاذ القرارات. فقد يتعين علينا أن نحسم

الأمـر بين رغبتين تقـودان إلى جهتين متعارضـتـين. إذ ربما نريد مثلاً أن نـترك لوحدنـا ولكننا نحـب أن نكون برفقة صديـق كذلك. ربما نريـد أن ندرس الطب ولكننا نحب أن نتعلم الموسـيقى أيضًـا. أو قد يكـون هناك صراع بين الرغبـات والالتزامات: فقد نرغب أن نكون برفقة حبيب عندما يحتاج إلى رعايتنا شخص يمر بمحنة. وقد نكون منقسـمين على أنفسـنا بين رغبـة عارمة في أن نكون علـى وفاق مع الآخرين وبين قناعة قد تتضمن إبداء رأي مضاد بالنسـبة للآخرين. أخـيرًا، ربما نكون في صراع بين مجموعتين مـن القيم كما يحدث حينما نؤمن أيضًـا بواجبنا تجاه عوائلنا.

يقـرر نوع ومدى وعمـق مثل هذه الصراعات على نطاق واسـع مـن قبل الحضـارة التـي نعيـش فيها. فـإذا كانـت الحضـارة وطيدة والتقاليد راسخة، يكون تنوع الاختيارات التي تطرح نفسها محدودًا. كـما يكون مدى الصراعـات الفردية المحتملة ضيقًا. حتى حينذاك لا تنعـدم الصراعات. فقـد يتعارض ولاء مع آخر وقـد تقف الرغبات الشـخصية بوجه الالتزامات تجاه الجماعة. غير أنه إذا كانت الحضارة تمر بمرحلة تحول سريع، حيث تتواجد قيم شديدة التناقض جنبًا إلى جنب مع طرق مختلفة من العيش، تكون الاختيارات التي يجب على المرء اتخاذها متشـعبة في أنواعها وصعبـة. فالمرء يمكن أن يعمل وفقًا لتوقعـات الجماعة أو أن ينهج نهجًا فرديًـا مخالفًا؛ أن ينزع إلى العيش مع غيره من جنسـه أو يعيش منعزلاً عن العالم؛ أن يقدس النجاح أو

يحتقره؛ أن يمتلك إيمانًا في الانضباط الصارم للأطفال، أو أن يسمح لهم أن يترعرعوا دون تدخل كثير؛ يستطيع أن يؤمن بمعايير خلقية مختلفة بالنسبة للرجال والنساء أو أن يتمسك بأن المعايير ذاتها ينبغي أن تطبق على كليهما؛ أن ينظر إلى العلاقات الجنسية كتعبير عن المودة الإنسانية أو يفصلها عن روابط الوجدان؛ يستطيع أن يعزز التمييز العنصري أو أن يقف إلى جانب فكرة أن القيم الإنسانية مستقلة عن لون الجلد أو أشكال الأنوف، وهلم جرًا.

هناك بلا ريب اختيارات كهذه يجب أن تتخذ في الغالب من قبل الناس الذين يعيشون ضمن حضارتنا، ولهذا السبب قد يتوقع المرء أن الصراعات في مثل هذه الأوضاع تبدو شائعة تمامًا. غير أن الحقيقة البارزة هي أن معظم الناس ليسوا على وعي بها، وكنتيجة لذلك لا يصرفونها عن طريق أي تصميم واضح. ففي أحوال غالبة ينجرفون ويتركون أنفسهم تتأرجح تحت وطأة الأحداث. إنهم لايعلمون أين يقفون؛ فيقدمون تسويات دون وعي بفعلتهم تلك ويتورطون في التناقضات دون معرفة بذلك. إنني أشير هنا إلى الناس الأسوياء ولا أعني بهم الناس، الناس المتوسطين أو المثاليين بل الأشخاص غير العُصابيين فحسب.

إذًا يجب أن تتوفر متطلبات أساسية من أجل تمييز القضايا المتناقضة ومن أجل اتخاذ القرارات على هذا الصعيد. تكون هذه المتطلبات الأساسية رباعية. فيجب أن نكون على دراية بماهية

أمنياتنا، بل أكثر من ذلك، بماهية أحاسيسنا هل نحب شخصًا ما حقًا أو نظن فحسب أننا نحبه لأنه يفترض ذلك فينا؟ هل نشعر بالحزن حقًا عند موت أحد الوالدين أو أننا نمر عبر الأحداث فحسب؟ هل يرغب أن يصبح أحدنا حقًا محاميًا أو طبيبًا أو أنها تبدو لنا كمهنة محترمة ومربحة فحسب؟ هل نريد حقًا أن يسعد أطفالنا وأن يستقلوا بأنفسهم أو أننا نعير الفكرة اهتماما عابرًا؟ قد يجد معظمنا صعوبة في الإجابة على مثل هذه التساؤلات؛ أي أننا لا نعرف حقًا ماذا نشعر أو نريد.

بما أن الصراعات غالبًا ما تتعلق بالقناعات والمعتقدات أو بالمعايير الخلقية فإن إدراكها يفترض سلفًا أننا كنا قد طورنا مجموعتنا الخاصة من المعايير. إن المعتقدات التي اضطلعنا بها والتي هي جزء منا نادرًا ما تمتلك القوة الكافية لأن تقودنا إلى صراعات أو أن تؤدي الغرض كمبدأ قيادي في اتخاذ القرارات. وحينما تتعرض لمؤثرات جديدة ستترك مثل هذه المعتقدات من أجل غيرها بسهولة ويسر - فإذا كنا قد تبنينا ببساطة قيمًا راسخة في بيئتنا، فإن الصراعات التي ينبغي أن تبرز في سبيل مصالحنا العليا، لن تبرز. مثلاً إذا لم يسبق أن ارتاب أحد الأبناء بحكمة أب يتصف بضيق الأفق فسيكون هناك صراع ضئيل حينما يريده والده أن ينتمي إلى مهنة غير تلك التي يفضلها هو نفسه. والرجل المتزوج الذي يقع في غرام امرأة أخرى هو في الحقيقة متورط في صراع؛ لكنه إذا كان قد فشل في توطيد قناعاته الشخصية

عن القصد من الزواج فإنه سينجرف ببساطة عبر ممر مقاومة ضئيلة جدًا، بدلاً من مواجهة ذلك الصراع واتخاذ قرار بطريقة أو بأخرى.

حتى إذا أدركنا صراعًا ما على اعتبار أنه كذلك، فيجب أن نكون راغبين وقادرين على أن نتخلى عن إحدى القضيتين المتناقضتين. لكن القدرة على التخلي الواعي والواضح أمر نادر لأن مشاعرنا ومعتقداتنا تكون مشوشة وربما بسبب أن معظم الناس في التحليل النهائي لا يشعرون بالأمن والسعادة بصورة كافية للتخلي عن أي شيء.

أخيرًا لاتخاذ القرار يفترض سلفًا وجود الرغبة والقابلية على تحمل المسؤولية. ذلك سيتضمن المجازفة باتخاذ القرار الخاطىء والرغبة في تحمل النتائج دون لوم الآخرين بسببها. سيتضمن ذلك الشعور بأن «هذا هو اختياري وعملي» ويفترض سلفًا قوة واستقلالاً ذاتيًا أكثر مما يمتلكه معظم الناس هذه الأيام، كما يبدو.

كما هي الحال بالنسبة للعديدين منا ممن هم أسيرون في قبضة الصراعات الخانقة – مهما تكن غير معلنة – فإن ميلنا هو أننا ننظر بحسد وإعجاب نحو الناس الذين تبدو حياتهم تنساب متقدمة بيسر دون أن يعكر صفوها أي اضطراب. قد يكون للإعجاب ما يبرره. فقد يكون هؤلاء هم الأقوياء الذين كانوا قد وطدوا دعائم السلسلة الهرمية لمعاييرهم الخاصة، أو الذين كانوا قد حصلوا على مقدار من راحة البال، حيث كانت الصراعات والحاجة لاتخاذ القرار قد

فترت قوتها المدمرة بمرور السنين. لكن المظهر الخارجي قد يكون خادعًا. ففي أغلب الأحوال يكون الناس الذين نحسدهم بسبب من التهاون أو الامتثال أو الانتهازية، غير قادرين حقًا على مواجهة صراع ما أو على محاولة تصريفه حقًا على أساس من قناعاتهم الخاصة، وفي النتيجة يكونون قد انجرفوا أو حُمِلُوا على تغيير آرائهم بواسطة الكسب المباشر.

إن تجربة الصراعات في حال كوننا على وعي بذلك رغم أنها قد تكون موجعة إلا أنها يمكن أن تكون شيئًا نافعًا لا يقدر بثمن. فكلما واجهنا صراعاتنا الشخصية وبحثنا عن حلولها الخاصة، كلما اكتسبنا قوة وحيوية باطنية أكبر. نستطيع أن نقترب من مثال كوننا ربابنة سفننا حينما نكون راغبين في تحمل وطأة المسؤولية فحسب، فراحة البال المزيفة المتأصلة في البلادة قد تكون أي شيء عدا كونها أمرًا يُحسَدُ عليه. فهي بالتاكيد تُحيلنا إلى ضعفاء وفرائس سهلة لأي نوع من التأثير.

حينما تتمحور الصراعات حول قضايا الحياة الأساسية فسيكون من الصعب مواجهتها وتصريفها. غير أنه ليس هناك سبب يحول دون قدرتنا أن نفعل ذلك مبدئيًا بشرط أن نزخر بالحيوية بما فيه الكفاية. يستطيع التعليم أن يفعل الكثير لمساعدتنا على الحياة ونحن على دراية أعظم بأنفسنا وبتطوير قناعاتنا الشخصية. إن إدراك أهمية العوامل المتعلقة بالاختيار قد يعطينا مُثُلاً نكافح من أجلها، وفي ذلك توجه من أجل حياتنا.

تـزداد الصعـاب الكامنة في تمييز وتصريف صراع ما دائمًا بشـكل لا حـد لـه حينما يكون الشـخص عُصابيًـا. فمرض العُصـاب الذي نشـير إليـه هـو دومًا مسـألة درجـة - وعندما أتحدث عن «شـخص عُصـابي» فإنني أعني بصورة ثابتة «شـخصًا عُصابيًـا إلى درجة ما». وبالنسـبة إليـه يكون وعي المشـاعر في مسـتوياته الدنيـا. في الغالب، تكوّن المشاعر المجربة بصورة واعية وواضحة ردود فعل من الخوف والغضب بالنسبة للضربات الموجهة إلى المواضع المعرضة للهجوم، وقد تكبتُ حتى أمثال هذه الأمور. أما أمثال هذه المُثُل الأصلية التي تتوفر فعلاً فتتخللها مقاييس قسرية إلى درجة قد تجردها من قوتها في إعطاء التوجيه. كما أن القدرة الشخصية على التخلي تؤول إلى العقم تحت تأرجح هذه الميول القسرية، كما أن القابلية على تحمل المسؤولية عن النفس تكون مفقودة تقريبًا.

قـد تتعلق الصراعـات العُصابيـة بنفس المشـكلات العامـة التي تحير الشـخص السـوي. لكنها تكون مختلفة جدًا في نوعها بحيث أن التساؤل كان قد طرح فيما إذا كان من الجائز استخدام المصطلح نفسـه لكليهما. إنني أعتقد أن ذلك جائز، غير أننا يجب أن نكون على وعي بتلك الاختلافات. ما هي إذًا صفات الصراعات العُصابية؟

فيـما يـلي مثال مبسـط نوعًـا مـا علـى سـبيل الإيضـاح: غالبًا ما كان أحـد المهندسـين العاملين مـع آخرين في بحـث يختص بالآلات يصـاب بنوبات من الإعياء وحدة الطبع. وكانت إحدى النوبات قد

أُثيرت بواسطة الحادث العرضي التالي. استقبلت آراؤه في إحدى الاجتماعات المتعلقة ببحث بعض المسائل الميكانيكية بتقدير يقل عن تقدير آراء زملائه. وبعد ذلك بفترة وجيزة اتخِذ قرارٌ أثناء غيابه، ثم لم يمنح بعده فرصة من أجل عرض مقترحاته. كان يمكنه في هذه الظروف أن يعتبر الإجراء ظالمًا وأن يفتعل شجارًا، أو كان بوسعه أن يتقبل قرار الأغلبية عن طيب خاطر. وكان باستطاعة أيّ من ردَّي الفعل أن يكون ردًا راسخًا. غير أنه لم يقم بأي منهما. فهو لم يقاتل رغم شعوره بالمهانة. شعوريًا، كان يعي كونه ساخطًا. كان الغيظ القاتل في دخيلة نفسه يظهر في أحلامه فحسب. هذا الغيظ المكظوم - مزيج من غضبه العارم ضد الآخرين وغضبه العارم ضد نفسه بسبب اعتداله الشخصي - كان مسؤولاً بشكل رئيس عن إرهاقه الشديد.

لقد تحتم إخفاقه في رد الفعل بصورة متناسبة من قبل عدد من العوامل. كان هو قد رسم لذاته صورة فخمة تطلب أن يتنازل الآخرون لتدعيمها. وكانت هذه غير واعية آنذاك: تصرف ببساطة مفترضًا أنه لم يكن هناك من كان يمثل ذكاءه وكفاءته في حقل الاختصاص كما كان هو.

وكان أي انتقاص من المحتمل أن يُعرّض هذا الافتراض للخطر يثير حفيظته. إضافة لذلك كان يمتلك اندفاعات سادية لا شعورية في توبيخ الآخرين وإذلالهم - إنه ولا شك موقف مرفوض بشدة

من قبل بحيث كان يخفيه تحت ستار من المودة المفرطة. ثم أضيف إلى ذلك دافع لا شعوري لاستغلال الناس، مما يجعله مضطرًا لأن يبقى عند حسن ظنهم. وتفاقم الاعتماد على الآخرين عبر الحاجة القسرية إلى الحنو والاستحسان، متحدة كما هي العادة مع مواقف المطاوعة والاسترضاء وتجنب الشجار. وهكذا كان هدف الصراع بين انفعالات العداء المدمرة - غيظ رد الفعل والانفعالات السادية - من جهة ومن جهة أخرى الحاجة إلى الحنو والاستحسان، مع الرغبة في الظهور بمظهر العادل والمعقول في عينه هو. وكانت النتيجة جَيَشانٌ باطنيّ مرّ دون أن يُلحظ، بينما شلّ الإعياء الذي كان يمثل مظهره الخارجي كلَّ فعل لديه.

عندما نراقب العوامل المشمولة بالصراع نُجابَه أولاً بتنافرها المطلق. قد يكون من العسير حقًا أن نتصور نقائض متطرفة جدًا أكثر من المطالب الكبيرة التي تدعو إلى الإذعان لإرادة فرد من الأفراد والتملق له. ثانيًا، يظل الصراع برمته لا شعوريًا. إذ لا تدرك الميول المتناقضة الفاعلة فيه، لكنها تُكبت على نحو خطير. ولا تطفو على السطح غير فقاعات قليلة فقط من المعركة المحتدمة في الأعماق. كما تبرر العوامل الوجدانية، فالمسألة مسألة ظلم وقضية استهتار، فقد كانت آرائي أكثر صوابًا. ثالثًا، تكون الميول في كلا الاتجاهين ميولاً قسرية. وحتى لو كان لديه شيء من التصور الذهني عن مطالبه المفرطة أو وجود طبيعة اتكالية لديه، فليس بوسعه تغيير هذه

العوامل طوعًا. لكي يكون قادرًا على تغييرها سيتطلب ذلك جهدًا لا يستهان به من تحليل النفس. فقد كان مدفوعًا في كل من الناحيتين بواسطة قوى مُكرِهَةٍ لا سيطرة له عليها: لم يكن ليستطيع أن ينبذ أيًا من الحاجات المكتسبة بسبب الضرورة الباطنية الملحة. لكن أيًا منها لم يكن يمثل ما كان يريده هو نفسه أو يبحث عنه حقًا. إذ لم يكن يريد أن يستغل أو أن يكون مطاوعًا وكان في الحقيقة يحتقر هذين الميلين. قضية كهذه على كل حال تمتلك أهمية بعيدة الغور نحو فهم الصراعات العُصابية. إنها تعني عدم توفر قرار عملي هنا.

مثال آخر يقدم صورة مماثلة. أحد مهندسي الديكور ممن يشتغل لحسابه الخاص كان يقوم بسرقة مبالغ صغيرة من صديق حميم لديه. لم يكن الوضع الظاهري يعطيه أي مسوغ للسرقة؛ لقد كان بحاجة للمال، لكن صديقه كان قادرًا لأن يعطيه المال برحابة صدر كما سبق أن فعل ذلك أحيانًا فيما مضى. فكان اضطراره للسرقة مثيرًا للدهشة إذ أنه كان رجلاً نزيهًا وممن كان قد أرسى مع الآخرين دعائم صداقة وطيدة.

كان الصراع التالي يقبع في أعمال الصداقة؛ كانت لدى الرجل حاجة عُصابية صريحة للحنو، ولا سيما توق مُلحّ لأن يؤخذ بيده في جميع القضايا العملية. ولما كانت هذه الخصلة مشوبة بدافع لا شعوري في استغلال الآخرين فقد تميز أسلوبه بمحاولة ممارسة كل من صفتي تحجيب النفس والتهديد. كان بوسع هذه الميول بحد ذاتها

أن تجعلـه راغبًا بل متلهفًا لقبول المسـاعدة والدعـم. غير أنه كان قد اكتسـب غطرسـة لا شـعورية تضمنت إعدادًا مماثـلاً بالنفس سريع التأثر. ينبغي على الآخرين أن يشـعروا بالارتياح للقيام بخدمته، إذ كان من العار عليه أن يطلب المسـاعدة. كان بغضه الشـديد لضرورة السـؤال قد تعـزز بحنين قوي للاسـتقلال واكتفاء الـذات مما جعله لا يطيـق الاعـتراف بأنـه كان بحاجـة لأي شيء أو لأن يطـوق عنقه بالجميل. لذلك السبب كان بوسعه أن يأخذ لا أن يَستلِم.

يختلف محتوى هذا الصراع عن محتوى المثال الأول إلا أن المميزات الأساسـية تبدو متماثلة. كما أن أي مثال آخر للصراع العُصابي سيرينا تنافرًا مشـابهًا للدواعي المتصارعـة مع طبيعتها القسريـة واللاواعية والتي تقود دائمًا إلى اسـتحالة البت في المسائل المتناقضة التي تشتمل عليها.

بعـد أخـذ نقطـة الانطـلاق الغامضة بنظـر الاعتبار، يقـع الفرق بعـد ذلك بـين الصراعـات الطبيعيـة والصراعات العُصابية بشـكل أسـاسي في حقيقـة أن التفـاوت بـين القضايـا المتصارعة يكـون أقل بكثير للشـخص السوي قياسًـا مع الشخص العُصابي. فالاختيارات التي يتعين على السـابق القيام بها تتم بين نوعين من الفعل كل منهما محتمل ضـمن إطار الشخصية المتكاملة تمامًا. وإذا تحدثنا بيانيًا فسـوف تتشعب الاتجاهات المتصارعة ٩٠ درجة أو أقل فحسب مقابل ١٨٠ درجة محتملة في مواجهة ذلك الشخص العُصابي.

كذلك الفرق بالنسبة للوعي هو مجرد فرق بالدرجة. ومثلما كان كيركجارد قد أشار إليها: «تتسم الحياة الواقعية بالتنوع الهائل حيث لا يمكن أن تُصَّور بعرضْ مثل هذه التباينات المجردة فحسب، كتلك التي تتوفر بين قنوط ليس واعيًا تمامًا وآخر هو واع تمامًا». إن باستطاعتنا على كل حال أن نذكر القول التالي: يمكن أن يكون الصراع الطبيعي واعيًا بشكل كامل ويكون الصراع العُصابي في جميع عناصره الأساسية غير واع على الدوام. وحتى إذا كان الشخص السوي غير واقع بصراعه فهو يستطيع تمييزه بمساعدة طفيفة نسبيًا، بينما تكون الميول الأساسية المولدة للصراع العُصابي قد كبتت عميقًا ويمكن الكشف عنها مقابل مقاومة عظيمة.

يتعلق الصراع الطبي بالاختيار الواقعي لواحد من احتمالين يجد الشخص كلاً منهما مرغوبًا فيه فعلاً، أو بين قناعتين يُقدّر الشخص كلاً منهما حقيقة. لذلك بمستطاعه أن يصل إلى قرار عملي حتى وإن كان ذلك عسيرًا عليه ويتطلب إنكارًا من نوع ما. أما الشخص العُصابي المنهمك في الصراع فليس حرًا في الاختيار. فهو مدفوع على حد سواء من قبل قوى قاهرة نحو اتجاهات متضاربة لا يرغب أن يتبع أيًا منها. وهكذا فإن أي قرار بالمعنى المعتاد يبدو مستحيلاً. وهو يجنح إلى الشاطئ ولكن لا يبدو هناك طريق للخلاص. بالاستطاعة تصويب الصراع بالتأثير على النزعات العُصابية ذات العلاقة وبواسطة تغيير علاقات العُصابي مع نفسه ومع الآخرين تمامًا حيث يستطيع الاستغناء عن النزعات بكل ما في الكلمة من معنى.

تتسبب هذه المميزات في حدة الصراعات العُصابية. فهي ليست صعبة جدًا في التمييز وهي لا تحيل المرء إلى إنسان عاجز فحسب بل تشتمل على قوة مدمرة، كذلك للعُصابي مطلق الحق في التخوف منها. وما لم نتعرف على هذه المميزات ونحتفظ بها في أذهاننا فسوف لن نفهم المحاولات اليائسة التي يقوم بها الشخص العُصابي لحلها والتي تؤلف الجزء الأهم من مرض العُصاب.

الفصل الثاني

الصراع الأساس

تلعب الصراعات دورًا لا حد له في مرض العُصاب وبصورة أعظم مما كان يفترض على وجه العموم. وعلى كل حال فالعثور على الصراعات ليس بالأمر اليسير – جزئيًا لأنها غير واعية أساسًا، وإلى درجة أكثر من ذلك لأن الشخص العُصابي يقوم بجهد عظيم جدًا في سبيل إنكار وجودها. إذًا ما هي المؤشرات التي تبرر ارتيابنا بوجود صراعات كامنة؟ في المثالين اللذين أشير إليهما في الفصل السابق كان وجود تلك الصراعات قد بُيِّن بواسطة عاملين، كل منهما يتميز بالوضوح إلى حدٍ ما. تمثل أحدهما في العرض المرضي الناتج – الإعياء في الحالة الأولى والسرقة في الحالة الثانية– ففي الحقيقة أن كل سمة عُصابية تشير إلى صراع كامن؛ أي أن كل سمة تمثل تطورًا

مباشرًا قل أو كثر عن صراع من الصراعات. وسنشاهد تدريجيًا ما تفعله الصراعات غير المصرفة بالناس وكيف تحدث حالات من القلق والاكتئاب والحيرة والعطالة والعزلة، وهلم جرًا.

إن فهم العلاقة السببية هنا يساعد على توجيه انتباهنا من الاضطرابات الظاهرة إلى مصدرها، رغم أن طبيعة المصادر المحددة لن تكون ظاهرة للعيان.

كانت العلامة الأخرى الدالة على أن الصراعات تفعل فعلها، تتمثل في التناقض الذاتي. فقد رأينا في المثال الأول رجلاً مقتنعًا بخطأ أحد الأساليب وأن ظلمًا كان قد لحقه ولا يفعل شيئًا للاحتجاج عليه. في المثال الثاني لجأ أحد الأشخاص، ممن كان يقدر الصداقة حق قدرها، إلى سرقة النقود من صديق حميم. قد يكون الشخص نفسه أحيانًا واعيًا لمثل هذه التناقضات الذاتية ولكنه في الأعم الأغلب لايبصرها حتى وإن كانت تلفت النظر بضجيجها بالنسبة لمراقب غير متمرس.

تمثل التناقضات الذاتية إشارة جلية عن وجود الصراعات مثلما يمثل ارتفاع درجة حرارة الجسم اضطرابًا جسديًا. نورد هنا صورًا لبعض الشائع منها: ترغب فتاة ما أن تتزوج قبل أي شيء آخر ومع ذلك فهي تضطرب من مغازلة أي رجل يتقدم إليها. وغالبًا ما تنسى إحدى الأمهات الجزعات مناسبة أعياد الميلاد لأطفالها. يتميز أحد الأشخاص الموصوفين بالسخاء والكرم، بالتقتير الشديد على نفسه.

وقد يتوق شخص آخر للوحدة لكنه لا ينجح أبدًا في البقاء بمفرده. أو قد يكون أحدهم ممن عرف بالتسامح والحلم مع معظم الناس، شديد القسوة وكثير المتطلبات مع نفسه.

وعلى عكس الأعراض المرضية غالبًا ما تتيح التناقضات الذاتية افتراضات مبدئية بشأن طبيعة الصراع الكامن. فالاكتئاب الحاد على سبيل المثال، يكشف عن حقيقة أن الشخص أسير مأزق من المآزق. ولكن عندما تنسى أم متفانية أعياد ميلاد أطفالها فإننا نميل إلى الظن بأن الأم كانت أشد تعلقًا بمثالها كأم صالحة أكثر من تعلقها بالأطفال أنفسهم. وربما نعترف أيضًا باحتمال أن مثاليتها قد تصادمت مع ميل سادي غير واع من أجل تثبيط عزائمهم.

أحيانًا يطفو أحد هذه الصراعات على السطح، أي أنه يجرب شعوريًا بكونه كذلك. يبدو هذا على تناقض مع توكيدي بأن الصراعات العُصابية هي صراعات لاشعورية. لكن ما يظهر واقعيًا هو تشويه أو تعديل للصراع الحقيقي. وهكذا فقد ينهار أحد الأشخاص نتيجة صراع محسوس حينما يجد نفسه رغم أساليبه المراوغة والتي تؤدي عملها عادة بشكل جيد، في مجابهة مع ضرورة اتخاذ قرار مهم. إذ قد لا يسعه أن يقرر بشكل حازم إن كان سيتزوج من هذه المرأة أم تلك أو ألا يتزوج إطلاقًا؛ أو إن كان سيستلم هذه العمل أم ذاك؛ أو إن كان سيحتفظ بشراكة شريك أو أن يفسخها. ثم سيمضي عبر معاناة عظيمة، وهو يتراوح بين نقيض ونقيض

غـير قـادر تمامًا على التوصـل إلى أي قرار. وقد يراجع محللاً نفسـيًا أثناء محنته متوقعًا أن يوضح له المسـائل الخاصة بذلك. سيخيب أمله بالـضرورة لأن الصراع الحاضر هـو الموضع الذي تفجرت فيه أخيرًا قنبلـة الصدامـات الباطنيـة. إن المعضلة الخاصة التي يجتـاز العُصابي محنتهـا لا يمكن أن تحـل الآن دون المرور عبر طريـق المعاناة الطويلة لتمييز الصراعات المختفية وراءها.

قد يعمل على تخريج الصراع الباطني في حالات أخرى؛ فيبدو في عقل الشخص الواعي كنوع من التناقض بين ذاته ومحيطه. أو، عندما يجـد أحد الأشـخاص أن المخاوف والمشـاعر المكبوتة التي لاتسـتند على أسـاس قوي ظاهريًا، تتدخل في رغباتـه، فقد يكون على وعي بأن التيارات المتضاربة داخل ذاته تنطلق من مصادر أبعد غورًا.

كلـما توصلنـا إلـى معرفة أكـبر عن أحد الأشـخاص كلـما كانت قدرتنـا أفضـل في تمييـز العنـاصر المتصارعـة التـي تعلـل الأعراض المرضيـة والتناقضـات الذاتيـة والصراعـات السـطحية. ويجـب أن نضيـف، كلـما أضحت الصورة مضطربة بشـكل أوضـح من خلال عـدد وتنـوع التناقضـات. لذلك ننقاد إلى التسـاؤل: هـل يمكن أن يكـون هنـاك صراع أسـاس يكمن خلف هـذه الصراعـات الخاصة ويكون مسـؤولاً أصـلاً عنها جميعا؟ هل يسـتطيع المرء أن يتصور بنية الصراع، مثلاً في شـكل زواج غير منسـجم، إذ ثمة صـور لانهاية لها مـن الخلافات والمشـاحنات التي تبـدو غير مترابطـة ظاهريًا، بصدد

الأصدقاء أو الأطفال أو الموارد المالية أو أوقات تناول الطعام أو بسبب الخدم أو ربما بعض التنافر الجوهري في العلاقة ذاتها؟

إن الاعتقاد بوجود صراع أساس داخل النفس البشرية هو اعتقاد قديم ويلعب دورًا حيويًا في مختلف الأديان والفلسفات. إن قوى النور والظلام أو الحكمة والشيطان، أو الخير والشر تمثل بعض الطرق التي عبر عنها بهذا الاعتقاد. كان فرويد قد أجرى بحوثًا رائدةً في هذا المجال وفي مجالات أخرى عديدة. وكان افتراضه الأول أن الصراع الأساس صراع بين دوافعنا الغريزية بإلحاحها الشديد نحو الإشباع وبين المحيط الذي يمنع ذلك، أي العائلة والمجتمع. إن المحيط الذي يحرم الغرائز يستوعب داخليًا في سن مبكرة ويظهر منذ ذلك الوقت دائمًا على هيئة الـ: «أنا» العليا والتي تحرم.

قلما يكون ملائمًا أن نبحث هنا في هذا المفهوم بالجدية التي يستحقها. سيتطلب هذا موجزًا لكل الحجج التي طرحت ضد نظرية الطاقة الجنسية. دعنا نحاول بدلاً من ذلك أن ندرك معنى المفهوم ذاته حتى ولو أدى ذلك لابتعاد أو إقصاء فرضيات فرويد النظرية. وما سيبقى إذًا هو الرأي المتنازع عليه بأن التعارض بين الدوافع البدائية المتمركزة في الذات وضميرنا المحرّم هو المصدر الرئيسي لصراعاتنا المتنوعة كثيرًا. كما سيشاهد بعدئذٍ فإنني كذلك أعزو لهذا التعارض أو ما يشابهه تقريبًا عبر طريقتي في التفكير، مكانةً رئيسة في بنية مرض العُصاب. ما أُفنّدُهُ هو طبيعته الجوهرية، ويتمثل اعتقادي

في أنه ولو كان صراعًا أساسًا فهو ثانوي وينبثق بالضرورة أثناء تطور مرض العُصاب.

ستغدو أسباب هذا التفنيد بينةً فيما بعد. هنا أذكر هذه الحجة الفريدة فحسب: إنني لا أعتقد أن أي صراع بين الرغبات والمخاوف يستطيع أبدًا أن يفسر مدى التمزق الذي يصله الشخص العُصابي داخل نفسه ولا أن يفسر حصيلة تتصف بضرر بالغ بحيث تستطيع هدم حياة شخص من الأشخاص فعلاً. إن الحال النفسية التي يفترضها فرويد ستقتضي ضمنًا أن يحتفظ الشخص العُصابي بالقدرة على أن يكافح من أجل شيء ما من كل قلبه وأن يشعر بالإحباط فحسب في كفاحه هذا بسبب فعل المخاوف المعوقة. وما أراه أنا شخصيًا هو أن مصدر الصراع هذا يدور حول فترات فقدان القابلية على الرغبة في أي شيء بصدق لأن رغباته ذاتها تكون متضاربة، أي أنها تسير في اتجاهات متعاكسة. قد يعبر هذا عن حال خطيرة حقًا أكثر بكثير من تلك التي تصورها فرويد.

على الرغم من حقيقة أنني أعتبر الصراع الأساس أكثر تمزيقًا مما يعتبره فرويد، غير أن وجهة نظري عن إمكانية وجود حل لابد منه أكثر إيجابية من وجهة نظره. فالصراع الأساسي طبقًا لفرويد هو صراع عام وهو غير قابل للتصريف: كل ما يمكن عمله هو التوصل إلى تسويات أفضل أو إلى سيطرة أفضل. أما طبقًا لوجهة نظري فلا يتعين في المقام الأول أن يبرز الصراع العُصابي الأساس بالضرورة فهو قابل

للتصريف إذا حدث وظهر فعلاً، بشرط أن يكون من يكابده راغبًا في اجتياز الجهود والصعاب التي لا يستهان بها والتي تتصل به. هذا الفرق ليس مسألة تفاؤل أو تشاؤم، لكنه ينتج حتمًا عن الفرق بين فرضياتنا.

يتميز جواب فرويد الأخير على قضية الصراع الأساس بكونه يتمتع بجاذبية فلسفية كبيرة. ومرة أخرى بعد طرح مختلف طرائق تفكيره جانبًا تختصر نظريته عن وجود غريزة «حياة» و«موت» إلى صراع بين القوى البناءة والمدمرة لدى الكائنات البشرية. كان فرويد نفسه أقل اهتمامًا في ربط تأثير هذه الفكرة بالصراعات من ربطها بالطريقة التي تتداخل فيها القوتان فيما بينهما. فقد رأى مثلاً إمكانية تعليل دوافع الاضطهاد والدوافع السادية على أنه مجرد اندماج بين الغرائز الجنسية والغرائز المدمرة.

عند تطبيق هذه الفكرة على دراسة الصراعات سيتطلب الأمر إدخال المعايير الخلقية والتي كانت بالنسبة لفرويد تمثل دخلاء غير شرعيين على مملكة العلم. لقد كافح فرويد وفقًا لقناعته من أجل تطوير علمٍ للنفس خالٍ من القيم الخلقية. إنني أعتقد أن مجرد هذه المحاولة في أن يكون «علميًا» بمقاييس العلوم الطبيعية هي أحد الأسباب الأكثر إقناعًا في اقتصار نظريات فرويد والعلاج الذي يستند عليها، على قنوات ضيقة جدًا. وبصورة أكثر تخصيصًا يبدو أنها ساهمت في فشله في تقدير دور الصراعات في مرض العُصاب رغمًا عن جهده الشامل في هذا الحقل.

لقد وضع يونغ أيضًا توكيدًا لا يستهان به على الميول المتعاكسة لدي الكائنات البشرية. وكان يونغ، في الحقيقة، متأثرًا بالتناقضات المؤثرة في الفرد إلى درجة كبيرة حيث اتخذها كقاعدة فعلية تشير إلى أن توفر أي عنصر في الفرد سيشير بالضرورة إلى توفر ما يقابله. فمظهر التأنث الخارجي كان يدل على رجولة في الداخل والانبساط السطحي كان يعني انطواءً خفيًا والتفوق الظاهري في التفكير والاستنتاج كان يدل على تفوق الإحساس بالذات، وهلم جرًا.

عبر هذا المنطق فإن يونغ اعتبر الصراعات ميزة جوهرية بارزة في مرض العُصاب. ولكنه يستمر في القول بأن هذه النقائض ليست متصارعة بل متكاملة. والهدف هو قبول كليهما وبذلك يتم الإقتراب من الحال المثالي المتكامل. كما يمثل الشخص العُصابي بالنسبة له من يجنح في تطور أحادي الجانب. لقد صاغ يونغ هذه الآراء فيما دعاه بقانون المكملات. إنني أدرك الآن أيضًا أن الميول المتعارضة تتضمن عناصر تكميلية لايمكن الاستغناء عن أي منها في الشخصية الموحدة. غير أن هذه الميول المتعارضة تظل في رأيي مجرد ثمرات نامية عن الصراعات العُصابية وأن العُصابي يتشبث بها بعناد شديد لأنها تمثل محاولات في الحل. فإذا اعتبرنا مثلاً أن الميل نحو الاستبطان والانسحاب أكثر تعلقًا بمشاعر الفرد الشخصية وأفكاره أو مخيلته من تعلقها بتلك التي تعود للآخرين، كميلٍ أصيلٍ – لو فعلنا ذلك إذًا سيكون استنتاج يونغ صحيحًا. وسيتمثل إجراء العلاج الفعال في

أن نعرض على الشخص ميوله «الانبساطية» الخافية وأن نبين أخطار التطور من جانب واحد في كل من الاتجاهين، وبهدف تشجيعه على أن يقبل التعايش مع كل من الميلين. وعلى كل حال، إذ اعتبرنا الانطواء (أو كما أفضل أن أسميه العزلة العُصابية) كوسيلة للتخلص من الصراعات التي تنشأ عن الاحتكاك المباشر مع الآخرين، فالمهمة لن تكون التشجيع على انبساط أكثر بل على تحليل الصراعات الكامنة. ويمكن الاقتراب من هدف العفوية النابعة من القلب بعد أن تكون الصراعات هذه قد صُرِّفت فحسب.

و استمرارًا في تطوير موقفي الخاص، أرى أن صراع الشخص العُصابي الأساسي يكمن في مواقفه المتناقضة جوهريًا والتي كان قد اكتسبها نحو الأشخاص الآخرين. قبل الدخول في التفاصيل دعوني ألفت الانتباه إلى التعبير المسرحي عن هذا التناقض في قصة الدكتور جيكل والسيد هايد. فنحن نراه من جهة رقيقًا وحساسًا وودودًا، يحب المساعدة، ومن جهة ثانية يبدو متوحشًا، قاسي الفؤاد وأنانيًا، إنني بطبيعة الحال لا أقصد أن ألمح إلى أن التمزق العُصابي يتقيد دائمًا بالمسار الدقيق لهذه القصة ولكن لمجرد الإشارة إلى تعبير مفعم بالحيوية نحو مواقف التنافر الأساسي تجاه الآخرين.

عند التعامل مع المعضلة وراثيًا يجب أن نرجع إلى ما كنت قد دعوته القلق الأساس قاصدة بذلك الشعور الذي يتملك الطفل بكونه معزولاً وعاجزًا في عالم تكمن فيه إمكانية العدوان. يمكن

لسلسلة طويلة من العوامل المتضاربة في البيئة أن تنتج عدم الأمان لدى الطفل: كالتسلط المباشر أو غير المباشر، اللامبالاة، السلوك الشاذ، عدم احترام حاجات الطفل الفردية، انعدام التوجيه الحقيقي، مواقف الانتقاص، الثناء المفرط أو غياب الثناء، عدم توفر حنان يعول عليه، الاضطرار إلى التحيز إلى أحد الجانبين في الخلافات بين الوالدين، المسؤولية المضاعفة أو الضئيلة جدًا، الحماية المفرطة، الانعزال عن الأطفال الآخرين، الظلم، المحاباة، الوعود غير المنفذة، والجو العدائي أو غيرها من الأسباب.

إن العامل الوحيد الذي ينبغي أن ألفت إليه الانتباه بشكل خاص في هذا المضمار هو إحساس الطفل بالنفاق المترصد في البيئة: إحساسه بأن حب الوالدين وتمسكهم بأهداب الدين، ونزاهتهم، وكرمهم، أو غيره، قد يكون مجرد ادعاء. إن جزءًا مما يحس به الطفل بهذا الصدد هو رياء في الحقيقة؛ لكن بعضًا منه قد يكون مجرد رد فعل لكل التناقضات التي يشعر بها في سلوك الأبوين. هناك في العادة خليط من عوامل شديدة التعقيد. قد تكون هذه ظاهرة علنًا أو خفية تمامًا بحيث يستطيع المرء عند التحليل وبصورة تدريجية أن يميز هذه المؤثرات على تطور الطفل.

يتلمس الطفل، لدى شعوره بالضيق مما يحيط به طرقًا تعينه على المضي قدُمًا، طرقًا من أجل الكفاح في هذا العالم الخطر. وعلى الرغم من ضعفه ومخاوفه الخاصة فهو يكيف وسائله لمواجهة القوى

الخاصة الفاعلة في بيئته. عند قيامه بذلك فهو لا يطور استراتيجيات لهذا الغرض بالذات بل نزعات مميزة تصبح جزءًا من شخصيته كنت قد سمّيتها بــــــــ «النزعات العُصابية».

إذا أردنا أن نشاهد كيف تنشأ الصراعات علينا ألا نركز بدقة كبيرة على النزعات الفردية بل من الأفضل أن نلقي نظرة شاملة على الاتجاهات الرئيسة التي يستطيع ويتحرك الطفل فعلاً بواسطتها في هذه الظروف. ورغم أننا لا نبصر التفاصيل سريعًا إلا أننا سنحصل على منظور أوضح عن التحركات الأساس المتخذة لغرض مقارعة البيئة. قد تبدو لنا في البداية صورة فوضوية غير أنها ستتبلور في حينه إلى ثلاثة خطوط رئيسة: فيستطيع الطفل أن يتحرك نحو الناس أو ضد الناس أو بعيدًا عنهم.

حينما يتحرك الطفل نحو الناس فهو يتقبل عجزه الشخصي ويغض النظر عن اغترابه ومخاوفه فهو يحاول الفوز بحنو الآخرين وأن يتكئ عليهم. كما يستطيع أن يشعر بالأمن معهم بهذه الطريقة. فإذا كانت أطراف متنازعة داخل العائلة فسيلحق نفسه بأكبر الأشخاص أو الجماعات قوة. فهو يحصل إذ يسايرهم على إحساس بالانتماء والمساندة مما يجعله يحس أنه أقل ضعفًا وأقل عزلة.

وحينما يتحرك ضد الناس فهو يتقبل ويعتبر حال العدوان من حوله كأمر مسلم به، ويقرر شعوريًا أو لا شعوريًا أنه في عراك دائم. فهو لا يثق ضمنيًا بمشاعر ونوايا الآخرين تجاهه. فيتمرد من خلال

أيـة ثغـرة تصادفه. إنـه يرغب أن يصبـح أقوى فيهزمهـم، جزئيًا من أجل سلامته الشخصية أو جزئيًا من أجل الانتقام من الآخرين.

أمـا حينما يتحـرك بعيدًا عن النـاس، فهو لا يريـد أن ينتمي أو أن يتشـاجر وإياهـم، بـل ليبقى بمعزل عنهم وهو يشـعر أنـه لا يمتلك الكثير مما يشـاركهم فيه، إنهم لا يفهمونه على أية حال. فيشـيد عالمًا خاصًا بذاته: بطبيعته، بلعبه، بكتبه وأحلامه.

في كل مـن هـذه المواقـف، يكـون أحد العنـاصر المرتبطـة بالقلق الأسـاسي مؤكـدًا بإفـراط: العجز عنـد الأول والعدوان عنـد الثاني والعزلـة عنـد الثالث. لكـن الحقيقة هي أن الطفل لا يسـتطيع القيام بأي من هذه التحركات بصدق نابع من القلب وذلك بسـبب حتمية تواجدهـا جميعًا تحت الظروف التي تتطـور فيها المواقف هذه. فما كنا قد شـاهدناه عبر نظرتنا الشاملة هو التحرك البارز فحسب.

إن ذلك سـيغدو جليًـا إذ اتجهنا الآن مقدمًا حيـث مرض العُصاب المتطور تمامًا. كلنا نعلم بوجود أشخاص بالغين ممن يتوفر عندهم أحد المواقـف التي رسـمناها على وجـه السرعة وهو يبرز بوضـوح. لكننا نسـتطيع أن نرى أيضًا أن ميوله الأخرى لم تكف عن العمل. فبوسـعنا أن نلاحظ لدى النمط الاتكالي والمطاوع ميولاً عدوانية وبعض الحاجة إلى الانعزال. إذ يمتلك الشـخص العدواني بشكل جوهري ضربًا من المطاوعة كما أنه يحتاج إلى العزلة أيضًا. كما أن الشخصية المنعزلة ليست مجردة من روح العدوان ولا من الرغبة بالحنو.

إن الاتجاه النفسي البارز، على كل حال، هو الذي يقرر بأقصى قوة السلوك الحاصل. فهو يمثل تلك الطرق والوسائل في التعامل مع الآخرين والتي يحس من خلالها شخص معين بأقصى ما يمكن من الارتياح لذلك يستخدم الشخص المنعزل، في الحقيقة كل الأساليب اللاشعورية في إبقاء الآخرين على مسافة تكون آمنة بالنسبة إليه بسبب شعوره بالارتباك فيما يتطلب منه الارتباط الوثيق بالآخرين. إضافة لذلك، يكون الموقف المسيطر في الغالب وليس دائمًا، هو الموقف الأكثر قبولاً بالنسبة لعقل الشخص الواعي.

إن هذا لا يعني أن الاتجاهات النفسية الأقل بروزًا هي الأقل قوة. في الغالب قد يكون من الصعب القول، مثلاً، فيما إذا كانت رغبة السيطرة هي أضعف شدة من الحاجة للحنو عند شخص اتكالي ومطاوع ظاهريًا، لكن طرقه في التعبير عن اندفاعاته العدوانية تبدو أكثر مواربة فحسب، كما تلاحظ حيوية الميول الدفينة، وهي عظيمة جدًا، عبر الأمثلة الكثيرة التي يرتد فيها الاتجاه الذي اكتسب بروزًا إلى العكس. ويمكننا أن نشاهد مثل هذا الانعكاس عند الأطفال ولكنه يحدث في أواخر العمر كذلك. قد يمثل ستر ايكلاند في رواية سمرسيت موم: **القمر والستة بنسات** صورة حية جيدة. وغالبًا ما تكشف السير المرضية عند النساء عن هذا النوع من التغيير. فحينما يحدث أن تعشق فتاة كانت سابقًا مسترجلة، وطموحةً، ومتمردة فإنها تنقلب إلى امرأة اتكالية، لينة العريكة وبلا طموح ظاهريًا. وقد

يتقلب شخص منعزل، تحت وطأة التجارب المريرة، إلى شخص اتكالي بصورة تثير الكآبة.

و ينبغي أن نضيف أن تغيرات مثل هذه تسلط بعض الضوء على السؤال الذي يتردد فيما إذا كانت الخبرة التالية لا طائل من ورائها إذا كنا قد حوصرنا ضمن قنوات محدودة وجُبلنا مرةً وعلى شيء وإلى الأبد بواسطة أوضاعنا أثناء مرحلة الطفولة. إن معاينة التطور العُصابي من وجهة نظر الصراعات تمكننا من أن نقدم جوابًا أكثر ملائمة لما تقدم أعلاه. و هذه هي الاحتمالات: إذا كانت الحال المبكرة لا تكبح النمو الطبيعي بقسوة مفرطة فمن الممكن أن يكون للخبرات اللاحقة سيما في سن المراهقة تأثيرًا فعالاً. وإذا كان تأثير الخبرات المبكرة قويًا بما لا يستهان به بحيث أنه كان قد صَّب الطفل في نمط متصلب فلن تستطيع أية خِبَر جديدة أن تخترق طريقها إليه. لأن ذلك جزئيًا بسبب صلابته التي لاتتركه عرضة لأية خبرة جديدة: فقد تكون عزلته، مثلاً، عظيمة جدًا بحيث لا تسمح لخبرة أي امرئ أن تؤثر فيه أو قد تكون اتكالية عميقة الجذور جدًا بحيث أنه يضطر دائمًا أن يلعب دورًا ثانويًا وأن يشجع الآخرين على استغلاله. وجزئيًا لأنه يفسر أية خبرة جديدة بلغة نمطية: فالصنف العدواني، مثلاً، عند مواجهته للمودة، سينظر إليها، إما على أنها ظاهرة غباء أو أنها محاولة لاستغلاله؛ فالخبرة الجديدة ستميل إلى ترسيخ النمط القديم. وقد يبدو، عندما يتبنى الشخص العُصابي فعلاً موقفًا مغايرًا،

كما لو أن الخبرة المتأخرة قد أحدثت تغييرًا في شخصيته، إنما على كل حال، لن يكون التغيير جوهريًا كما يبدو. فما حدث في الواقع هو أن الضغوط الداخلية والخارجية المختلطة كانت قد اضطرته إلى نبذ موقفه المتسلط لصالح النقيض الآخر ولكن هذا التغيير ما كان قد حدث لو لم تكن هناك صراعات منذ البداية.

ليس هناك سبب، من وجهة نظر الشخص السوي، يحول دون كون المواقف الثلاثة متضامنة بعضها مع البعض بصورة مشتركة. إذ ينبغي على المرء أن يكون قادرًا على التنازل للآخرين وعلى الكفاح وعلى الانعزال بنفسه. يمكن للمواقف الثلاثة أن تكمل بعضها بعضًا وأن تخلق كلاً متناغمًا. فإذا طغى أحدها فذلك يشير إلى تطور متزايد في أحد تلك المسارات.

إلا أن هناك أسبابًا عدة في كون هذه المواقف غير قابلة للانسجام مع بعضها بعضًا في مرض العُصاب. فالشخص العُصابي غير مرن وهو منقاد للمطاوعة وللشجار وللتعالي، بغض النظر عما إذا كان التحرك متفقًا مع الظرف الخاص أم لا. وهو يصاب بحالة رعب إذا تصرف خلافًا لذلك. ولهذا السبب حينما تتواجد المواقف الثلاثة بأية درجة من القوة فسيؤدي ذلك بالعُصابي إلى الوقوع في شرك صراع مرير.

هناك عامل آخر يزيد بشكل كبير من مدى الصراع ويتمثل في كون الاتجاهات لا تظل محصورة في نطاق العلاقات الإنسانية ولكنها

تغزو الشـخصية بكاملها كما يغزو النسيج العضوي ورم خبيث. ولا يؤدي الأمر إلى تطويق علاقة الشـخص بالآخرين فحسب، بل إلى تطويق علاقته مع نفسه ومع الحياة عمومًا. فإذا لم نكن على وعي تام بهذه السـمة المطوقة بكل معنى الكلمة، فسوف يغرينا ذلك بالتفكير بالصراع الناتج ضمن تعابير مطلقة كالحب نقيض البعض والمطاوعة نقيض التحدي والإذعان نقيض السيطرة، وهلم جرًا.

قـد يكون ذلـك مضللاً، على كل حـال، مثلما يكـون التمييز بين الفاشـية والديمقراطيـة بالتركيـز علـى أيـة سـمةٍ مضـادة منفـردة، كالفـرق بينهـما في النظرة إلـى الدين أو السـلطة. وهـذان هما فرقان بالتأكيد، لكن التشـديد المطلق عليهما سيؤدي إلى حجب الميزة في أن الديمقراطية والفاشـية هما عالمان مفترقان ويمثلان فلسفتين حياتيين غير متجانستين مع بعضهما إطلاقًا.

ليـس حدثًا طائرًا أن الـصراع الذي يبدأ في علاقتنـا مع الآخرين يؤثـر بمرور الزمن في الشـخصية بكاملهـا. إن العلاقات الإنسـانية حاسـمةٌ جدًا، مـن حيث أنها تؤدي إلى صياغة الصفات الشـخصية التـي نكتسـبها والأهداف التـي نضـعها لأنفسـنا والقيـم التي نؤمن بهـا. إن كل هذه بدورها تضفـي رد فعلها على علاقاتنا مع الآخرين وهكذا فهي متداخلة بشكل معقد.

إن الـرأي الذي أناقشـه هـو أن الصراع الناشـئ عـن الاتجاهات غير المتجانسـة يؤلـف محور مرض العُصاب ولهذا السبب يستحق أن

يوصف بالصراع الأساس. ثم دعوني أضيف بأنني أستخدم تعبير محور لا بالمعنى المجازي لأنه هام فحسب، بل لتأكيد الحقيقة في كونه المركز الحيوي الذي تبعث منه أمراض العُصاب. هذا الرأي الذي أناقشه هو نواة نظرية حديثة عن مرض العُصاب حيث ستصبح معانيها جلية فيما سيأتي لاحقًا. عند تقويمها بشكل عام يصبح من المستطاع اعتبارها تفصيلاً لفكرتي الأولى في أن أمراض العُصاب تمثل تعبيرًا عن اضطراب في العلاقات الإنسانية.



الفصل الثالث

التحرك نحو الناس

من المستحيل أن نقدم الصراع الأساس عن طريق عرضه ببساطة وهو يفعل فعله في عدد من الأفراد. إذ بسبب قوته الممزقة يشيّد مريض العُصاب بنية وقائية حوله مما يفيد لا في حجبه عن الأنظار فحسب بل في الغوص به أيضًا عميقًا جدًا بحيث لا يمكن عزله في صورته المجردة. فتكون المحصلة أن ما يطفو على السطح يمثل المحاولات المختلفة بحثًا عن الحل، أكثر من كونها الصراع نفسه. لذلك فالتفصيلات البسيطة للتأريخ المرضي لاتؤدي إلى تجسيد جميع مضامينه وسيكون العرض بالضرورة مرتبطًا بالظروف إلى أبعد مدى وقد يقدّم صورة غير واضحة بشكل يفوق المعتاد.

علاوة على ذلك، لايزال الرسم التخطيطي الذي قُدّم في الفصل السابق بحاجة لأن يتكامل. ولكي نفهم كل ما يشتمل عليه الصراع الأساس، يجب أن نبدأ بدراسة جميع العناصر المتصارعة كلاً على حدة. ونستطيع أن نفعل ذلك بشيء من النجاح إذا راقبنا أنماط الأفراد ممن سيطر عليهم اتجاه أو آخر من هذه العناصر بشكل بارز والذي يمثل للفرد الذات الأكثر قبولاً.

سأقوم بتصنيف هذه الأنماط لغرض التبسيط في هيئة شخصية مطاوعة وعدوانية ومنعزلة. سنركز في كل قضية على الموقف الأكثر قبولاً لدى الشخص تاركين، ما أمكن ذلك، الصراعات التي يخفيها عن الأنظار. سنجد في كل من هذه الأنماط أن الموقف الرئيس تجاه الآخرين، كان قد خلق، أو على الأقل قد عزز بروز حاجات وصفات وحساسيات ومشاعر مكبوتة باطنيًا ومشاعر قلق معينة، وأخيرًا وليس آخر، مجموعة خاصة من القيم.

قد تمتلك هذه الطريقة بعض النواقص ولكن لها أيضًا بعض المنافع الأكيدة. فبواسطة تمحيص وظائف وبنية مجموعة من !الاتجاهات وردود الفعل والمعتقدات وغيرها في نماذج من الناس حيث تكون بارزة نسبيًا، سيكون من السهل أن نميز مجموعات مماثلة ضمن حالات تظهر فيها بهيئة غامضة ومضطربة نوعًا ما. وفوق ذلك فإن تأمل الصورة المركزة سيؤدي إلى إبراز التناقض الذاتي في المواقف الثلاثة بشكل مجسد، عند الرجوع إلى القياس التمثيلي عن

الديمقراطيـة نقيض الفاشـية: إذا أردنا أن نبـين الفرق الجوهري بين مجموعة من العقائد الديمقراطية والفاشـية، فسـوف لن نستهل ذلك بالحديث عن شـخص يختلط عنده الاعتقاد ببعض المثل الديمقراطية مـع نزعة سرية نحو الأسـاليب الفاشـية. إنما نفضـل أن نحاول أولاً الحصول على صورة للعقلية الفاشـية عن طريق مؤلفات مناقضة لها كمؤلفـات عن الاشـتراكية الوطنيـة وتطبيقاتها مثلاً ومـن ثم التقدم نحو مقارنتها بأكثر الصيغ تعبيرًا عن الطريقة الديمقراطية. قد يعطينا هـذا انطباعًا جليًا عن الاختلاف بـين مجموعتين من العقائد، وهكذا سوف تسـاعدنا على أن نفهـم الأشخاص والجماعات الذين حاولوا تحقيق تسوية بينهما.

المجموعـة (1) النمط المطـاوع: تظهر كل الصفات التي تصاحب «التحرك نحو» الناس.

يرينـا هـذا النمط حاجـة واضحـة للحنو والاستحسـان وحاجة ماسـة إلى «رفيـق» أي صديق أو حبيـب أو زوج أو زوجة «لتحقيق كل آمال الحياة ولتحمل على عاتقها مسـؤولية الخير والشر ولتصبح ملاعبته شغلها الشاغل». هذه الحاجات تتصف بسمات مشتركة بين جميع النزعات العُصابية أي أنها قسرية وغير متجانسـة وتولد قلقًا أو اكتئابًا حينـما تواجه بالإحباط. إنها تعمل بصورة مسـتقلة تقريبًا عن الكفـاءة الذاتية التـي تتعلق «بالأخريات» المشـار إليها بهذا الشـأن، وكذلـك عن مشـاعر الشـخص الحقيقيـة نحوها. وقـد تختلف هذه

الحاجـات في مظاهرهـا وتتركز كلهـا حول رغبة في الألفة الإنسـانية الحميمة والرغبة في «الانتماء». سـيكون النمط المطاوع، بسبب طبيعة عـدم التجانـس في حاجاته، ميالاً إلى تجاوز تقدير تجانسـه والمصالح التـي يشـترك فيها مع أولئـك الذين من حوله وسـوف يتغاضى عن العوامـل الفارقـة بينـه وبينهـم. ولا يعود سـوء تقديره للنـاس بهذا الشكل لجهله أو غبائه أو عدم قدرته على التمييز ولكنه يتأتى بسبب حاجاتـه القسريـة. فهـو يشـعر - كما هـو واضح في صورة رسـمت مـن قبل أحـد المريضـات - مثل طفلة صغـيرة تحاصرهـا وتتهددها وحوش غريبة. إذ هي تقف هناك في وسـط الصورة صغيرةً وعاجزةً ومن حولها نحلة هائلة لتلسـعها وكلب يحاول أن يعضها وقطة تريد أن تقفـز عليهـا وثـور يحاول طعنها. مـن الجلي بعد ذلـك أن الطبيعة الحقيقة للمخلوقات الأخرى لا تهمنا، باسـتثناء ما يتعلق بالكائنات الأشـد عدوانية، فلكونها أشـد إثارة للخوف، تكون هي المخلوقات التي يتصف «حنوها» بأنه الأشـد ضرورة. إن بهذا النمط من الناس حاجة لأن يُوَدَّ ولأن يبتغي، أن يُرغب فيه، أن يعشـق، أن يشـعر بأنه مقبول، محتفى به، مستحسـن، مقدر وأنه سـيحتاج إليه وسـيكون ذا شـأن للآخرين لا سـيما لفرد معين بالذات وأنه سـيعاون وسـيصان وسيكون موضع عناية وسيؤخذ بيده.

حينـما تُبينّ ميزة هذه الحاجـات القسرية لأحد المرضى أثناء تحليل النفـس فمـن المحتمل أن يؤكد أن كل هذه الرغبـات «طبيعية» جدًا.

وهو هنا لا شك في موضع الدفاع عنها. وفيما عدا بعض الأشخاص المطوقين بالنزعات السادية (ستناقش فيما بعد) إلى درجة كبيرة بحيث أن الرغبة في الحنو قد تعطلت بشكل يفوق كل احتمال في تأديتها لوظيفتها ثانية، من المأمون أن نفترض أن كل امرئ يريد فعلاً أن يشعر بأنه محبوب ومنتمٍ وأنه سيعاون وهكذا. يكمن الزلل الذي يقع فيه المرض في الادّعاء أن كل جهده المضني بحثًا عن الحنو والاستحسان جهد أصيل بينما يحتجب الجزء الأصيل في الواقع تحت ظلال كثيفة من حاجته الشديدة للشعور بالأمن.

إن الحاجة لإشباع هذا الحافز تكون قاهرةً إلى درجة كبيرة بحيث أن كل شيء يفعله يوجه نحو تحقيق ذلك وأثناء هذه العملية يطور المريض ميزات ومواقف معينة تجسد شخصيته. من المستطاع أن توصف بعض هذه بأنها من قبيل التودد: فيصبح مرهف الإحساس بالنسبة لحاجات الآخرين – ضمن إطار ما يستطيع أن يفهمه عاطفيًا. على سبيل المثال، فرغمًا عن احتمال كونه غافلاً تمامًا عن رغبة شخص منعزل في أن يبقى بعيدًا عن الآخرين، سوف يكون حساسًا لحاجة شخص آخر إلى العطف والمعونة والاستحسان وهكذا يحاول تلقائيًا أن يفوز بحسن ظن الآخرين به وبما يظنه توقعاتهم عنه، وفي الغالب إلى حد فقدان الإحساس بمشاعره الخاصة. فيصبح «إيثاريًا»، مضحيًا بذاته من أجلهم، وعديم المطالب باستثناء رغبته اللامتناهية في طلب الحنو. ويمسي مطاوعًا ومراعيًا لحقوق ومشاعر الآخرين

بشكل مبالغ فيه - ضمن حدود استطاعته - حساسًا للتقدير، ممتنًا بإفراط وبالغ الكرم. وقد يخفي عن نفسه الحقيقة فإنه في سويداء قلبه لا يبالي بالآخرين كثيرًا ويكون ميالاً لاعتبارهم كمنافقين ويبحثون عما فيه مصلحتهم. لكنه يقنع نفسه - إذا جاز لي استخدام تعابير واعية لما يحدث بدون وعي - بأنه يكنّ الودّ للجميع وأنهم جميعًا «طيبون» وجديرون بالثقة وهي مجرد مغالطة لاتقود إلى مشاعر فشل محطمة للقلب فحسب بل تزيد في عدم شعوره العام بالأمان.

ليست هذه المميزات نفيسة بالدرجة التي تبدو فيها للمرء ذاته، وخصوصًا بسبب عدم استشارته لمشاعره أو لتقديراته الخاصة، بل إنه يمنح الآخرين دون روية، كل ما هو مسوّغ لأن يبتغيه منهم ويحس باضطراب عميق إذا فشلت المردودات في أن تتحقق.

تسير جنبًا إلى جنب مع هذه الخواص وتتداخل في بعضها بعضًا مجموعة أخرى تهدف إلى تجنب النظرات الغاضبة والخصومات والمنافسات، فيميل المريض لأن يضع نفسه في مرتبة أدنى فيتخذ موضعًا ثانويًا تاركًا أضواء الشهرة للآخرين؛ فيكون ميالاً للتهدئة والاسترضاء وهو على الأقل بصورة واعية - لا يحمل ضغينة بسبب موقعه هذا. وقد تكون أية أمنية في الانتقام أو الانتصار قد كبتت بعمق شديد بحيث غالبًا ما يثير عجبه كونه يسترضى بسهولة بالغة وأنه لا يضمر غيظًا لمدة طويلة، من المثير للاهتمام بهذا الصدد ميله لأن يتحمل اللوم بصورة تلقائية. ومرة أخرى، بغض النظر عن

مشاعره الحقيقية – أي إذا كان يشعر حقًا بأنه مذنب أو لا – سَيُدين نفسه عوضًا عن الآخرين ويميل إلى محاسبة نفسه من طرف خفي أو قد يكون كثير الاعتذار في مواجهة الانتقاد غير المبرر أو الهجوم المتوقع، بصورة واضحة.

هناك تحول غير محسوس من هذه المواقف نحو المشاعر المكبوتة فعلاً، ولأن أي نوع من السلوك العدواني يعتبر محرَّمًا، نجد هنا مشاعر مكبوتة لها صلة بتأكيد الذات والانتقاد والمطالبة وإعطاء الأوامر وخلق الانطباع والكفاح من أجل غايات كبيرة. كذلك لأن حياته أوقفت كليًا للآخرين فإن مشاعره المكبوتة هذه تمنعه في الغالب من تحقيق أشياء لذاته أو من التمتع بأشياء ينجزها بنفسه. قد تصل هذه إلى درجة بحيث أن أية خبرة لا تُقتسم مع أحد الأشخاص -إن كانت وجبة طعام، عرضًا من العروض أو موسيقى أو التمتع بمناظر طبيعية – تصبح خالية من المعنى. إن مثل هذا الانضباط الشديد في الاستمتاع لا ينغص الحياة فحسب بل يضاعف الاعتماد على الآخرين إلى درجة عظيمة.

إن هذا النمط بغض النظر عن مثاليته في الصفات التي سبق ذكرها يمتلك مواقف مميزة معينة تجاه نفسه، يتمثل أحدها في الشعور الذي يغمره بأنه ضعيف وعاجز وهو ربما عبّر عنه بقوله: «يا لي من فقير مسكين». وحينما يترك بمفرده مع وسائله الشخصية فإنه يشعر بالضياع كزورق فقد مرساته، أو كسندريلا محرومة من دليلتها

الجنيّة. هذا العجز حقيقي في جزء منه إذ من المؤكد أن الإحساس بأن المرء لا يستطيع تحت أي ظرف من الظروف أن يحارب أو ينافس الآخرين يعزّز الضعف الحقيقي فعلاً، إلى جانب ذلك فهو يعترف بعجزه لنفسه وللآخرين بصراحة. وقد يؤكد هذا بصورة مأساوية في الأحلام أيضًا. إنه يلجأ إلى الاعتراف بذلك في الغالب كوسيلة للإغراء والحماية:

«يجب أن تشعريني بالحب والحماية، أن تصفحي عني وأن لا تهجريني بسبب ضعفي أنا وانعدام حيلتي تمامًا».

تنبثق الصفة المميزة الثانية عن ميله إلى إخضاع نفسه. فهو يُسلّم بأن كل امرئ يتفوق عليه، فالجميع أكثر جاذبية منه وألمع ذكاءً وأفضل تعليمًا وأكثر استحقاقًا منه. هناك حجة ثابتة لهذا الشعور تتمثل في فقدان ثقته بنفسه وبصلابته وذلك ما يحول دون قدرته فعلاً. ولكنه حتى في الحالات التي يتمتع فيها بمقدرة لا ريب فيها فإن الشعور بالنقص سيقوده لإضفاء الثقة على الشخص الآخر وبغض النظر عن جدارته. هكذا يتضاءل اعتداده بقيمته الشخصية أكثر فأكثر في حضور أشخاص عدوانيين أو متغطرسين. وعلى كل حال فإن ميله حتى إذا كان بمفرده لا ينحو نحو الحط من قيمة صفاته ومواهبه وقدراته فحسب بل من قيمة ممتلكاته المادية كذلك.

تؤلف الصفة المميزة الثالثة جزءًا من اعتماده الشامل على الآخرين. وتتمثل هذه في ميله اللاواعي نحو تقويم نفسه من خلال

ما يظنه الآخرون عنه. فيعلو ويهبط اعتباره لذاته تبعًا لاستحسانهم أو لاستهجانهم ولحنوهم أو لانتفائه. من هنا سيكون أي رفض بمثابة كارثة فعلية بالنسبة له. إذا لم يستطع أحد الأشخاص الاستجابة لدعوة ما فقد يتوافر لديه ذاتيًا سبب معقول لذلك، لكن صاحبنا وطبقًا لمنطق عالمه الشخصي الذي يعيش فيه حينئذٍ سيهبط مقياس احترام الذات لديه إلى الصفر. بعبارة أخرى إن أي انتقاد أو رفض أو هجر يمثل خطرًا مرعبًا وقد يبذل أقصى ما في وسعه من جهد بائس بغية استعادة احترام الشخص الذي كان قد هدده بهذا الشكل. إنه يدير خده الأيسر ليس مسوقًا بدافع غامض معين من «التلذذ بالاضطهاد» بل ذلك هو الشيء المنطقي الوحيد الذي يستطيع أن يفعله على أساس افتراضاته الباطنية.

يساهم كل ذلك في مجموعة معاييره الخاصة. ومن الطبيعي أن تكون المعايير ذاتها مشرقة قليلة أو كثيرًا وتتعزز تبعًا لنضجه الشامل. تكمن هذه المعايير باتجاه الخير والمشاركة الوجدانية والحب والجود والإيثار والتواضع؛ بينما يستهجن الغرور والطموح وقسوة الفؤاد وانعدام الضمير واستغلال النفوذ – رغمًا عن كونه قد يعجب بهذه الصفات في الوقت عينه بصورة خفية لأنها تمثل «قوة».

هي إذًا العناصر التي يشتمل عليها « التحرك نحو» الناس عُصابيًا يجب أن يكون جليًا الآن كم هو من غير المناسب أن نصفها بأي تعبير منفرد مثل مذعن أو اتكالي لأنها طريقة متكاملة من التفكير والشعور

والأداء - أي أنها طريقة حياة شاملة تكمن فيها ضمنيًا.

لقد وعدت ألا أبحث في العوامل المتناقضة. لكننا لن نفهم تمامًا كم يتشبث المرء بجميع المواقف والمعتقدات بصورة قوية ما لم نكن على دراية بالمدى الذي يعزز فيه كبت النزعات المتعارضة للنزعات المسيطرة. لذلك سنلقي نظرة وجيزة على الجانب المعاكس من الصورة.

حينما نحلل النمط المطاوع نفسيًا نجد تنوعًا من النزعات العدوانية مكبوتة بقوة. وبصورة مغايرة تمامًا للإفراط في التوسل الواضح نعثر على نقص شديد في الاهتمام بالآخرين ومواقف تحد وميول طفيلية أو استغلالية وميول في السيطرة والتلاعب بالآخرين وحاجات لا تكل نحو الإبداع أو الاستمتاع بالانتصارات الثأرية. من الطبيعي أن تختلف الدوافع المكبوتة في نوعيتها وشدتها. فهي تنبثق جزئيًا استجابة لخبرات تعيسة مبكرة مع الآخرين. إذ غالبًا ما ترينا سيرة من السير المرضية مثلاً نزعات انفعالية حتى سن خمس أو ثماني سنوات ثم تختفي بعد ذلك لتحل محلها دماثة خلق شاملة. لكن الميول العدوانية تعزز وتغذى أيضًا من قبل الخبرة اللاحقة بسبب نزعة الاعتداء التي تولد باستمرار من مصادر عديدة. ستقودنا مناقشتها جميعًا، عند هذه المرحلة، بعيدًا عما نحن بصدده، ويكفي أن نذكر هنا أن محور الذات و«الطيبة» تغريان بأن يمتهن المرء ويستغل، زيادة على ذلك فإن الاعتماد على الآخرين يفسح المجال لتعريض

المرء للأذى بشكل استثنائي حيث يقود بدوره إلى الشعور بكون المرء المفرط منبوذًا أو مرفوضًا ومحتقرًا عندما لا يُستجاب للقدر المفرط من الحنان والاستحسان المطلوبين.

حينما أقول أن جميع تلك المشاعر والدوافع والمواقف «تكبت» فإنني أستعمل التعبير مثلما عناه فرويد قاصدًا أن الفرد ليس على غير وعي بها فحسب بل لديه اهتمام لا سبيل إلى تغييره أبدًا في عدم رغبته أن يعيها مطلقًا بحيث أنه يظل في حال توجس كيلا تنكشف أية بوادر عنها لذاته أو الآخرين. لذلك يجابهنا كل كبتٍ بالسؤال: ما هي مصلحة الفرد في كبت قوى معينة تمور في قرار نفسه؟ من الممكن أن نجد بعض الأجوبة بالنسبة لحال النمط المطاوع. وبوسعنا أن نفهم معظمها بعد حين حينما نأتي إلى مناقشة الصورة المثلى والنزعات السادية. ما نقدر أن نفهمه فورًا عند هذا الموضع هو أن مشاعر وأساليب العدوان قد تُعرّض للخطر حاجة الشخص لأن يحب الآخرين وأن يُحب من قبلهم. إضافة لذلك فأي نوع من السلوك العدواني أو حتى السلوك المؤكد للذات قد يبدو كسلوك أناني. سيُدينهُ هو بنفسه ومن هنا سيشعر أن الآخرين يدينونه أيضًا. وليس بمقدوره التعرض لخطر هذه الإدانة لأن احترامه لذاته يعتمد كليًا على استحسانهم.

هناك وظيفة أخرى لكبت جميع مشاعر وحوافز التوكيد والانتقام والطموح. هذه تمثل إحدى المحاولات الكثيرة التي

يقوم بها الشخص العُصابي للتخلص من صراعاته وليحقق شعورًا بالتكامل والوحدة والتمام بدلاً منها. إن الحنين إلى التكامل في داخل أنفسنا ليس رغبة تصوفية لكنها مدفوعة من قبل الحاجة العملية إذ علينا أن نؤدي مهمتنا في الحياة والتي تكون مستحيلة حينما يساق المرء باستمرار نحو اتجاهات متعارضة قد توصله في النهاية إلى رعب بالغ وإلى الانهيار. إن منح الأولوية لنزعة واحدة وذلك بطمس كل العناصر المتضاربة يؤلف محاولة لا واعية في تنظيم الشخصية. وهذا يشكل إحدى المحاولات الرئيسة في حل الصراعات العُصابية.

هكذا كنا قد اكتشفنا الآن مصلحة مزدوجة في المحافظة على قمع صارم لكل الاندفاعات العداونية، وقد تتعرض حياة المرء برمتها للخطر ويتفجر تكامله المصطنع. وكلما كانت النزعات العدوانية مدمرة كلما كانت الحاجة ملحة لتنحيتها. سيميل الفرد العُصابي إلى التقهقر فيبدو أنه لا يريد شيئًا لنفسه ولا يرفض رجاء ويكنُّ المودة للجميع على الدوام ويبقى في خلفية الصورة باستمرار، وهكذا. بعبارة أخرى، تتعزز النزعات المطاوعة التوفيقة فتصبح أعظم قسرًا وأقل تمييزًا.

من الطبيعي أن كل هذه الجهود غير الواعية لا توقف الاندفاعات المكبوتة عن العمل أو عن توكيد ذاتها. لكنها تفعل كذلك بطرق تتفق مع البنية. سيتقدم الشخص بمطالب «لأنه بائس جدًا» أو

سيمارس السيطرة بشكل خفي تحت ستار «المحبة». وربما يظهر العدوان المتراكم المكبوت في هيئة انفجارات ذات عنفوان قلّ أو كثر، يتراوح من الحصار أحيانًا إلى نوبات من الغضب العارم. وبينما لا تتفق هذه الانفجارات مع صورة الوداعة والاعتدال فإنها تبدو للمريض ذاته مسوغة تمامًا. فهو على صواب تام طبقًا لافتراضاته. ونظرًا لعدم معرفته أن مطالبه التي يريدها من الآخرين تتصف بالإفراط والأنانية، فهو لا يملك إلا أن يشعر بين الحين والحين بأنه يعامل بطريقة ظالمة بحيث لا يسعه أن يتحمل أكثر من ذلك. أخيرًا، إذا اكتسب العدوان الحبيس قوةً من الغضب العارم فقد يؤدي ذلك إلى ظهور كل أنواع الاضطرابات العضوية كأمراض الصداع أو علل المعدة.

لذلك تمتلك معظم صفات النمط المطاوع دافعًا مزدوجًا. فحينما يخضع نفسه لصالح تجنب الاحتكاك فهو يحقق الوفاق مع الآخرين؛ لكن ذلك قد يكون وسيلة أيضًا في محو كل معالم حاجته إلى الإبداع. وحينما يسمح للآخرين باستغلاله فذلك تعبير عن مطاوعته و«طيبته» ولكنها قد تكون أيضًا تعبيرًا لترك رغبته الذاتية في أن يستغل. لأجل التغلب على المطاوعة العُصابية يجب معالجة كل واحد من جانبي الصراع وبالترتيب المناسب. في بعض الأحيان نحصل من خلال العلاج بواسطة تحليل النفس. مثل هذا الأسلوب. يقدم فهمًا ضيقًا عن التعقيدات ولاسيما تلك التي تتعلق بالتنوع في

البنـى العُصابية. إن هـذا ينطبق فعلاً على النمط الخاص الذي نبحثه وحتـى في هـذا الموضـوع فالانطباق محـدود. إن كشـف النقاب عن الدوافع العداونية يمثل عملية تحرر ولكنها يمكن أن تكون ببسـاطة ضـارة بالنسـبة لتطور الفرد إذا اعتـبرت عملية «التحرر» غاية في حد ذاتهـا يجب أن تلحـق هذه بالعمل على التخلـص من الصراعات إذا أريد للشخصية أن تتوحد في النهاية.

نحـن ما زلنـا في حاجة لنتوجـه بانتباهنـا إلى الدور الـذي يلعبه الحب والجنس بالنسبة للنمط المطاوع. في الغالب يبدو له الحب على أنه الهدف الوحيد الذي يستحق الكفاح من أجله والعيش في سبيله. وتبـدو الحياة بدون حب لا طعم لها وعديمـة الجدوى وخاوية. عند اسـتعمال عبـارة كان فريتـز وتيلـز قـد وصـف بهـا الأولاع القسرية يسـتحيل الحب إلى شبح يطارد على حساب استبعاد كل شيء آخر. إذ يصبـح الناس والطبيعة والعمل أو أي نـوع من المتعة أو الولع بلا معنـى تمامًـا مـا لم يكن هناك شيء مـن صلة حب تضفـي عليها طعمًا وحيويـة. إن حقيقة كون هذا الوسـواس أكثر بروزًا عند النسـاء منه لـدى الرجال في ظروف حضارتنا، قد خلق الانطباع بأنه توق أنثوي علـى وجه الخصوص. وفي الواقع، لا علاقة لـه بالأنوثة أو الرجولة بـل هو ظاهـرة عُصابية في كونه دافعًا قسريًا غـير معقول. وإذا فهمنا بنيـة النمط المطـاوع يصبح بوسـعنا أن نفهم لماذا يتميـز الحب بأهمية كبرى بالنسبة له ولماذا يكون ذلك «نهجًا في جنونه». يؤلـف هذا النهج في الحقيقـة وبالنظر لميولـة القسرية المتناقضة، الطريقـة الوحيدة التي

يمكن أن يشبع بها جميع حاجاته العُصابية. فهذا النهج يعد بتطمين الحاجة إلى المودة وكذلك الى السيطرة (عبر الحب) وبتطمين الحاجة إلى تبوّء مركز ثانوي وكذلك في الامتياز (عبر اهتمام شريكه الكامل به). وهو يتيح لـه التمتع بكل دوافعه القسرية على أساس مُسوّغ وبريء أو حتى جدير بالثناء بينما يسمح له في الوقت نفسه لأن يعبر عن كل صفات الحب التي كان قد اكتسبها. إضافة لذلك ولأنه غير واعٍ أن معوقاته ومعاناته نابعتان من صراعاته في قرارة نفسه فإن الحب يومض له على أنه الشفاء الأكيد من كل تلك المعاناة: فلو كان يستطيع أن يعثر على شخص يحبه فحسب إذًا لكان كل شيء على ما يرام. من السهولة بمكان أن نقول إن هذا الأمل زائف ولكننا يجب أن نفهم منطق وتفكير العُصابي اللاواعي إن قلَّ أو كثُر. فهو يفكر هكذا: «إنني ضعيف وعاجز وطالما أني وحيد في هذا العالم العدائي فعجزي يمثل خطرًا وتهديدًا. غير أنني إذا عثرت على شخص يحبني أكثر من حبه للآخرين كلهم فسوف لن ألبث طويلاً في خطر لأنه (لأنها) سوف يحميني (تحميني). إذًا لن أحتاج إلى إثبات ذاتي وذلك لأنه سيفهم الأمر ويمنحني ما أريد دون أن يتعين على أن أقدم طلبًا أو تفسيرًا. إن ضعفي في الحقيقة سيكون سلعة ثمينة وذلك لأنه سيحب عجزي وسأستطيع أن أستند إلى قوته. إن المبادرة التي لا يمكنني القيام بها ببساطة من أجل نفسي ستزدهر إن كانت تعني القيام بشيء في سبيله أو حتى القيام بأشياء من أجلي لأنه هو أراد ذلك».

مـرة أخرى يفكر بطريقة إعادة التنظيـم فيما يتروى فيه قليلاً وفيما يحسـه كذلك وبما هو لا شـعوري جزئيًا، وفقًا لصيغـة محاكاة ذهنية: «إنـه الشـقاء بالنسـبة لي أن أكـون وحيـدًا. ذلـك لأنني لا أسـتطيع التمتع بأي شيء لا يشـاركني فيه أحد. إنه أبعد من ذلك بكثير، إنني أشـعر الضياع وأشـعر بالقلق. أستطيع بالتأكيد أن أذهب الى السينما بمفـردي أو أقـرأ كتابًـا في ليلة السـبت ولكـن ذلك سـيكون مدعاة للاشـمئزار لأنه سـيعني لي أن ليس هناك من يريدني. لذلك يجب أن أخطـط بـكل عناية ألا أظل وحيدًا ليلة السـبت أو في أي وقت آخر. لكنني إذا عثرت على الحبيب الذي أتمنى فسيحررني من هذا العذاب ولـن أكون وحيدًا فكل شيء يبدو الآن بلا طعم كإعداد وجبة فطور أو القيام بعمل من الأعمال أو مشاهدة الشمس أثناء الغروب، سوف يصبح مصدر بهجة لي».

إنه يفكر أيضًا: «إنني لا امتلك ثقة بالنفس. فأنا أشعر دومًا أن أي شخص آخر أكثر كفاءة مني وأكثر جاذبية وأكثر موهبة. حتى الأشياء التي نجحت في تحقيقها ليسـت ذات قيمة لأنني لا أستطيع احتسابها لنفسي، ربما كنت أوفق إليها عن طريق الخداع وربما كان الأمر محض صدفة. وبلا ريب فأنا لا أستطيع التأكد من قدرتي على القيام بها مرة أخـرى. ثم إذا تعرف الناس عليَّ فعـلاً فإنهم لا يصبحون بحاجة إليّ علـى أية حال. ولكن إذا عثرت على شـخص يحبني لشـخصي وإذا أصبحت عنده ذا حظوة كبرى فحينها قد أكون شخصًا ذا شأن». فلا

عجب إذًا بعد كل هذا أن يمتلك الحب كل إغراء السراب. لا عجب أنـه يضطر للتشـبث به بكل مـا أوتي من قوة بدلاً مـن التعلق بعملية التغيير المضنية من داخل الذات.

إن الجماع الجنسي لذاته وبغض النظر عن وظيفته البيولوجية يمتلك أهمية كبيرة في كونه يقدم برهانًا على أن المرء مرغوب فيه. وكلما مال النمط المطاوع نحو العزلة - أي كلما كان خائفًا من التورط عاطفيًا- أو كلما خاب أمله في أنه سيحب، كلما كان من المحتمل أن يعوض النشاط الجنسي المحض عن الحب. سيبدو بعد ذلك على أنه السبيل الوحيدة للمودة الإنسانية ويبالغ في تثمينه ما هو في شأن الحب بسبب قدرته على حل كل إشكال.

إذا حرصنا على تجنب كل من النهايتين، تلك التي تعتبر مبالغة المريض في التأكيد على الحب كشيء «طبيعي فحسب» وتلك التي تطرحها جانبًا كصفة «عُصابية» سنلمس أن توقعات النمط المطاوع في هذا الاتجاه تأتي كمحصلة منطقية لفلسفته في الحياة. وكما تبرز غالبًا في الظواهر العُصابية نجد أن عملية تفكير المريض بصورة واعية أو غير واعية تخلو من العيوب، لكنه يستند إلى فرضيات زائفة. وتتمثل الفرضيات الزائفة في أنه يخطئ في تقدير حاجاته إلى الحنو وكل ما يواكبها على أنه قابلية أصلية على الحب، كما يطرح جانبًا نزعاته العدوانية وحتى المدمرة من المعادلة بشكل كامل. وبعبارة أخرى سوف يتخلى عن الصراع العُصابي برمته. إن ما يتأمله يمثل

التخلص من العواقب المؤذية للصراعات غير المصرفة دون تبديل أي شيء في الصراعات ذاتها، وهذا موقف مميز لكل محاولة عُصابية في البحث عن حل.

و لذلك يقضي على هذه المحاولات بالفشل لا محالة. أما بالنسبة للحب كحل فيجب أن يذكر المرء ما يلي: إذا كان النمط المطاوع محظوظًا بما فيه الكفاية لأن يعثر على رفيق يمتلك كلاً من القوة ورقة الفؤاد فربما تنخفض معاناته بصورة لا يستهان بها وربما يتمتع بمقدار معتدل من السعادة. غير أنه كقاعدة سوف تنحدر به العلاقة التي يأمل أن يجد فيها الجنة على الأرض إلى بؤس أشد عمقًا. فمن المحتمل أن ينقل صراعاته إلى داخل هذه العلاقة وبذلك يدمرها. حتى أن أقصى الاحتمالات المبشرة بالنجاح لن تريح إلا الكُروب الفعلية فحسب إذ سيستمر تطوره معوقًا إن لم يتم تصريف صراعاته.



الفصل الرابع

التحرك ضد الناس

أثناء مناقشة المظهر الثاني للصراع الأساس وهو الميل نحو «التحرك ضد» الناس سنحث السير كما سبق أن فعلنا، متفحصين هذا النمط الذي تسيطر عليه النزعات العدوانية.

وكما أن النمط المطاوع يتشبث بالاعتقاد في أن الناس «طيبون» وتحيره شواهد متناقضة باستمرار فكذلك يسلم النمط العدواني بأن كل شخص هو معادٍ وهو يرفض الاعتراف بأن الناس ليسوا كذلك. إذ تمثل الحياة بالنسبة له نضالاً من قبل الجميع ضد الجميع وليذهب الخاسرون إلى الشيطان. وهناك الاستثناءات التي يسمح العُصابي بها على مضض وبشيء من التحفظ. أحيانًا يتصف موقفه بالوضوح تمامًا غير أنه غالبًا ما يغلفه بمظهر خادع من الأدب الجم وسعة الأفق

والزمالـة الطيبة. هذه «الواجهة» يمكن أن تمثـل تنازلاً ميكافيليًا من أجـل الغاية. إذ تمثـل هذه كقاعـده خليطًا من الادعاءات والمشـاعر الأصيلـة والحاجات العُصابية. فقد تختلـط الرغبة في جعل الآخرين يصدقون بأنه شـخص طيب مع مقـدار معين من الخير الحقيقي طالما لن يكون هناك شـك في ذهن أحد بأنه هو نفسـه يقود تلك المشـاعر وربما تتواجد هناك عناصر حاجة عُصابية للحنو والاستحسـان وقد وضعـت في خدمة الأغراض العدوانية. ليسـت مثل هذه «الواجهة» ضرورية للنمـط المطاوع لأن قيمة تتفق، على أية حال، مع الفضائل الاجتماعية أو الدينية المقبولة اجتماعيًا.

لكي نقـدر فعليًا أن حاجات النمط العدواني هي حاجات قسرية مثـل تلك التي تتعلـق بالنمط المطاوع يجب أن نـدرك أنها تندفع عن طريـق القلق الأسـاس لديه مثلما هي مسـوقة عند الثـاني تمامًا. يجب التأكيـد علـى هـذا لأن عنـصر الخوف، الملمـوس لـدى الأخير، لن يعترف به أو يكشـف عنه أبدًا من قبل النمط الذي نتناوله حاليًا. فكل شيء في داخله موجه نحو كونه الآن صلبًا أو أنه سوف يصبح كذلك أو على الأقل أنه يبدو بمظهر القوي الحازم.

تنبع حاجاته أساسًـا من شـعوره بأن العالم يمثل حلبة نزال يكون البقـاء فيها وبتعبـير داروين للأصلح فحسـب، كـما أن القوي يأكل الضعيـف. وما يسـاهم على البقاء يعتمد كثيرًا وبصورة رئيسـة على الحضـارة التـي يعيش فيها الشـخص، ولكن السـعي المتواصل وراء

المصلحة الذاتية يمثل القانون الأعظم. من هذا المنطق، تصبح حاجته الأولى من أجل السيطرة على الآخرين. وتكون الاختلافات في وسائل السيطرة غير محدودة. فقد تكون هناك ممارسة واضحة للقوة وقد تكون هناك مناورة غير مباشرة عبر إظهار الجزع الشديد أو إيقاع الناس تحت طائلة الالتزام. كما قد يفضل أن «القوة الكامنة خلف كرسي العرش». وربما تكون الوسيلة عبر طريق الذكاء، حيث يعتقد أنه من المستطاع النجاح في كل شيء بالاستنتاج المنطقي أو بعد النظر. ويعتمد نوع سيطرته المحدد على مواهبه الطبيعية إلى حد ما. وهذا يمثل جزئيًا اندماجًا بين النزعات المتصارعة. فمثلاً، إذا كان الشخص ينحو في الوقت ذاته نحو العزلة فسوف ينأى بنفسه عن أية هيمنةٍ مباشرة لأنها تقود قريبًا جدًا من الاحتكاك المباشر مع الآخرين. كذلك ستفضل الطرق غير المباشرة إذا توفرت هناك حاجة قوية وخفية للحنو. أما إذا كانت أمنيته أن يكون هو القوة الكامنة خلف الستار، فسيشير إلى وجود نزعات سادية، حيث يعني أن الأسلوب استخدام الآخرين من أجل تحقيق غايات المرء.

و بالارتباط الذاتي فهو في حاجة لأن يتفوق ولأن يحقق النجاح والنفوذ أو التميز بأية صورة. فتوجه الجهود المضنية في هذا السبيل جزئيًا نحو القوة وبقدر ما يعبر النجاح والنفوذ قوة في المجتمع يتصف بروح المنافسة. لكنهم أيضًا يسعون إلى تأكيد ذاتي للقوة من خلال الإثبات الخارجي كالاستحسان الخارجي وحقيقة التمايز. هنا ومثلما

هو الأمر عند النمط المطاوع يقع مركز الجاذبية خارج الشخص نفسه وما يختلف هو نوع الإثبات المرغوب فيه من الآخرين فحسب. أما في الواقع، فإن عدم جدوى أحدهما يماثل عدم جدوى الآخر. حينما يتساءل الناس لم كان النجاح قد فشل في جعلهم يشعرون بأنهم أقل قلقًا نوعًا ما، فهم يفضحون جهلهم بالجانب النفسي فحسب، وذلك يشير أيضًا إلى المدى الذي يعتبر فيه النجاح والنفوذ كمقياس بصورة عامة.

تمثل الحاجة الملحة في استغلال الآخرين وفي التغلب على ذكائهم وفي استخدامهم لمنفعته، جزءًا من الصورة. إذ ينظر المريض إلى أية حال أو علاقة بمنظار «ماذا بوسعي أن أستفيد من ذلك؟» إن تعلق الأمر بالمال أو النفوذ أو العلاقات أو الأفكار. والمريض مقتنع بصورة واعية أو شبه واعية بأن كل فرد يسلك هذا السبيل ولذلك فما يؤخذ بنظر الاعتبار هو العمل بكفاءة يتفوق بها على الآخرين. تتعارض المميزات التي يطورها بكل معنى الكلمة تقريبًا مع تلكم التي تعود للنمط المطاوع. فيصبح القلب، شرسًا، أو أنه يبدو فيما يشبه ذلك المظهر، إذ يعتبر كل المشاعر – مشاعره ومشاعر الآخرين كذلك – أنها «عواطف رخيصة». فيلعب الحب بالنسبة له دورًا لا أهمية له. ليس ذلك لأنه لن يفتتن «حبًا» أو لن تكون له علاقة وصال بإحدى النساء أو لن يتزوج ولكن ما يمتلك من أهمية قصوى هو الفوز برفيق مرغوب فيه بقوة ورفيق يستطيع من خلال جاذبيته ونفوذه

الاجتماعي أو ثروته أن يعزز مركزه الخاص. وهو لا يرى أي سبب في أن يراعي الآخرين. «لماذا ينبغي عليّ أن أهتم ولأدع الآخرين يهتمون بأنفسهم». وإذا سألناه بلغة المعضلة الأخلاقية القديمة التي تتعلق بوجود شخصين على شفا الهلاك يستطيع أحدهما فقط أن يبقى على قيد الحياة فسوف يجيب بأنه بالطبع سيحاول أن ينفذ بجلده لا أن يكون بليدًا ومنافقًا. إنه يمقت الاعتراف بأي نوع من الخوف وسيكتشف سبلاً متطرفة في السيطرة عليه. فربما، على سبيل المثال، يلزم نفسه بالبقاء في منزل خال على الرغم من إحساسه بالرعب الشديد من لصوص الليل وقد يصر على ركوب الخيل ليتغلب على خوفه منها وقد يجوس عن عمدٍ عبر المستنقعات حيث يعرف هناك وجود الثعابين كي يتخلص من حالة رعبه الشديد.

و بينما يميل النمط المطاوع للمهادنة، يفعل النمط العدواني كل ما في وسعه ليكون مقاتلاً جيدًا. إنه محترس ومتوقد الذكاء في جداله وقد يخرج عن طوره المعتاد ليندفع بجرأة من أجل البرهنة على أنه على صواب. وقد يقدم أفضل ما لديه حينما يستند بظهره إلى سندٍ قوي وليس هناك من خيار غير أن يقاتل. وعلى النقيض من النمط المطاوع الذي يخشى أن يربح المعركة، فهو خاسر صعب المراس ينشد النصر صراحة. وهو على استعداد تام لاتهام الآخرين كاستعداد النمط السابق أن يحمل الملامة على عاتقه. ولا يلعب التفكير بالذنب أي دور في أي من الحالين. حينما يعترف النمط المطاوع بالذنب فليس

لكونـه مقتنعًا بأنه مذنب أبدًا، بل لكونه يسـاق نحـو المهادنة، بصورة مماثلـة لا يكـون النمط العدواني مقتنعًا بأن الشـخص الآخر مخطئ بل يفـترض فقط أنه هو على حق لأنه يحتاج إلى هذه الأرضية من اليقين الشخصي تمامًا بالطريقة نفسها التي يحتاج فيها جيش من الجيوش إلى موضـع مكين ليشـن منه الهجوم. فيبدو له الاعـتراف بالخطأ عندما لا يشكل ذلك أمرًا ضروريًا إبرازًا للضعف لا يغتفر إن لم يكن حقًا بالغًا.

ممـا يتفق مـع موقفه في أن عليه أن يحارب ضد عـالم يعجّ بالشرور أنه ينبغي أن ينمي إحساسًـا يقظًا بالواقع ومن ذات النوع. لن يكون «سـاذجًا» جدًا بحيث يتجاوز عن أي شـكل من أشكال الطموح أو الجشـع أو الجهل لدى الآخرين أو أي شيء آخر قد يسـد عليه سبيل غاياتـه الخاصـة. وبسـبب أن مثـل هذه الخصائص أشـد انتشـارًا في حضارة تتسـم بالمنافسـة بدلاً من النزاهة الحقيقية فهو يشعر أنه على صـواب باعتبـار كونه واقعيًـا فحسـب. وفي الحقيقة إنه يمثـل جانبًا واحدًا مثلما يمثل النمط المطاوع تمامًا. يتجسد منحى آخر من مناحي واقعيتـه في إصراره علـى التخطيـط وبعـد النظـر. فهـو كأي رجـل اسـتراتيجي محنك، شـديد العناية عند كل موضع في تقويم إمكاناته الشخصية وقوى خصومه والمآزق المحتملة.

و لكونه يساق دائمًا نحو تأكيد ذاته على أنه الأقوى والأشد دهاء والأكثـر نجاحًا فهو يحاول أن يكتسـب الكفاءة والمـوارد الضرورية ليصبح كذلك. قد يجعل منه الحماس والذكاء اللذين يبديهما في عمله،

مرؤوسًا يتمتع باحترام عظيم أو شخصًا ناجحًا في مهنة خاصة به، إن الانطباع الذي يقدمه على كل حال هو كونه يمتلك اهتمامًا واسعًا في عمله وهذا سيكون خادعًا من جهة لأن العمل بالنسبة له يمثل وسيلة فحسب تجاه غاية من الغايات. فهو لا يحب ما يفعله ولا يشعر بمتعة فعلية به وهي حقيقة تتفق مع محاولته تنحية كافة المشاعر عن حياته تمامًا.

يتصف هذا التخلص من جميع الأحاسيس بتأثير ذي حدين. فالأمر من جهة ذو تأثير نفعي من وجهة نظر النجاح دون ريب حيث أن بوسعه القيام بتأدية وظيفته كمكنة مزيّتة بصورة جيدة تنتج بلا كلل مما يجذب له القوة والنفوذ. هنا قد تتدخل العواطف. إذ قد تستطيع أن تقوده بصورة يمكن فهمها نحو نمط من العمل ذي منافع انتهازية أقل عددًا وقد تدفعه للابتعاد عن الأساليب التي غالبًا ما تستخدم بكثرة عبر الطريق المؤدية للنجاح وقد تغريه للابتعاد عن عمله باتجاه التمتع بالطبيعة أو الفن أو مصاحبة الخلان بدلاً من الأشخاص الذين ينفعون في إنجاز ما يريد. من جهة أخرى فإن الجذب العاطفي الذي ينتج عن كبح المشاعر سيفعل فعله بالنسبة لنوعية عمله وسوف يؤدي ذلك بلا ريب إلى سلب جزءٍ من قدرته على الإبداع.

يبدو النمط العدواني كشخص منطلق بصورة رائعة. بوسعه أن يدافع عن رغباته وبوسعه أن يصدر الأوامر وأن يعبر عن الغضب وأن يدافع عن نفسه. لكنه في الواقع لا يقل عن النمط المطاوع في

امتلاكه للمشاعر المكبوتة. ولا يمثل الأمر مفخرة كبرى لحضارتنا في أن مشاعره الشخصية المكبوتة لا تلفت انتباهنا عرضًا بصفتها تلك. إن هـذه تقبع في مجاله العاطفي وتتعلق بقدرته على المصاحبة والحب والحنو والتعاطف الوجداني والمتعة النزيهة. وهو قد يصف الأخيرة على أنها مضيعة للوقت.

تتمثل مشاعره عن نفسه بكونه قويًا وأمينًا وواقعيًا وكلها صحيحة إذا نظرت إلى الأمور بمنظاره الخاص. يكون استنتاجه منطقيًا على نحوٍ صارمٍ وطبقًا لافتراضاته لأن العنف يمثل لديه القوة وعدم الاهتمام بالآخرين والملاحقة المضنية لغايات المرء الخاصة تكون واقعية. يتأتى موقفه بشأن استقامته جزئيًا من فضحه اللاذع لمحاولات النفاق المتداول. فينظر إلى الحماس نحو قضية ما وإلى العواطف المحبة للخير وما شابهها على أنها ادعاء بحت، وليس من الصعب عليه كشف النقاب عن الأغراض التي أُعدَّت في الغاب من أجلها إيماءات من الوعي الاجتماعي والفضيلة الدينية، تتمركز مجموعة قيمة حول شريعة الغاب. فالقوة تصنع الحق. ولتذهب الرحمة والإنسانية إلى الجحيم. فعنصر الشر يكمن في الإنسان. لدينا في هذا الموضع قيم لا تختلف كثيرًا عن تلك التي جعلنا النازيون على معرفةٍ تامةٍ بها.

هناك منطق شخصي في ميل النمط العدواني إلى رفض العطف والمودة وكذلك ما يقابلها من المطاوعة والمهادنة. لكنه سيكون

مـن الخطأ الافـتراض بأنه لا يسـتطيع معرفة الفـرق. فعندما يتواجه مـع شـخصية ودود تقترن بالقدرة بصورة لاسـبيل إلـى نكرانها فإنه يسـتطيع تمامًا أن يعترف بها ويحترمهـا. يتمثل مغزى ذلك في اعتقاده أنـه إذا كان دقيـق التمييـز بهـذا الصـدد فلـن يكون هـذا في صالحه. ويستوقفه كل من الموقفين بصفتهما احتمالين قد يتعرض لهما في معركة البقاء على قيد الحياة.

مع ذلك نسـأل لماذا يرفض العواطف الإنسـانية الموصوفة بالرقة بمثـل هذا العنف؟ لِمَ تُـراه يُحس بالغثيان عند رؤيته السـلوك الرقيق لـدى الآخريـن؟ لِمَ يُحِـسُّ بالاحتقـار الشـديد حينـما يبـدي أحدهم إشـفاقًا في لحظة يعتبرها هو اللحظة غير المناسبة؟ إنه يتصرف كرجل يطـرد المتسـولين بعيدًا عن بـاب داره لأنهم يثيرون الشـفقة في قلبه؟ قد يكون في الحقيقة متعسـفًا تمامًا تجاه المتسـولين وقد يرفض أبسـط الطلبـات بعنـف يتجـاوز المألـوف. إن مثل هـذه الردود مـن الفعل تبدو نموذجية بالنسـبة له ويمكن أن نلاحظ على الفور حالما تصبح النزعـات العدوانيـة أقل صلابة عنـد التحليل النفـسي. وفي الواقع، تكون أحاسيسـه بشأن «الرقة» لدى الآخرين أحاسيس مختلطة. فهو يحتقرها فيهم حقًا غير أنه يرحب بها كذلك لأنها تتيح له حرية أعظم في ملاحقة أهدافه الخاصة. ثم، لماذا يشـعر بالميل نحو النمط المطاوع تمامًا مثلما يكون الأخير منجذبًا إليه؟ إن السبب يكمن في أن رد فعله متطرف جدًا وفي كونه ينطلق من حاجته لمحاربة كل المشـاعر الرقيقة

جدًا في نفسه. يقدم لنا (نيتشه) شرحًا وافقًا لهذه القوى المحركة حينما يساق إنسانه الأمثل ليرى كل شكل من أشكال العطف على أنه نوع مـن الطابور الخامس، عـدوًا يعمل من الداخل، لا تعني «الرقة» لهذا النوع من الأشخاص الحنو والشفقة الأصيلة وما يماثلهما فحسب بل كل شيء خفي في حاجات ومشاعر ومعايير النمط المطاوع. في قضية المتسـول مثلاً قد تتملكه إرهاصات من الشـفقة الحقيقة وحاج باتجاه الإذعان للرجاء وإحساس بأن من واجبه تقديم المساعدة. غير أنه ما زالت لديه حاجة أشد باتجاه دفع كل ذلك بعيدًا عنه وكمحصلة فهو لن يرفض فحسب بل سيتعسف في ذلك الرفض.

إن الأمـل في صهر دوافعه المتنافـرة في بوتقة واحدة والتي يضعها النمـط المطاوع في الحب، يضعها النمط العدواني في الظهور البين، إذ لا يعـده «الظهور» بتأكيد ذاته التي يتطلبها فحسـب بل يعرض عليه الإغراء الإضافي بأنه سـيكون محبوبًا من قبل الآخرين وأنه سـيكون قـادرًا بدوره على أن يحبهم، ولأن الشـهرة تبـدو أيضًا أنها توفر حلاً لصراعاته، فهي تصبح السراب المنقذ الذي يطارده.

مبدئيـًا، يماثـل منطق نضالـه الباطني ذلـك الذي يـبرز للعيان في حـال النمط المطاوع، ولذلك فهو في حاجة لأن نشـير إليه هنا بإيجاز فحسب. سيكون إما إحسـاسًا بالشفقة أو الالتزام بأن يكون «خيرًا»، أو أي موقـف مطاوعـةٍ متضاربًا مـع بنية الحياة التي كان قد شـيَّدها وسيهز أركانها. زيادة على ذلك، سيجابه بروز هذه الميول المتضاربة

بصراعه الأساس، وهكذا سيدمر التنظيم الذي كان قد رعاه بعناية فائقة، ذلك التنظيم من أجل التكامل. ستصبح النتيجة أن كبت الميول الأكثر رقة سيعزز الميول العدوانية جاعلاً إياها أشد قسرًا.

إذا اتضح لدينا كل من النمطين اللذين كنا قد بحثناهما في أذهاننا الآن فبوسعنا أن نشاهدهما يمثلان طرفي نقيض، أي ما هو مرغوب فيه عند أحدهما قد يكون بغيضًا للآخر ويتعين على أحدهما أن يحب الجميع وعلى الآخر أن يعتبرهم أعداء محتملين. أحدهما يحاول تجنب الشجار مهما كلف الأمر، ويجده الآخر جبلَّتَهُ التي طبع عليها. أحدهما يتعلق بالخوف والعجز ويحاول الآخر طردهما بعيدًا عنه. يتحرك أحدهما مستهدفًا مُثُلاً إنسانية مهما كان ذلك صعبًا ويتحرك الآخر طبقًا لشريعة الغاب. لكن وبصورة دائمة لم يكن أي من هذين النمطين قد اختير بحرية أي أن كلاً منهما قسري ولا يتسم بالمرونة ومسوق من قبل الضرورات الباطنية. وليست هناك أرض وسط يستطيع النمطان الالتقاء عليها.

نحن الآن على استعداد لأن نتخذ الخطوة التي قادنا إليها عرضنا للنمطين والتي من أجلها كنا قد بحثناهما. لقد انطلقنا من أجل اكتشاف ما يتضمنه الصراع الأساس بالتحديد وكنا قد رأينا حتى الآن منحيين منه يعملان كنزعتين متسلطتين في نمطين متميزين. إن الخطوة التي يجب أن نتخذها الآن إعطاء صورة عن شخص، تنشط فيه كل من مجموعتي المواقف والقيم المتضاربة هاتين على حدٍ

سواء. أليس جليًا أن مثل هذا الشخص يمكن أن يكون مسوقًا بعناد شديد في اتجاهين متضادين تمامًا بحيث أنه قلما يستطيع تأدية وظائفه على الإطلاق؟ إن حقيقة الأمر هي أنه سيكون منقسمًا على نفسه، مشلول الحركة إلى درجة عظيمة بحيث لا يستطيع القيام بشيء. فينصب جهده نحو إلغاء إحدى مجموعتي القيم التي تطبعه بطابع أو بآخر من النمطين اللذين كنا قد وصفناهما؛ وهذه هي إحدى الطرق التي يسعى بواسطتها إلى حل صراعاته.

ولو تحدثنا كما يفعل يونغ في حال كهذه عن تطور من جانب واحد، فسنكون غير كفؤين تمامًا. وفي أفضل الظروف سيمثل ذلك تصريحًا صحيحًا في إطاره العام، ولكن لأن الأمر يستند إلى تصور خاطئ عن القوى المحركة ستكون النتائج مغلوطة. فحينما يستمر يونغ منطلقًا من فكرة الجانب الواحد، في القول بوجوب مد يد العون للمريض أثناء العلاج لتساعده على تقبل جانبه المضاد نتساءل نحن: كيف يكون ذلك ممكنًا؟ إذ ليس بوسع المريض أن يقبل ذلك، بل بوسعه أن يميز فقط. فإذا توقع يونغ أن هذه الخطوة ستجعل من المريض شخصًا سليمًا، فسينبغي أن نجيب نحن بأن هذه الخطوة ضرورية بالتأكيد في التكامل النهائي، لكنها تعني بحد ذاتها مجرد مواجهة صراعاته التي كان يتجنبها حتى هذه اللحظة. إن ما لم يقومه يونغ تقويمًا مناسبًا هو الطبيعة القسرية للنزعات العُصابية. لا يتمثل الفرق ببساطة في الضعف والقوة بين التحرك

نحـو الناس والتحـرك ضـدهـم أو كما قد يعبر عنه يونغ، بين الأنوثة والرجولة.

إننا جميعًا نمتلـك قابليات المطاوعة والعدوان. عندما يحاول أحد الأشـخاص الذين يسـاقون قسريًا أن يناضل بقوة كافية فإنه يستطيع التوصـل إلى بعض التكامل. وحينما يكـون كل من النمطين عُصابيًا فكلاهما ضار في نمونا. إن إضافة صفتين غير مرغوب فيهما لا يؤلف كلاً مرغوبًـا فيه، مثلما لا يكون بوسـع كيانين غـير متكافئين أن يؤلفا وحدة متناغمة.

الفصل الخامس

التحرك بعيدًا عن الناس

إن الوجـه الثالـث للـصراع الأسـاس هـو الحاجة إلـى العزلة، التـي تتمثل في «التحرك بعيدًا» عن النـاس، وقبل أن نفحص ذلك في النمـط الـذي أصبحت لديه النزعة تسـلطًا، يجـب أن ندرك ماذا يقصـد بالعزلة العُصابية، من المؤكد أن ذلك لا يعني مجرد الرغبة في الوحدة بين آونة وأخرى. إن كل فرد يحمل نفسه وحياته محمل الجد يحب أحيانًـا أن يبقى لوحده. لقد غمرتنا حضارتنا في مظاهر الحياة الخارجية لدرجة كبيرة بحيـث أصبحنا نمتلك فهمًا ضئيلاً عن هذه الحاجـة. غير أن إمكاناتهـا في تحقيق ما يريده المرء شـخصيًا كان قد جرى التشـديد عليه من قبل الفلسـفات والأديان في الأزمنة كافة. إن الرغبـة في عزلـة ذات مغزى ليسـت أمـرًا عُصابيًا أبـدًا بل على

نقيض ذلك فإن معظم المرضى العُصابيين ينكمشون من أعماق سرائرهم الخاصة ومن عدم قدرتهم على تحمل عزلة بناءة وعدم التحمل هذا علامة على مرض العُصاب. أما إذا كان هناك إعياء لا يطاق أثناء الاختلاط بالناس حيث تصبح العزلة وسيلة لتجنب الاختلاط أساسًا حينئذٍ تصبح رغبة المرء في أن يكون وحيدًا مؤشرًا إلى العزلة العُصابية.

تشير بعض خصائص الشخص المنعزل الى مزايا خاصة به بحيث أن أطباء النفس يميلون إلى اعتبارها تنحصر في النمط المنعزل. وأشد هذه بروزًا هو الاغتراب الشامل عن الناس. تسترعي هذه الميزة انتباهنا لأن الشخص المنعزل يؤكدها بشكل خاص غير أن غربته في الواقع ليس أعظم من غربة مرضى العُصاب الآخرين. مثلاً في حال النمطين اللذين سبق بحثهما، قد يكون من المستحيل أن نكوِّن تعميمًا يتعلق بكون أيهما هو الأشد اغترابًا. نستطيع فحسب أن نذكر أن هذه الميزة مستورة عند النمط المطاوع وأنه يصاب بالدهشة والرعب حالما يكتشف وجودها لأن حاجته الانفعالية للمودة الحميمة تجعله تواقًا جدًّا إلى الاعتقاد بعدم وجود فجوة بين ذاته وبين الآخرين. بعد كل ذلك، فإن الاغتراب عند الناس يؤلف مؤشرًا فحسب على أن العلاقات الإنسانية مضطربة كشأن حال جميع أمراض العُصاب. إن مدى الاغتراب يعتمد على شدة الاضطراب أكثر مما يعتمد على الصورة الخاصة التي يتقمصها مرض العُصاب.

إن الميـزة الأخيرة التي تعتبر في الغالب مقصورة على العزلة هي الاغـتراب عن الذات، أي فقدان الحس بالنسـبة للخـبرة العاطفية والريبـة في ماهية المرء أي فيما يحبه وفيما يكرهه وفيما يشـتهيه ويأمله ويخشـاه ومـا يمتعض منه ومـن يأمن إليه. مثل هـذا الاغتراب عن الذات شائعٌ في كل أمراض العُصاب. إن كل شخص عُصابي يشبه طائرة يسيطر على توجيهها عن بعد ولذلك فهو معرض مثلها لأن يفقد الاتصال مع نفسـه. بوسعنا أن نشبه الأشخاص المنعزلين تمامًا بالزومبيين في تراث هايتي الشـعبي فهؤلاء أموات غير أنهم يبثعون ثانية بالسـحر وبوسـعهم أن يعملوا ويؤدوا وظائفهم كالأحياء غير أنهـم لا حياة فيهم. يتمكن الآخرون، مرة أخرى، أن يتمتعوا بحياة عاطفيـة ثَـرَّة نسـبيًا. لأن مثل هـذه التنوعـات متوافرة لا نسـتطيع اعتبار اغتراب الذات محصورًا بالرغبة في العزلة. ما يشترك فيه جميع المنعزلـين هو شيء مختلف تمامًـا. يتمثل ذلك في اسـتعدادهم للنظر إلـى أنفسـهم بنوع من الاهتـمام الموضوعي مثلما قد ينظـر المرء إلى تحفـة فنيـة، ربما سـتكون أفضل طريقـة لوصف ذلك القـول بأنهم يمتلكون موقف «المراقب» نفسـه تجاه أنفسـهم مثلما يمتلكونه تجاه الحيـاة بصـورة عامة. لذلـك قد يكونـون في الغالب رقبـاء ممتازين بالنسـبة للعمليـات التي تجري في قرارة أنفسـهم. ومن أبرز الأمثلة علـى ذلك هـو إدراكهم الخارق لرموز الأحـلام التي تظهر لهم بين الحين والآخر.

ما يمثل أمرًا حيويًا بالنسبة لهم هو حاجتهم الباطنية لإقامة حاجز عاطفي بينهم وبين الآخرين. وبصورة أدق، يتمثل قرارهم الواعي واللاواعي بعدم الارتباط عاطفيًا مع الآخرين بأية طريقة كانت سواء أكان ذلك في الحب أو الشجار أو التعاون أو التنافس. فهم يرسمون نوعًا من الدوائر السحرية حول أنفسهم قد لا يكون بوسع أحدٍ اختراقها. وهذا هو السبب في أنهم وبصورة سطحية قد «ينسجمون» مع الناس. وتبرز السمة القسرية للحاجة في رد فعلهم الذي يتميز بالقلق حينما يتطفل العالم عليهم.

توجه كل الحاجات والميزات التي يكتسبونها نحو الحاجة الرئيسة في عدم التورط. وتكون الحاجة إلى الكفاية الذاتية من أبرزها. كما تمثل سعة الحيلة أعلى مظهر من مظاهرها الإيجابية. إذ يميل النمط العدواني لأن يكون شديد الدهاء ولكن الروحية تكون مختلفة هنا، فبالنسبة له تمثل جزءًا مما يتطلبه شق طريق المرء عبر عالم يتميز بالعداء ومن أجل الرغبة في هزيمة الآخرين. تماثل الروحية عند النمط المنعزل روحية روبنسون كروسو إذ يتعين عليه كي يعيش أن يكون واسع الحيلة وهي الطريقة الوحيدة التي يعوض بها عزلته.

إن أكثر الطرق مجازفة في المحافظة على الكفاية الذاتية تتمثل في تحديد حاجات المرء شعوريًا أو لا شعوريًا. سنفهم التحركات المختلفة في هذا الاتجاه بصورة أفضل إذا تذكرنا أن المبدأ الذي يكمن خلف ذلك هنا، هو عدم الارتباط بأحد أو بشيء بصورة متينة بحيث

أن ذلك الشخص أو الشيء يصبح لا غنى عنه. ذلك سيعرض التحفظ للخطر. إذ من الأفضل ألا يمتلك المرء شيئًا يهمه كثيرًا. على سبيل المثال قد يكون الشخص المنعزل قادرًا على الاستمتاع الحقيقي غير أنه إذا اعتمدت المتعة على الآخرين بأية صورة فسيفضل أن يتغاضى عنها. إن بوسعه أن يستمتع بالأمسيات بين فترة وأخرى مع عدد قليل من الأصدقاء لكنه يمقت التجمعات العامة والمناسبات الاجتماعية. وبصورة مماثلة يتجنب المنافسة والبروز والنجاح وهو يميل إلى تقييد أوقات أكله وشربه وعادات معيشته ويبقيها ضمن مستوى لا يتطلب منه أن يبذل وقتًا أو جهدًا يزيد عن الضرورة في اقتناء المال الذي يدفعه من أجلها. قد يستاء بشدة من المرض معتبرًا إياه ذلاً لأنه يضطره للاعتماد على الآخرين. وقد يلحق في طلب المعرفة لأي موضوع بواسطة الخبرة المباشرة بدلاً من أن يسلم بما كان الآخرون قد ذكروه أو كتبوه عن روسيا مثلاً أو عن هذا القطر إن كان أجنبيًا فهو يريد أن يرى أو يسمع كل شيء بنفسه. قد يؤدي هذا الموقف إلى استقلال ذاتي رائع، إذا لم يصل حدودًا سخيفة كرفض الاستفسار عن الاتجاهات حينما يكون في مدينة غريبة.

تمثل حاجته للاختلاء بنفسه حاجة ملحة أخرى. إذ هو يشبه نزيل غرفة في إحدى الفنادق ممن يرفعون أحيانًا رقعة «يرجى عدم الإزعاج» على باب غرفته. حتى الكتب قد تعتبر متطفلة عليه كأشياء من الخارج. كما أن أي سؤال يطرح عليه عن حياته الشخصية

قد يصيبه بالصدمة، لأنه يميل إلى إحاطة نفسه بستار من الكتمان. أخبرني أحد المرضى مرةً أنه كان ما يزال يمتعض تمامًا حتى سن الخامسة والأربعين من فكرة إحاطة الله بكل شيء بقدر ما كان يستاء تمامًا عندما كانت أمه تخبره أن الله يستطيع أن ينظر عبر مصاريع النافذة ويراه وهو يقضم أظافره. كان هذا مريضًا بالغ التحفظ حتى بالنسبة لأكثر التفاصيل تفاهة في حياته. قد يشعر الشخص المنعزل بالقلق المفرط إذا نظر إليه الآخرون على أنه شخص «مساير» لأن هذا يشعره بأنه معتدى عليه. وهو يفضل كقاعدة أن يعمل وأن ينام وأن يأكل بمفرده. وعلى نقيض بارز مع النمط المطاوع فهو لا يحب اقتسام أية خبرة فالشخص الآخر قد يزعجه. حتى عندما يصغي للموسيقى أو يسير أو يتحدث مع الآخرين تأتي متعته الحقيقية بعد ذلك فقط إثر تداعي الأحداث والتأمل فيها.

يؤدي الاكتفاء بالذات والاختلاء بالنفس إلى إشباع حاجته البارزة في الاستقلال التام بذاته. وهو نفسه يعتبر استقلاله شيئًا ذا قيمة إيجابية. إن لذلك بلا ريب قيمة من نوع سيئ. إذ مهما تكن عيوبه فمن المؤكد أن الشخص المنعزل ليس آلة تلقائية ممتثلة. إن رفضه العنيد للوفاق مع تجنبه لسلاح المنافسة يضفي عليه لونًا من السوية. تتمثل المغالطة هنا في أنه يعتبر الاستقلال غاية في حد ذاتها ويتغافل عن الحقيقة في أن أهميته تعتمد أخيرًا على ما يفعله باستقلاله. إن استقلاله هذا ككل مظاهر الانعزال التي يكون جزءًا

منها يمتلك توجهًا سلبيًا، إنه يستهدف عدم وقوعه تحت التأثير أو إجباره على الطاعة أو الارتباط أو الالتزام.

كأي نزعة عُصابية أخرى، تكون الحاجة للاستقلال قسرية وغير متجانسة. إنها تُبرز نفسه بوضوح في هيئة حساسية فائقة تجاه كل شيء يبدو كإكراه أو كتأثير أو كالتزام وهلمّ جرًا. وتمثل درجة الحساسية ميزانًا جيدًا لشدة الرغبة في العزلة. ويتفاوت ما يشعر به كإكراه بتفاوت الأفراد. فقد يشعر بالضغوط المادية والتي تثير الإحساس نفسه أيضًا كالياقات وأربطة العنق وأحزمة البطن والأحذية. كما أن أية إعاقة للنظر قد تثير الشعور لديه بأنه محاصر؛ كما قد يشعر بالقلق عند الدخول في نفق أو منجم. لا تشكل الحساسية على هذا النحو التفسير الوافي لمرض رهاب الاحتجاز ولكنها على أية حال تمثل خلفيتها. كما يتم تحاشي الالتزامات طويلة الأمد ما أمكن ذلك كالتوقيع على تعهد أو عقدٍ للإيجار لأكثر من سنة كما أن الزواج يكون معضلة من المعضلات. إن الزواج بالنسبة للشخص المنعزل هو قضية محفوفة بالمخاطر في نطاق أي ظرف وذلك بسبب العلاقة الإنسانية الحميمة التي يتضمنها. لكن الحاجة إلى الحماية أو الاعتقاد بأن الرفيق سينسجم تمامًا مع خصوصياته غير المألوفة قد تلطف من المجازفة. في الغالب تكون هناك موجة من الرعب قبل اكتمال الزواج كما يتم الإحساس بقسوة الزمن وثقله لحد يجعل منه قيدًا وحجرًا وقد يلجأ العُصابي إلى عادة التأخر عن العمل ولو خمس دقائق من أجل

الاحتفـاظ بوهـم من الحرية تجـاه ضغط الوقت. كما تشـكل جداول المواعيد تهديدًا له؛ ويسـتمتع مريض الانعـزال بحكاية الرجل الذي كان يرفض النظر إلـى جدول المواعيد حيث كان يذهب إلى المحطة متـى ما أعجبه ذلك مفضلاً الانتظـار هناك كي يلحق بالقطار التالي. أمـا توقعـات الناس الآخريـن بأنه سـيفعل أمورًا معينـة أو يتصرف بطريقة محدودة ذلك يشـعره بعدم الارتيـاح والثورة بغض النظر عما إذا كان يعبر عن مثل هذه التوقعات فعلاً أم أن وجودها مجرد افتراض فحسب. فعلى سبيل المثال قد يحب تقديم الهدايا بشكل طبيعي لكنه سينسـى ما يتعلق بهدايا أعياد الميلاد وعيد رأس السـنة الميلادية لأن هذه تمثل أمورًا قد تفرض عليه. إن مجاراة قواعد السـلوك المقبول أو مجموعـات القيم التقليدية تكون بغيضة لديه. سـيذعن ظاهريًا لكي يتجنـب الاحتكاك، لكنه في عقلـه الباطن يرفض بعناد جميع القواعد والمقاييـس التقليديـة، ختامًا يتم الإحسـاس بالنصيحة على أنها نوع من التسـلط وتُجابه بالمقاومة حتى وإن اتفقت مع رغباته الشـخصية. قـد ترتبـط المقاومـة في هذه الحال كذلـك برغبة واعيـة أو غير واعية تستهدف تثبيط همم الآخرين.

إن حاجـة الإحسـاس بالرفعة ورغـمًا عن كونها مشـتركة بين جميع أمـراض العُصـاب يجـب التاكيـد عليها هنـا بسـبب ارتباطهـا الذاتي بالعزلة. إن تعابير مثل «البرج العاجي» و«العزلة الرائعة» تمثل شـواهد علـى أنه حتـى في طريقة الكلام الـدارج يكون الانعزال والاسـتعلاء

صنوبين مرتبطين بشكل وثيق. من المحتمل ألّا يكون هناك من يستطيع احتمال العزلة لكونه إما صبورًا أو واسع الحيلة بصورة خاصة أو شاعرًا بأهميته الفريدة. وتثبت ذلك الخبرة السريرية. فحينما يتحطم مؤقتًا إحساس الشخص المنعزل بالتفوق، إن كان ذلك بسبب فشل ملموس أو بسبب زيادة الصراعات الباطنية، فسوف لن يكون قادرًا على تحمل الوحدة وقد يتلمس العون بصورة محمومة طلبًا للحنو والحماية. غالبًا ما تظهر تذبذبات من هذا النوع في سيرة حياته. فربما كان قد كون عددًا محدودًا من الصداقات القليلة على الأرجح أثناء مراهقته أو في بدايات العشرين من عمره، لكنه عاش حياة منعزلة إلى حد ما، شاعرًا براحة بال نسبية. كان من عادته أن ينسج خيالات عن مستقبل يتمنى أن يحقق فيه أشياء رائعة. ثم تحطمت هذه الأحلام على صخور الواقع. وعلى الرغم من أنه كان يحق له الادّعاء دون ريب بالفوز بالمرتبة الأولى في المدرسة الثانوية ولكنه اصطدم في الكلية ببعض المنافسة الخطيرة فانكمش عنها. وباءت محاولاته الأولى في الحب في الفشل أو أنه أدرك حينما أخذ يكبر أن أحلامه لم تكن تتحقق. ثم أصبح الاستعلاء بعد ذلك أمرًا لا يطاق، كما كان هو يذوي تحت وطأة دافع قسري نحو الألفة الإنسانية الحميمة والعلاقات الجنسية والزواج. كان راغبًا في الرضوخ لأية مذلة لمجرد أن يحب فحسب. حينما يجيء مثل هذا الشخص للمعالجة التحليلية، فليس من المستطاع معالجة عزلته رغمًا عن كونها ما زالت شديدة وظاهرة للعيان. فكل ما

يبغيه في البداية هو المساعدة في البحث عن الحب بصورة أو بأخرى. حينما يحس بأنه أقوى بصورة لا يستهان بها فسوف يكتشف فعلاً وبارتياح بالغ أنه يرغب بشدة لو أنه «يعيش بمفرده ويريد ذلك». هنا يعطي الانطباع بأنه قد رجع القهقرى نحو انعزاله السابق. لكن المسألة في الواقع تتعلق بكونه يقف للمرة الأولى على أرضية صلبة بما يكفي لأن يعترف ولو لنفسه أن العزلة هي مبتغاه. قد يكون هذا هو الوقت الملائم في علاج انعزاله. تتصف الحاجة للاستعلاء في حال الشخص المنعزل بأنها تمتلك معالم محدودة خاصة بها. فهو لا يريد عبر كرهه لكفاح المنافسة أن يبدع حقيقة من خلال الجهد المثابر. بل يشعر بدلاً من الإتيان بذلك أن الكنوز الدفينة في قرارة نفسه ينبغي إدراكها دون بذل أي مجهود من قبله فعظمته الخفية ينبغي أن تلمس دون أن يتعين عليه الإتيان بأية حركة. إنه يرسم في أحلامه مثلاً خزائن كنوز مطمورة بعيدًا في إحدى القرى النائية يأتي إليها الخبراء للمشاهدة من أقاصي المعمورة. إن هذه ككل مفاهيم الاستعلاء، تتضمن شيئًا من الحقيقة، يرمز الكنز الدفين إلى حياته الفكرية والعاطفية التي يصونها ضمن دائرة السحر.

تتمثل الطريقة الأخرى التي يعبر بها عن شعوره بالاستعلاء في إحساسه بأنه فريد من نوعه، وهذا مظهر مباشر من مظاهر رغبته في الإحساس بالانقطاع والتميز عن الآخرين. قد يتصور نفسه شبيهًا بشجرة تقف شامخة بمفردها فوق قمة تل، بينما يكف نمو

الأشجار في أسفل الغابة بسبب تلك الأشجار العديدة التي تحيطها. حيثما يتوجه النمط المطاوع للإنسان الآخر متسائلاً «هل سيضمر لي الود؟» سيرغب النمط العدواني أن يعرف «كم هو شديد المراس كخصم؟» أو «هل بوسعه أن يكون مفيدًا بالنسبة لي؟» كما يكون اهتمام الشخص المنعزل الأول «هل سيدس أنفه في شؤوني؟ هل سيرغب في أن يؤثر عليّ أو أنه سيتركني وشأني؟»

إن المشهد الذي يلتقي فيه بيرجينت مع صانع الأزرار يمثل عرضًا رمزيًا يتسم بالمثالية عن الرعب الذي يشعر به الشخص المنعزل حينما يقذف به في خضم الآخرين. ستكون حجرته في جهنم على ما يرام، لكنه لا يرغب في أن يقذف في إناء للانصهار أو أن يصاغ في قالب محدود أو أن يكيف لأغراض الآخرين فتلك هي فكرة مرعبة. إذ يشعر أنه شبيهٌ بسجادةٍ شرقيةٍ نادرةٍ فريدةٍ في رسمها وفي مزيج ألوانها ثابتة أبد الدهر. إنه يحس بزهوّ استثنائي في كونه بقي بمنأىً عن مؤثرات البيئة التي تساوي بين الجميع وهو يصمم على مواصلة تلك المسيرة. كما أنه من خلال اعتزازه بثباته يرفع الصلابة الموروثة في جميع أمراض العصر إلى مستوى منزلة مبدأ مقدس.

كما أنه عبر كونه راغبًا وحتى متلهفًا لتطوير نمطه الخاص ولإعطائه نقاء وتبصرًا أكبر فهو يصرّ على ألّا يضاف إليه أي شيء من الخارج. وتظل حكمة بيرجينت صامدة ببساطتها وعدم توافقها: «كن مكتفيًا بذاتك».

لا تسير حياة الشخص المنعزل العاطفية وفقًا لأسلوب مقنن كتلك التي تتعلق بالنمطين الآخرين اللذين سبق وصفهما. فالاختلافات الفردية أعظم في حالته. إنه على نقيض متنافر مع النمطين الآخرين اللذين تكون نزعاتهما موجهة نحو أهداف إيجابية: الحنو والألفة والحب عند أحدهما أو البقاء والتسلط والنجاح عند الآخر. أما أهدافه فهي سلبية: فهو لا يريد أن يتورط ولا يريد أن يحتاج لأحد ولا يسمح للآخرين أن يتدخلوا في شؤونه أو أن يؤثروا فيه. ستكون الصورة الوجدانية من هذا المنطلق معتمدة على الرغبات الشخصية التي كانت قد نشأت أو أتيح لها البقاء حية ضمن هذا الإطار من السلبية. ويمكن تكوّن عدد محدود من الميول الناشئة عن العزلة بذاتها.

هناك ميلٌ عام لقمع كل الأحاسيس إلى حد إنكار وجودها. أرغب هنا أن أقتبس نصًّا من رواية لم تنشر للشاعرة آنّا ماريا آرمي لأنها تعبر ببلاغة ليس عن هذا الميل فحسب بل هي أيضًا تعبر عن مواقف أخرى نموذجية بالنسبة للشخص المنعزل. يذكر الشخص الرئيس أثناء استغراقه في الذكريات عن فترة مراهقته: «كان بوسعي أن أتصور رابطة مادية متينة (كالتي كانت بيني وبين أبي) ورابطة روحية قوية (كالتي كانت مع أبطالي)، لكنني لم أستطع أن أرى أين وكيف دلفت إليها المشاعر؛ بكل بساطة لم تكن المشاعر موجودة؛ كان الناس يكذبون عنها مثلما كانوا يكذبون عن أشياء أخرى كثيرة. فشعرت الفتاة بالرعب وقالت: «لكن كيف تعلل التضحية؟»».

فذهلت لبرهة بسبب الحقيقة في ملاحظتها. ثم قررت أن التضحية كانت واحدة من هذه الأكاذيب وإن لم تكن أكذوبة فقد كانت فعلاً ماديًا أو روحيًا. كنت أحلم آنذاك بالعيش وحيدًا وعدم الزواج بتاتًا وفي أن أصبح قويًا ومسالمًا أو أن أطيل الثرثرة دون أن أطلب المساعدة. أردت إقناع ذاتي بأن أتحرر أكثر فأكثر وأن أتخلى عن الأحلام لكي أرى وأحيا بجلاء. كنت أظن أن التعاليم الخلقية لم تكن ذات مغزى فلا يهم أن تكون صالحًا أو طالحًا طالما كنت صادقًا تمامًا. كان ذنبًا عظيمًا أن تبحث عن الشفقة أو تتوقع المساعدة. وبدت لي الأرواح كمعابد يجب حراستها، وحيث تمارس في داخلها على الدوام طقوس غريبة مفهومة عند كهنتها وأمنائها فحسب».

يتعلق إنكار المشاعر قبل كل شيء بالمشاعر تجاه الناس الآخرين وينطبق على كل من الإحساس بالحب وبالبغض. إن ذلك حصيلة منطقة تتصل بالحاجة في الإبقاء على مسافة عاطفية بين العُصابي وبين الآخرين وقد يدفع الحب أو البغض الشديد الذي يجرب بوعي المرء إلى التقرب من الآخرين أو إلى مجابهتهم. وتعبير أج. أس. سيلفيان عن آلية المسافة الملائمة في هذا الشأن. ليس من الضروري أن يفهم من ذلك أن الشعور سيقمع في مجالات تقع خارج حدود العلاقات الإنسانية وأنه سيصبح فعالاً في عالم الكتب أو الحيوان أو الطبيعة أو الفن أو الطعام وغيره. غير أن هناك خطرًا لا يستهان به ينشأ عن ذلك. فقد يكون من المستحيل على شخص يتمتع بقدرة

عاطفية مشبوبة وعميقة أن يقمع قطاعًا واحدًا من إحساسه - وهذا هو الأعظم أهمية - دون أن يتوغل بعيدًا إلى أقصى مدى في قمع إحساسه كاملاً. إن هذا تفكير محفوف بالمجازفة غير أنه من المؤكد أن ما سيذكر يصدق بصورة واقعية. إذ غالبًا ما مر الفنانون من النمط المنعزل ممن برهنوا أثناء أوقات حياتهم الإبداعية على أنهم لم ينفعلوا بعمق فحسب بل عبروا عنه كذلك في فترات من الحذر العاطفي الكامل أو رفض شديد لكل المشاعر، مثلما كان ذلك في النص المقتبس. ويبدو أن الفترات الخلاقة تأتي في أعقاب بعض المحاولات التي تنتهي بكارثة تخص صلات المودة الحميمة، حيث كانت العزلة قد طبعت حياتهم عن قصد أو بصورة عفوية. أي حينما كانوا قد عقدوا العزم شعوريًا أو لا شعوريًا على الابتعاد عن الآخرين أو أنهم استسلموا لنوع من حياة الاعتزال. إن الحقيقة في أنهم يستطيعون الآن وهم على مسافة مأمونة من الآخرين من إطلاق العنان لمجموعة كبيرة من أحاسيسهم التي لا ترتبط مباشرة بالعلاقات الإنسانية وهذا يفسح المجال للتأويل بأن الإنكار المبكر لجميع الأحاسيس كان ضروريًا من أجل تحقيق عزلتهم.

هناك سبب آخر قد يجعل قمع الأحاسيس يتجاوز ميدان العلاقات الإنسانية كان قد سبق ذكره أثناء بحثنا في اكتفاء الذات. إذ تعتبر أية رغبة أو اهتمام أو تسلية تزيد من اعتماد الشخص المنعزل على الآخرين خيانة من الداخل، وقد تكبح لهذا السبب. يبدو الأمر

كما لو أن كل موقف يجب أن يمتحن عن كثبٍ عبر منظور إمكانيته على سلب الحرية قبل أن يكون من المستطاع إطلاق العنان الكامل للمشاعر. كما أن أي تهديد للاستقلال سيقود إلى الانسحاب عاطفيًا. لكنه حينما يجد مجالاً مأمونًا تمامًا بهذا الشأن، فسيكون بوسعه أن يستمتع به حتى الثمالة. إن قصة ثورو المسماة والدين تؤلف مثالاً جيدًا عن التجربة العاطفية العميقة المحتملة تحت هذه الظروف. أحيانًا يؤدي الخوف الكامن الذي يتعلق إما بكون المرء منهمكًا بإفراط في لذة من اللذات أو بانتهاكها لحريته بصورة غير مباشرةٍ إلى دنوه من حافة الزهد. غير أن هذا زهد من نوع خاص غير موجه نحو إنكار أو تعذيب الذات. وقد يجدر بنا أن نسميه ضبط الذات حيث يبدو عند تقبلنا للافتراضات بأنه لا يخلو من الحكمة.

من الأهمية العظيمة بمكان للاتزان النفسي أن تكون هناك قطاعات يمكن أن تعزوها التجربة العاطفية العفوية. فقد تكون القدرات الخلاقة، مثلاً، نوعًا من الخلاص. إذا كان التعبير عنها مكبوتًا، وإذا حررت بعد ذلك عبر تحليل النفس أو عبر بعض الخِبر الأخرى، فيمكن أن يغدو تأثيرها النافع عظيمًا إلى درجة تجعله يبدو كعلاج شافٍ يتصف بالإعجاز. إنّ الحذر واردٌ هنا عند تقويم مثل هذه العلاجات الناجعة. قد يكون من الخطأ أن نطلق أي تعميم يتعلق بحدوثها إذ إن معنى الخلاص لشخص منعزل قد لا يمتلك بالضرورة مثل هذا المعنى بالنسبة لآخرين. فقد لا يكون «علاجًا

ناجعًا» بحتًا بمعنى أنه سيؤدي إلى تبدل جوهري في جذور مرض العُصاب، حتى بالنسبة له. سيتيح له فقط طريقة من الحياة أكثر إرضاءً وأقل تعكيرًا.

كلما كان قمع الانفعالات شديدًا، كلما أمكن أن يوجه الاهتمام إلى الذكاء بصورة أكبر. كان يمكن التوقع بعد ذلك أن كل شيء قد يُحَلُ بقوة التفكير البحت، كما لو أن مجرد اطلاع المرء على مشكلاته الخاصة سيكون كفيلاً بشفائها. أو كما لو تم التفكير بروّية فإنه قد يستطيع بحد ذاته أن يعالج كل معضلات الدنيا!

في ضوء كل ما سبق أن ذكرناه عن العلاقات الإنسانية للشخص المنعزل فسيكون من الجلي أن أية علاقة حميمية ومتينة ستقود إلى تعريض عزلته للخطر ومن هذا المنطلق ستكون وخيمة العاقبة، ما لم يكن الرفيق انعزاليًا بصورة مماثلة وهكذا يقّدر نفسه وفقًا لمثل هذه الحاجات، إن شخصية سولفيج التي تترقب بشوق وصبر شديدين عودة بيرجينت تمثل الرفيقة المثالية. إذ لا تتوقع سولفيج أن يمنحها شيئًا. فقد تروعه التوقعات من ناحيتها بقدر ما يروعه فقدانه للتحكم بعواطفه الذاتية. إنه لا يدرك في الغالب كم هو شحيح ما يقدمه هو ذاته إذ يظن أنه كان قد أسبغ على رفيقته كل العواطف المكبوتة التي لم يتمتع بها، والتي كان يعتز بها أشد الإعتزاز. قد يكون بوسعه المحافظة على قدر لا يستهان به من الإخلاص المتواصل شريطة أن تظل المسافة العاطفية مكفولة بصورة كافية. قد يكون على استعداد

لممارسة علاقات عاطفية قصيرة الأمد، علاقات يظهر فيها تارة ثم يختفي. هذه العلاقة سريعة الانكسار، ثم أن أي عدد من العوامل قد يدفعه إلى النكوص.

قد تعني العلاقات الجنسية الكثير بالنسبة له وبصورة متطرفة كجسر يصله بالآخرين. سيتمتع بها كما لو كانت علاقات عابرة ولا تشكل تدخلاً في حياته. من جهة أخرى، ربما يكون قد اضطر هو نفسه لعدم الاهتمام بها إلى درجة عظيمة بحيث أنها لن تسمح له بانتهاك الحرمات. ومن ثم قد يستعاض عن العلاقات الواقعية بعلاقات من نسج الخيال تمامًا.

تبرز كل هذه التفاصيل الخاصة التي سبق وصفها أثناء عملية تحليل النفس. لا شك أن الشخص المنعزل سيمتعض من تحليل النفس لأنه فعلاً أعظم تطفل محتمل على حياته الخاصة.

غير أنه يولع أيضًا بملاحظة نفسه وربما يبدو مفتونًا بها بسبب الأفق الأرحب الذي يفتح أبوابه أمام ناظريه مطلعًا على العمليات المعقدة التي تدور في دخيلة نفسه. قد يذهل بنوعية أحلامه الخلابة أو بألمعية صلاته غير المعتمدة. ويماثل فرحه فرح العالم في حال عثوره على برهان يثبت صحة افتراضاته. وهو يثمن كياسة محلل النفس وإشاراته إلى أمر من الأمور هنا وهناك، غير أنه يمقت بشدة أن يستعجل أو «يُدفع» نحو وجهة لم تكن له في الحسبان. سيتحدث في الغالب عن خطر الإيحاء أثناء تحليل النفس رغمًا عن أن هذا الخطر

يبدو أقل بالنسبة له مقارنة مع أي نمط آخر، ذلك لأنه متحصن بكل معنى الكلمة ضد «التأثير». ولكونه يبتعد عن الدفاع عن موضعه بطريقة منطقية فهو يميل كما هي حال نزعته للرفض بلا روية ولو أنه يتحدث بصورة غير مباشرة وبلطف رافضًا كل ما لا يتفق وآراءه عن نفسه وعن الحياة عمومًا. فهو يجد نفسه كارهًا أن يتوقع المحلل أي تغيير فيه بأي شكل من الأشكال. هو يريد ولا شك أن يتخلص مما يقلقه ولكن ذلك يجب ألّا يتضمن تغييرًا في ذاتيته المميزة. وهو راغب تقريبًا في أن يتقيد بشكل لا يكلّ مثلما هو مصمم بدون وعي على أن يظل كما هو. إن تحدّيه لكل تأثير ما هو إلّا تفسير واحد لمواقفه وليس هو التفسير الأعمق وسنطلع على التفسيرات الأخرى بعد ذلك، ومن الطبيعي أن يجد محلل النفس بينه وبين مريضه فجوة عظيمة. وسيبقى المحلل فترة طويلة دون صوت. وقد يظهر وضع التحليل في الأحلام كمكالمة هاتفية عبر مسافة شاسعة تدور بين مخبرين صحفيين يعيشان في قارتين مختلفتين. قد يبدو مثل هذا الحلم، للوهلة الأولى، معبّرًا عن البرود الذي يحسه نحو محلل النفس وعملية التحليل - لكن ذلك مجرد عرض دقيق لموقف شعوري موجود. وبسبب كون الأحلام بحثًا عن حل أكثر من كونها مجرد وصف لأحاسيس موجودة فإن التأويل الأوفى لمثل هذا الحلم يتمثل في كونه أمنية من أجل إبقاء علاقته بالمحلل وعملية التحليل برمتها على بعد منه وذلك للحيلولة دون أن يمسه التحليل بأية صورة.

إن السـمة التي تلفت النظر ضمـن كل من تحليل النفس وخارجه هـي الحيويـة الهائلة التـي يدافع بها عـن العزلة حالما تهاجـم. قد يقال الشيء نفسـه عن كل حال عُصابية. غير أن المعركة في هذه الحال تبدو أشـد عنادًا ونضـالاً من أجل الحيـاة إذ تُعبّأ في سـبيلها جميع الطاقات المتوافـرة تقريبًا. تبدأ المعركـة واقعيًا بطريقة مخربـة ولفترة طويلة قبل مهاجمة العزلة. ويمثـل إبقاء محلل النفس خارج إطار الصورة مرحلة واحـدة من مراحلها. أمـا إذا حاول محلل النفـس أن يقنع المريض أن هنـاك بعض الصلـة بينهما وأن من المحتمل أن يـدور شيء من هذا في ذهـن المريض حينها سـيواجه بإنكار لذلك وبصورة مسـهبة وبدماثة خلق قلت أم كثرت. وفي أحســن الأحوال سـيعبر المريض عن بعض الأفـكار المنطقيـة التي كان قد كوَّنها عن محلـل النفس. فإذا حدث أن ظهـر رد فعل يتسـم بانفعالية عفوية فلن يعقـب عليه بأكثر من ذلك. وفـوق هـذا غالبًا ما تكـون هناك مقاومـة عميقة الجـذور ضد تحليل أي شيء يتصـل بالعلاقات الإنسـانية، إذ تحاط علاقـات المريض مع الآخريـن بشيء من الغموض الشـديد بحيث يصعب على المحلل في الغالـب أن يكون عنها صورة واضحة المعالم. وبوسـعنا أن نفهم هذه الممانعة. لقد كان العُصابي يحتفظ بمسافة مأمونة تفصله عن الآخرين، وبوسـع الحديـث عن موضوع العلاقات أن يثير قلقًا ويقلب الأمور رأسًـا علـى عقب وقـد تجابه أيـة محاولات متكـررة لمتابعـة الموضوع بارتيـابٍ صريـح، هل يريـد المحلل أن يجعـل المريض شـخصًا ميالاً

إلـى العيش مع أبناء جنسـه؟ (إنّ ذلك بالنسـبة له أدنى مسـتوى من الازدراء). فإذا نجح محلل النفس أثناء فترة لاحقة في عرض بعض من المعوقات المحدودة عن العزلة فسـوف يمسي المريض مرعوبًا ونزقًا. وقـد يفكر في هذه المرحلة أن يتخلـى عن الالتزام بالتحليل. إن ردود فعله خارج دائرة تحليل النفس سـتكون ما تزال عنيفة جدًا إن لم تكن تتصف بصفة أخرى. ربما لا ينبس هؤلاء الأشـخاص المتميزون عادة بالهـدوء والمنطق ببنت شـفة لأنهم ينتفضون غضبًا أو قد يسـتحيلون إلى أشخاص سيئين فعلاً إذا تهدد استعلاؤهم واستقلالهم بأنفسهم. قد يستثار الهلع المحض فيهم عندما تبرز فكرة الانضمام إلى أية حركة أو منظمة مهنية تتطلب مشـاركة فعلية وليس مجرد دفع الرسـوم. فإن أصبحـوا متورطين بذلك فعلاً فقد يضربون أخماسًـا بأسـداس دونما أيّـة رويّـة من أجل النفاذ بجلدهم. بوسـعهم أن يكونوا أكثر خبرة في اكتشاف أساليب النجاة من رجل يواجه اعتداء على حياته. وإذا وقع الاختيار بين الحب والاستقلال بالذات، كما عبّر عنه مرةً أحد المرضى، فسـيقع اختيارهم على الاسـتقلال بدون أدنى تردد. وهذا يثير نقطةً أخـرى. إنهم لا يرغبون بالدفاع عن عزلتهم بجميع الوسـائل المتاحة فحسـب، بـل هم لا يجـدون حرجًـا في القيام بأية تضحيـة مهما غلت في سـبيل ذلك. هنا يتم التخلي عن المصالح الخارجية والمعايير الذاتية على حدٍ سواء شعوريًا بإهمال أية رغبة تتعارض مع ذلك الاستقلال أو لا شعوريًا نتيجة الحظر التلقائي.

إن أي شيء يدافع عنه بهذه القوة ينبغي أن يتصف بأهمية شخصية عظيمة. يمكننا أن نفهم أغراض العزلة. وفي الختام نستطيع أن نساعد أثناء العلاج عندما نكون على وعي بذلك. وكما رأينا، يمتلك كل موقف من المواقف الرئيسية تجاه الناس قيمته الإيجابية. ففي التحرك نحو الناس يحاول المرء أن يخلق لنفسه علاقات ودية مع عالمه. وفي التحرك ضد الناس يحاول أن يجهز نفسه من أجل البقاء في مجتمع يتصف بروح المنافسة. ويأمل بالتحرك بعيدًا عن الناس أن يحقق وحدةً وراحة بالٍ محددتين. إن كلاً من المواقف الثلاثة في الحقيقة ليس مرغوبًا فيه فحسب بل هو ضروري أيضًا لنموّنا كمخلوقات بشرية. ولكنها تستحيل، عندما تعمل وتظهر ضمن إطار مرض العُصاب إلى مواقف قسرية وقاسية وغير متجانسة ومتضادة معًا. كل ذلك ينتقص من أهميتها بشكل لا يستهان به غير أنه لا يقضي عليها تمامًا.

إن الفوائد التي تجنى من العزلة لا يستهان بها في الواقع. ومن الجدير بالذكر أن العزلة تنشد في جميع الفلسفات الشرقية بوصفها قاعدة للتطور الروحي الأسمى. حقًا إننا لا نستطيع أن نفرق مثل هذه الطموحات عن تلك التي تتعلق بالعزلة العُصابية. فهناك تختار العزلة طوعًا بصفتها الأسلوب الأمثل باتجاه تحقيق الذات وهي تتبنى من قبل أشخاص يستطيعون لو أرادوا أن يحيوا حياة مختلفة؛ غير أن العزلة العُصابية من الجهة الثانية ليست أمرًا مختارًا بل هي تنبثق عن القسر الذاتي حيث تمثل الطريقة المحتملة الوحيدة في الحياة.

مـع ذلك فقد تشـتق منها بعـض من الفوائد وأقصـى ما يمكن أن تبلغـه هذه الفوائد يعتمد على شـدة العملية العُصابيـة باكملها. وقد يسـتمر الشـخص المنعزل وبالرغم من القوة المخربة في أي مرض من أمـراض العُصـاب بالمحافظـة على اسـتقلالية معينة. قلـما يمثل هذا امتيـازًا في مجتمـع تتصف فيه العلاقات الإنسـانية بالود وحسـن النية عمومًا. غير أن استقلالية أي شخص لا يتحلى بجلدٍ كافٍ ستتعرض للهـدر بسـهولة في مجتمع زاخـر بالكثير من أسـاليب النفاق والطرق الملتوية والحسـد والقسـوة والطمع. والإبقاء على مسـافة يحافظ على تلك الاستقلالية. وفوق ذلك، قد تهيئ العزلة وسيلة للسكينة يختلف مداها طبقًا لمبلغ التضحية التي يرغب الشخص في تقديمها لأن مرض العُصاب كما هو معروف يسلب الفرد راحة باله. تتيح العزلة به إضافة لذلك مقدارًا معينًا من التفكير والإحسـاس الأصيل بشرط أن تكون حياته العاطفية غير مقضي عليها تمامًا ضمن دائرته السـحرية. أخيرًا، تسـاهم جميع هذه العوامل على حدٍ سواء مع علاقته التصوفية بالعالم وغياب القلق نسـبيًا باتجـاه التطور والتعبير عن القـدرات الإبداعية، إن كانـت موجودة لديه. إنني لا أربط العزلة العُصابية بشرط مسـبق للابـداع، لكـن العزلة سـتقدم تحت وطـأة العُصاب أفضـل الفرص للتعبير عن أية مقدرةٍ خلاقةٍ متوافرة.

علـى الرغـم من أن هذه المنافـع قد تكون جوهريـة، فإنها لا تبرز السـبب الرئيسي في الدفاع عن العزلة بشـكل مسـتميت. وفي حقيقة

الأمر يكون الدفاع مستميتًا كذلك حتى وإن كانت المنافع في حدودها الدنيا لسبب أو لآخر أو كانت مغلفة بغلاف التعكيرات المصاحبة.
تقود هذه الملاحظات نحو أعماق سحيقة أخرى. فإذا كان الشخص المنعزل قد قذف في خضم علاقة وشيجة مع الآخرين فقد يتعرض على الفور للتمزق إربًا أو باستخدام التعبير الشائع قد يصاب بانهيار عصبي. إنني أستخدم التعبير هنا بروية لأنه يشمل مدى واسعًا من الاضطرابات أي الاضطرابات العضوية كالإدمان على الكحول ومحاولات الانتحار والاكتئاب وعدم القدرة على العمل وسلسلة من الأحداث النفسية. يميل المريض ذاته وأحيانًا الطبيب النفسي أيضًا إلى ربط سبب الاضطراب لحدث من الأحداث المزعجة التي وضعت قبيل «الانهيار» مباشرة. فقد تلقى التبعة على محاباة رأس عرفاء أو على غزل يمارسه أحد الأزواج ويفتري بشأنه أو على سلوك زوجه سلوكًا عُصابيًا أو على صلة جنسية شاذة أو على عدم ظفره بشعبية في الكلية أو بسبب الحاجة لكسب العيش في وقت كانت فيه الحياة تتمتع بالحماية فيما مضى، وهكذا. قد يكون أي من أمثال هذه المشاكل صحيحًا تمامًا. ينبغي على طبيب النفس أن يحمل ذلك على محمل الجد ويحاول أن يفهم ماذا كان قد أثير عند المريض بصفة خاصة عبر معضلة معينة. غير أنه قلما يكفي أن يفعل ذلك لأن السؤال سيبقى، لماذا كان المريض قد تأثر تأثرًا بالغًا ولماذا كان اتزانه النفسي قد تعرض للخطر عبر مشكلة لا يمكننا اعتبارها بشكل عام

أشـدَّ من الإحباطات والهزائم المعتادة؟ بعبارة أخرى، حتى لو أدرك المحلل كيف واجه المريض مشكلة معينة فما يزال في حاجة لأن يدرك لم حدث مثل هذا التباين الظاهر بين الباعث وتأثيره.

للجواب على كل ذلك، يمكننا الإشـارة إلى حقيقة أن النزعات العُصابيـة المرتبطـة بالعزلـة كأي نزعـات عُصابية أخـرى تمنح الفرد إحساسًـا بالأمن طالما تـؤدي وظيفتها. وأنها علـى العكس من ذلك تثير القلق عندما تفشل في القيام بوظيفتها. فيشعر الشخص العُصابي بأنه ما زال يسـتطيع البقاء بعيدًا بالأمن نسبيًا ويهدِّد أمنه إذا اخترقت دائرة السـحر لأي سـبب من الأسباب. يدنينا هذا الاعتبار عن كثب من اسـتنتاج يتصل بالسـبب في أن الشـخص المنعزل يصبح مذعورًا إن لم يسـتطع حمايـة بُعـده العاطفي مـن تطفل الآخريـن، وينبغي أن نضيـف أن سـبب ذعـره الهائل كونـه لايمتلـك أسـلوبًا للتعامل مع الحياة. إذًا باسـتطاعته أن يحافظ على اسـتعلائه وأن يبتعد عن الحياة فحسب. وهنا أيضًا تكون الميزة السلبية للعزلة تلك التي تضفي على الصورة صبغة خاصة مختلفة عن تلك التي ترتبط بالنزعات العُصابية الأخرى. وكي نكون أكثر تحديدًا، لا يستطيع الشخص المنعزل أثناء موقـف صعـب أن يهـدئ مـن ثائرتـه ولا أن يقاتل وقد لا يسـتطيع التعاون أو فرض الشروط أو أن يعشـق أو يستثار غضبًا. إنه يماثل في انعدام حيلته حيوانًا يمتلك وسيلة واحدة فقط للتعامل مع الأخطار وهي أن يهرب ويختفي. عند تنسيق الصور والقياسات المتشابهة التي

ظهرت عبر التداعيات أو الأحلام فإنه يماثل أقزام سيلان حيث لا يمكن قهرهم طالما اختفوا في الغابات غير أنهم يهزمون بسهولة حالما يخرجون منها. وهو يماثل مدينة من مدن القرون الوسطى يحميها سور واحد فقط، فإذا تم الاستيلاء على ذلك السور تظل المدينة مجردة من أي دفاع ضد العدو. تبدو مثل هذه الحال قلقة تمامًا تجاه الحياة بشكل عام. وذلك يساعدنا على فهم ابتعاده بصفته بحاجة حماية شاملة يجب أن يتشبث بها بعناد ويدافع عنها مهما كلفه ذلك من ثمن. وتمثل جميع النزعات العُصابية في جوهرها تحركات وقائية غير أن هاتين النزعتين تمثلان كذلك مجرد محاولتين لمقارعة الحياة بطريقة إيجابية. ولكن إذ تمثل العزلة النزعة السائدة فإنها تحيل المرء إلى شخص عاجز ضمن أي تعامل واقعي مع الحياة بحيث أن ميزتها الوقائية تغدو بمرور الوقت صاحبة القدح المعلى.

لكن ثمة تفسير أبعد من ذلك للتهور الذي يدافع به عن العزلة. إنه في الغالب يعني تهديد العزلة «تحطيم السور» أكثر مما يعنيه الذعر المؤقت. وما قد ينتج عنه هو نوع من انحلال الشخصية عبر سلسلة من الأحداث النفسية. فإذا حدث أثناء التحليل النفسي أن بدأت العزلة بالانهيار فإن المريض لا يغدو سريع التحسس فحسب بل سيعبر عن مخاوف معينة بصورة مباشرة وغير مباشرة. فربما يكون هناك مثلاً خوف من الضياع في خضم كتلة غير محدودة المعالم من الكائنات البشرية ذلك الخوف الذي يتعلق بالدرجة الأولى بخسارته

لفرديتـه. هنـاك أيضًا خوف مـن التعرض للإكراه والاسـتغلال من قبـل الأشـخاص العدوانيين نظرًا لعدم قدرته على حماية نفسـه بكل مـا في الكلمـة من معنى. غير أنه لا يزال هنـاك نوع ثالث من الخوف ذلـك الذي يتعلـق بالنزوع نحو الجنـون مما قد يبـدو واضحًا للعيان بصورة ملموسـة جدًا بحيث أن المريـض يريد تاكيدًا قاطعًا ضد مثل هـذا الاحتمال. ولا يعني النزوع نحو الجنـون بهذا الصدد، التصرف باهتياج كما لا يقصد به رد فعل تتمثل حصيلته في بروز الرغبة بالتخلي عن المسؤولية.

إنه تعبير حصيف عن خوف ذاتي يتصل بالانقسام على الذات بكل معنى الكلمة، غالبًا ما يعبر عنه في الأحلام وتداعي الخواطر. سيوحي له هذا بأن تخليه عن عزلته قد يدفع به أمام صراعاته الخاصة وجهًا لوجه بحيث أنه لن يكون قادرًا على تجاوز ذلك بدون أن ينشطر إلى نصفين كشـجرة ضربتها صاعقة، باسـتخدام صورة طرأت ببال أحد المرضى. تعـزز المشـاهدات الأخـرى هـذا الافـتراض، إذ يمتلـك الأشـخاص مـن ذوي العزلـة الشـديدة كرهًا لا يمكـن التغلب عليـه تقريبًا لفكرة الصراعـات الباطنيـة. فهم يخبرون المحلل في وقـت لاحق بأنهم وبكل بسـاطة لم يكونـوا ليعوا مـا كان يتحدث هـو به من تلـك الصراعات. وحينـما ينجح المحلـل في أن يريهم أحد الصراعـات في سرائرهـم فإنهم ينحرفـون بعيدًا عـن الموضوع بلا وعـي وبمهارة لا شـعورية مذهلة. أمـا إذا أدركـوا صراعًا من الصراعـات على حين غرة فسـوف ينتابهم

ذعر بالغ بغفلة من أنفسهم وقبل أن يكونوا على استعداد للتسليم بذلك. كما أنهم حينما يتوصلون إلى تمييز الصراعات على أساس أكثر رسوخًا، فهم ينغمسون في موجة من العزلة أعظم مما قد سبقها. نصل هكذا إلى نتيجة قد تبدو محيرة للوهلة الأولى. إن العزلة جزء جوهري من الصراع الأساس، لكنه يمثل أيضًا وقاية ضده. ويفسر اللغز نفسه بنفسه بالعزلة حماية ضد الشريكين الأعظم نشاطًا في الصراع الأساس. هنا يجب القول بأن تسلط واحد من المواقف الرئيسة لا يمنع الموقفين الآخرين المتناقضين من أن يتواجدا ويفعلا فعلهما. بوسعنا أن نرى تلاعب القوى هذه بدرجة أوضح في الشخصية المنعزلة مما هي عليه في المجموعتين الأخريتين اللتين سبق وصفهما.

في البداية غالبًا ما تبرز الجهود المتناقضة في السيرة الحياتية. وغالبًا ما يكون شخص من هذا النمط قد مرَّ عبر سلسلة من أحداث المطاوعة والاتكال، وكذلك عبر فترات من التمرد الطائش والعدوان قبل أن يكون قد ارتضى عزلته بجلاء. إن مجموعات معاييره متناقضة جدًا وعلى عكس معايير النمطين الآخرين التي تتحدد بصورة واضحة. فبالإضافة لتقديره العالي والثابت لما يظنه حرية واستقلالاً فقد يعبر في وقت من الأوقات أثناء تحليل النفس عن تقديره البالغ للطيبة الإنسانية والعطف الكريم والتضحية التي تتصف بإنكار الذات وفي فترة أخرى يتأرجح باتجاه شريعة غاب محضة ترتبط بمصلحة ذاتية شديدة. وقد يشعر هو نفسه بالحيرة من هذه التناقضات ولكنه بشيء

من التبرير أو بغيره، سيحاول أن ينكر سماتها المتناقضة. سيقع المحلل في وضع مربك بسهولة إذا لم يكن لديه منظور واضح عن البنية برمتها. وقد يحاول أن يتعقب أحد السبل وسواه دون أن يسبر الغور بعيدًا في أي اتجاه لأن المريض يلجأ كثيرًا لعزلته، وبذلك يغلق جميع المنافذ، مثلما قد يغلق المرء منافذ السفينة الخارجية المحكمة الإغلاق لمنع تسريب الماء.

يكمن هناك منطق متكامل وبسيط خلف «المقاومة» الذاتية المتصلة بالشخص المنعزل. فهو لا يريد أن يبني صلة بينه وبين المحلل أو أن يكوّن فكرةً عنه بصفته إنسانًا. وهو في الحقيقة لا يريد أن يحلل علاقاته الإنسانية على الإطلاق، متجنبًا مواجهة صراعاته. وإذا فهمنا وجهة نظره فسوف نلاحظ أنه لايستطيع مجرد قيامه بتحليل أي من هذه العوامل. إن وجهة نظره تتمثل في قناعته الواعية بكونه ليس بحاجة لإزعاج نفسه حول علاقاته مع الآخرين طالما يظل بعيدًا عنهم، وأن أي اضطراب في هذه العلاقات سوف لن يعكر صفوه طالما استمر في هذا البعد عن الآخرين؛ حتى الصراعات التي يتحدث عنها محلل النفس يمكن أن تهمل نهائيًا لأنها ستزعجه فحسب؛ ولأنه لا يحتاج لتسوية الأمور وهيهات أن يتزحزح عن عزلته هذه. إن هذه المماحكة اللاواعية كما سبق أن قلنا صحيحة منطقيًا إلى درجة ما. وما يهمله ويرفض الاعتراف به لزمن طويل هو أنه ليس من المحتمل أن يتمكن من النمو والتطور في فراغ.

إن وظيفة العزلة العُصابية ذات الأهمية البالغة هي منع الصراعات الرئيسة عن العمل. إذ تتصف الدفاعات المهيأة ضد هذه الصراعات بكونها الأشد تطرفًا والأعظم تأثيرًا. وتتمثل إحدى الطرق العُصابية العديدة في خلق الوفاق المصطنع في محاولة إيجاد حل من خلال المراوغة. غير أنها ليست حلاً صادقًا لأن الرغبات القسرية الشديدة الإلحاح نحو الألفة وكذلك من أجل الهيمنة العدوانية والاستغلال والإبداع تبقى في حالة تواصل ومضايقة لحاملها إن لم تشل حركته تمامًا. أخيرًا لا يمكن تحقيق راحة فكر باطنية أو حرية حقيقية طالما تستمر في البقاء مجموعات القيم المتصارعة.



الفصل السادس

الصورة المثلى

إن مناقشتنا لمواقف الشخص العُصابي الأساسية تجاه الآخرين قد أطلعتنا على سبيلين من السبل الرئيسة التي يحاول من خلالها أن يحل صراعاته أو بصورة أدق أن يتخلص منها. تنطوي إحدى هذه السبل على قمع نواحٍ معينةٍ من الشخصية وإبراز نقيضاتها إلى الواجهة؛ والسبيل الثانية هي في خلق مسافة بين المرء وأقرانه بحيث أن الصراعات تُشل عن العمل. وتستحث كلتا العمليتين إحساسًا بالسوية يتيح للفرد ممارسة وظائفه حتى ولو كلفه ذلك غاليًا.

إن المحاولة التالية التي ستوصف هنا تتمثل في خلق صورة لما يظنه الشخص العُصابي عن نفسه، أو لما يحس به في حينه أو لما ينبغي عليه أن يكون باستطاعته فعلُه بصورة واعية أو غير واعية،

والصورة تبتعد عن الواقع وبدرجة كبيرة على الدوام بالرغم من أن التأثير الذي تمارسه على حياة الشخص يمثل تأثيرًا حقيقيًا فعلاً. كما توصف الصورة زيادة على ذلك بأنها مداهنة في ميزتها مثلما هي واضحة في رسم كاريكاتيري نُشِرَ في صحيفة نيويوركر حيث تشاهد فيه امرأة بدينة في أواسط العمر ترى نفسها في المرآة كفتاة رشيقة في مقتبل العمر. تتباين وتتقرر ملامح الصورة الذاتية بواسطة بنية الشخصية. فقد يعتبر الجمال مسألة ظاهرة تعتبر القوة أو الذكاء أو النبوغ أو الورع أو النزاهة أو كل ما بدا لك. كما أنه طبقًا لمدى ما تكون عليه من زيف فهي تميل إلى جعل الشخص معجرفًا بكل ما يقصد بالمعنى الأصلي للكلمة، لأن العجرفة رغم استخدامها بصورة مرادفة للادعاء تعني أن ينسب المرء لذاته مزايا لا يمتلكها أو يتمنى المرء أن يمتلكها ولكنها ليست موجودة لديه حقيقة. وكلما كانت الصورة غير واقعية جعلت الشخص ميالاً وطامعًا في التثبت والتقدير الخارجي. إننا لسنا بحاجة للتأكيد على المزايا التي نثق في وجودها لدينا لكننا سنشعر بحساسية شديدة عندما نشك في ادعاءاتنا المزيفة.

نستطيع ملاحظة هذه الصورة المثلى في أشد حالاتها صخبًا من خلال المفاهيم التي تتسم بالمبالغة لدى المصابين بأمراض الذّهان. إلا أن ميزاتها في الأساس هي نفسها عند مرضى العُصاب. إنها أقل غرابة هنا لكنها قد تكون واقعية بالنسبة لهم. فإذا اعتبرنا درجة

الابتعاد عن الواقع كعلامة على الفرق بين أمراض الذهّان وأمراض العُصاب فربما نعتبر الصورة المثلى كجزء صغير من مرض ذهانٍ حيك ضمن نسيج مرض العُصاب.

تتميز الصورة المثلى في جميع مقوماتها بكونها ظاهرة لا شعورية. إذ بالرغم من أن انتفاخ أوداجه الذاتي قد يكون في أوج وضوحه حتى بالنسبة لمراقب غير متمرس فإن مريض العُصاب لا يعلم أنه يعتبر نفسه شخصًا مثاليًا. كما أنه لايدري أي خليط غير متجانس من الصفات تجتمع فيه. قد يمتلكه إحساس غامض في أنه يُحمّل نفسه أعباءً ثقيلة، لكنه يخطئ في اعتبار مثل هذه الأعباء المتكاملة مُثلاً أصيلة لا يشك في صحتها بأي شكل كان وهو في الواقع أميل للتفاخر.

كيف ستؤثر بدعته في مواقفه تجاه نفسه، إن ذلك يختلف باختلاف الفرد ويعتمد بشكل واسع على تركيز الاهتمام. فإذا تركز اهتمام مريض العُصاب في إقناع نفسه أنه هو صورة ذاته المثلى فإنه ينّمي في ذاته الاعتقاد بأنه في الواقع يمثل العقل المدبر والكائن البشري الرائع الذي تكون حتى أخطاؤه أمورًا مقدسة. وإذا كان التركيز ينصب على الذات الحقيقية والتي تحظى عند مقارنتها بالصورة المثلى بالازدراء الشديد، عندها سيبرز النقد المزدري للذات إلى المقدمة. ذلك لأن الصورة الذاتية التي تنتج عن مثل هذا الانتقاص تكون بعيدة عن الواقع كابتعاد الصورة المثلى ومن المستطاع أن

تسـمى وبشكل مناسب الصورة المزدراة. أخيرًا إذا كان التركيز على التعـارض بين الصـورة المثلى والـذات الحقيقية فإن كل مـا يعيه هو وكل مـا نسـتطيع ملاحظته نحن، بعـد ذلك، ليس أكثـر من محاولته المتواصلـة في ردم الفجوة وإرغام نفسـه على الوصول إلى مسـتوى الكـمال. وفي هذه الأثناء يواصل هو ترديد كلمة «ينبغي» بتكرار يثير الذهـول. ويسـتمر في إعلامنا بما كان ينبغي أن يشـعر به أو يفكر فيه أو يفعلـه. وهـو في صميم دخيلتـه مقتنع بكماله المـوروث على نحوٍ تامٍ كاقتناع الشـخص «النرجسي» بسـذاجة، ويظهر ذلك عرضًـا من خـلال الاعتقـاد أن بوسـعه أن يكون كاملاً إذا كان أشـد صرامة مع نفسه فحسب وأكثر ضبطًا وأكثر حيطة وأكثر وعيًا.

تمتلـك الصورة المثلى سـمة ثابتة على عكس المثل الأصلية. إنها ليست غاية ليبذل قصارى جهده في سبيل الفوز بها بل هي فكرة ثابتة يديـن لها. تمتلك المثل سـمة فعالة فهـي تثير باعثًا مـن أجل التوصل إليها وهي قوة لاتقدّر بثمن ولا يمكن الاستغناء عنها من أجل النمو والتطـور. أما الصـورة المثلى فهي كعقبة أداء في طريق النمو لأنها إما أن تنكر وجود العيوب أو تشـجبها فحسـب. وتدعـو المثل الأصلية إلى التواضع بينما تدعو الصورة المثلى إلى العجرفة.

أُدرِكـت هذه الظاهرة ومهما كان تعريفها منذ فترة طويلة. فأشـير إليها في المؤلفات الفلسـفية في كل الأزمنة. وقد قدّمها فرويد أولاً في نظرية مرض العُصاب داعيًا إياها بمسميات مختلفة منها مثال الـ «أنا»

و«النرجسية» والـ «أنا» العليا. وهي تؤلف الفرضية المركزية في علم نفس آدلر وقد وصفت هناك على أنها جهاد من أجل التفوق. وقد يؤدي الإدلاء بتفاصيل الفروقات والتشابهات بين هاتين الفكرتين وفكرتي إلى الانقياد بعيدًا عما نحن بصدده. وبصورة موجزة فهذه جميعها تهتم بمنحى واحد أو بآخر فحسب من مناحي الصورة المثلى وتفشل في استيعاب الظاهرة ككل. لذلك وبغض النظر عن التعليقات والحجج المتعلقة بها، ليس فقط فيما يتصل بفرويد وآدلر ولكن بما قدّمه كتاب آخرون كثيرون، من بينهم فرانز الكساندر وبول فيدرن وبرنارد كلويك وايرنست جونز، فإن أهمية الظاهرة ووظائفها كاملة لّما تزل غير مفهومة.

ما هي إذن وظائفها؟ إنها كما يبدو تتضمنان حاجات حيوية. وكيفما كان يفسّرها نظريًا مختلف الكتاب فإنهم جميعًا يتفقون على نقطة واحدة تتمثل في أنها تؤلف قلعة مرض العُصاب إذ من الصعب زحزحتها أو حتى إضعافها. وقد اعتبر فرويد كأحد هؤلاء أن الموقف «النرجسي» المتأصل بعمق من أشد العقبات خطرًا بالنسبة للعلاج النفسي التحليلي.

عندما نبتدئ بما قد يشكل أكثر وظائفها بدائية تمثل الصورة المثلى بديلاً عن الاعتداد بالنفس وعن الفخر الحقيقيين. إن الشخص الذي يغدو في النهاية عُصابيًا يمتلك فرصة ضئيلة في بناء الثقة بنفسه نظرًا للتجارب الماحقة التي كان قد تعرض إليها. مثل هذه الثقة التي قد

تبقـت لديه، تصبح أشـد اهتزازًا أثنـاء تطور مرضـه العُصـابي. ذلك لأن الأحوال ذاتها التي لا يمكن الاسـتغناء عنها في بناء الثقة بالنفس تكـون قابلـة للتدمير. ومن الصعـب صياغة هذه الأحـوال في وقت قصـير. ومن أكثر العوامل أهمية توافر نشـاط طاقات المرء العاطفية، ونمـو أهداف أصيلة لـدى المرء، وقدرته على أن يكون عنصرًا فعالاً في حياته الشخصية. كيفما يتطور مرض العُصاب فإن هذه الأشياء قد تكون عرضة للضرر فحسـب. وتعرقل النزعات العُصابية التصميم الـذاتي لأن الشـخص عند ذلك يكـون منقادًا بدلاً مـن أن يكون هو القائد لنفسـه. فضـلاً عن ذلك فإن قابلية مريـض العُصاب في تقرير مساراته الشخصية يضعف باستمرار بسبب اعتماده على الناس مهما كانت الصـورة التي يتخذها هذا الاعتـماد، فالتمرد على نحو أعمىً أو التـوق إلى الإبداع غير المتبصر والحاجـة الملحة على نحو لا يقبل التمييز إلى البقاء بعيدًا عن الآخرين تؤلف كلها أنواعًا من الاعتماد. كـما أن ما يعطلّهـا عن العمل كذلـك هو كبت قطاعات واسـعة من الطاقـة العاطفية. كل هـذه العوامل تجعل من المسـتحيل عليه تقريبًا أن يطـوّر أهدافه الخاصة. أخيرًا وليس آخرًا يجعله الصراع الأسـاس منقسـمًا على نفسه في دخيلة ذاته. لذلك يتعين على مريض العُصاب ولأنـه محـروم هكـذا من أسـاس حيـوي جـدًا أن يضخِّم إحسـاسـه بالأهمية والقوة. ولهذا السبب فإن إيمانه بقدرته الكلية يشكل عنصرًا فعالاً من عناصر الصورة المثلى بصورة دائمة.

هنـاك وظيفة ثانيـة ترتبط ارتباطًـا وثيقًا مع الوظيفـة الأولى. إن مريـض العُصاب لا يشـعر أنه ضعيـف ضـمن فراغ بـل في عالم مليء بأعداء مسـتعدين لخداعه ولازدرائه ولاستبعاده ولإيقاع الهزيمة به. لهذا السـبب يتعين عليه أن يزن ويقارن نفسه باستمرار مع الآخرين، لا من أجل أسباب تتعلق بغرور أو نزوة بل بسبب من الحاجة الماسّة ولكونه يشـعر في قرارة نفسـه بالضعف والهوان، كما سنرى فيما بعد، فيتعّين عليه أن يبحث عن شيء ما يجعله يحسُّ بأنه أفضل وأكثر قيمة مـن الآخريـن. إن كان ذلـك يتخذ هيئة الإحسـاس بأنـه أكثر ورعًا أو أكثـر طيشًـا أو أكثـر حبّـا أو مراوغة فإنـه يتعين عليه أن يشـعر في عقلـه الخاص الباطن بأنه أرفع منزلة بطريقة ما وبغض النظر عن أي دافع خاص نحو الإبـداع. مثل هذه الحاجة تخفي في أغلب الأحوال عنـاصر الرغبـة في الانتصار على الآخرين؛ ومهـما كانت بنية مرض العُصاب فهناك دومًا قابلية لسرعة الانفعال واسـتعداد للإحسـاس بأنـه يُحتقر ويُزدرى. قد يبذل الجهد من أجل حاجة الانتصار الثأري باعتباره بلسـمًا يداوي الإحسـاس بضآلة الشـأن أو قد يوجد أساسًا في ذهن مريض العُصاب الخاص شـعوريًا أو لا شـعوريًا، لكنه يمثل إحـدى القـوى الدافعـة ضمن الحاجـة العُصابيـة من أجـل التفوق ويضفـي عليهـا صبغته الخاصة. لا تؤدي روح المنافسـة التي تتصف بها هذه الحضـارة إلى تعزيز أمراض العُصاب عمومًا فحسـب ومن خـلال الاضطرابات التي تخلقها في العلاقات الإنسـانية لكنها أيضًا تغذي الحاجة إلى الترفع مسـبقًا.

لاحظنـا كنقاد كيف تعـوّض الصورة المثلى عن الثقة الشـخصية بالـذات وعـن الفخـر الحقيقـي. غـير أنـه مـا زال هناك سـبيل آخر تسـتخدم من خلاله بصفتهـا كبديل. ولكون مُثُـل مريض العُصاب متناقضـة فلا يحتمل أن تسـتطيع اكتسـاب قوة ملزمـة فتظل غامضة وغير محدودة وليس بوسـعها أن تمنحه أية هداية. من هذا المنطق، لو لم يكن ذلك بسـبب مسعاه في أن يكون معبودَ ذاته الذي خلقه بنفسه والـذي أضفى علـى حياته نوعًا من المغزى، فلسـوف يشـعر أنه بلا هدفٍ كليًا. يبدو هذا على نحوٍ جلي أثناء تحليل النفس بشكل خاص حينـما تجعلـه الإطاحة بالصورة المثلى يحس لبعـض الوقت أنه ضائع تمامًـا. فيـدرك حينذاك فقـط تخطيه بشـأن المُثُل ويبدأ هـذا في إعطائه الانطباع بأنه امرؤ غير مرغوب فيه. كان الأمر برمّته قبل ذلك خارج نطـاق إدراكه واهتمامه، ومهما منحه من اهتمام ضئيل فهو يدرك الآن لأول مـرة أن للمُثُل بعض المغزى وهو يريد أن يكتشـف ما هي مُثُله الشـخصية فعـلاً. إن هذا النوع مـن التجربة، كما ينبغـي أن أذكر هو دليـل علـى أن الصـورة المثلى تعوّض عـن المُثُل الأصليـة. ويمتلك إدراك هذه الوظيفة أهمية بالغة بالنسـبة للعـلاج. فقد يبّين المحلل في مرحلة مبكرة التناقضـات المتوافرة في مجموعة قيّمة غير أنه لا يستطيع أن يتوقع أي اهتمام بنّاء بهذا الموضوع ومن هنا فهو لا يستطيع المثابرة على ذلك حتى تكون الصورة المثلى قد أمست عديمة الأهمية.

من الممكـن اعتبار إحدى وظائف الصورة الخاصة مسـؤولة عن

صلابتهـا بدرجة أكبر من أية وظيفة أخرى من وظائفها. إذا كنا نرى أنفسـنا في مرآتنا الشخصية كنماذج للفضيلة أو الذكاء فإن أشد أخطائنا وأقواها ستختفي أو ستكتسب صبغة جذابة، تمامًا كما يكون ذلك في لوحة رسـم ممتازة فالجدار البالي الآيل للسـقوط لا يبـدو جدارًا باليًا مائلاً للسـقوط بـل تكوينًا جميلاً من القيم اللونيـة البنية والرصاصية المشوبة بالألوان الحمراء.

بوسعنا أن نتوصل إلى فهم أعمق لهذه الوظيفة الوقائية إذا تقدمنا بسـؤال بسـيط: ما الذي يعتبره المـرء أخطاءً وعيوبًـا؟ هذا واحد من تلكـم الأسـئلة التـي يبـدو لأول وهلة أنهـا لا تؤدي إلـى أي مكان لأن المـرء يبدأ في التفكير باحتـمالات لا حصر لها. ومع ذلك فهنالك جـواب ملمـوس. إن ما يعتبره المـرء أخطاءه وعيوبـه يعتمد على ما يقبلـه أو يرفضه في ذاتـه. ذلك يقرر ضمن ظـروف حضارية متماثلة وبواسـطة أحـد جوانـب الصراع الأسـاس التي تتسـلط، فـلا يعتبر النمـط المطاوع مخاوفه أو عجزه على أنه شـائبة أو عار يتعين عليه أن يخفيه عن نفسـه وعـن الآخرين. يعتبر المطاوع أفـكاره العدائية على أنها ارتكاب للمعاصي؛ ويعتبر النمط العدواني أحاسيسـه التي تتميز برقة أكبر على أنها ضعف مشين. ويساق كل من النمطين إلى رفض كل ما هو في الواقع مجرد ادعاء من جانب ذاته الأكبر قبولاً. ويضطر النمط المطاوع، مثلاً، إلى رفض حقيقة كونه ليس شخصًا محبًا أصيلاً أو كريمًا فعلاً؛ أما النمط المنعزل فهو لا يريد أن يرى أن استعلاءه أمر

لا ينطلق من محض اختياره الحر فهو يجب أن يبتعد لأنه لا يستطيع التعامل مع الآخرين، وهكذا. وكقاعدة، كلاهما يرفضان النزعات السادية (التي ستناقش فيما بعد). وهكذا نتوصل إلى الاستنتاج بأن ما يعتبره عيبًا ويُرفض، هو ما لا ينسجم ضمن الصورة الثابتة التي خلقها الموقف السائد تجاه الآخرين. نستطيع القول أن الوظيفة الوقائية للصورة المثلى تتمثل في أنها تنفي وجود الصراعات ولهذا السبب يجب بالضرورة أن تظل ثابتة وراسخة. قبل أن أدرك ذلك كنت في الغالب أتساءل لِمَ يبدو مستحيلاً على المريض أن يتقبل نفسه على أنها ذات شأن أدنى نسبيًا وأقل رفعةً. لكن الجواب يتضح إذا نظرنا عبر هذا المنظار. ليس بوسع المريض أن يتزحزح بوصةً واحدة لأن الاعتراف بعيوبٍ معينة سيضعه وجهًا لوجه أمام صراعاته وبذلك يعرض للخطر الوفاق المصطنع الذي كان قد أشاده. لذلك نستطيع التوصل إلى أن هناك ارتباطًا موجبًا بين شدة الصراعات وتصلب الصورة المثلى. وتتيح لنا الصورة المتصلبة المعقدة أن نستنتج وجود صراعات مقلقة بصورة استثنائية.

إضافة إلى الوظائف الأربع التي أشير إليها ما زالت الصورة تمتلك وظيفة خامسةً ترتبط مثلها بالصراع الأساس. إذ إن للصورة استخدامًا إيجابيًا أكثر من مجرد إخفاء معالم الصراع غير المقبولة. فهي تمثل نوعًا من الإبداع الفني الذي تبدو فيه الأضداد مصطلحة مع نفسها ولا تثابر على الظهور بمظهر الصراعات بالنسبة للفرد

ذاته. وسترينا أمثلة قليلة كيف يحدث هذا. سوف أعدد الصراعات المتوفرة فقط كي نتجنب التفاصيل الطويلة وأُبيّن كيف ظهرت في الصورة المثلى.

كانت السمة المتسلطة على صراع الشخص، هي المطاوعة ولديه حاجة ضخمة من أجل الحنو والاستحسان وأن يؤخذ بيده وأن يكون عطوفًا وكريمًا ومتفهمًا ومحبًا. وكانت العزلة تأتي بالمرتبة الثانية من الأهمية مصحوبة بالتوق المعتاد إلى الانخراط في سلك الجماعات والتأكيد على الاستقلال والخوف من الالتزامات والتجسس ضد الإكراه. كما تقاربت العزلة دائمًا مع الحاجة إلى الألفة الإنسانية وكانت تخلق اضطرابات متكررة في علاقاته مع النساء. كذلك كانت الدوافع العدوانية بارزة جدًا، متمثلة في كونه يجب أن يكون الأول في أية حال وفي التسلط على الآخرين بشكل غير مباشر واستغلالهم أحيانًا دون أي تسامح مع أي تدخل في شؤونه. ولا شك أن هذه الميول قد سلبت جزءًا كبيرًا من استعداده للحب والمودة واصطدمت كذلك مع عزلته. وبدون وعي منه بهذه الدوافع كانت قد خلقت صورة مزيفة مثلى تمثلت في تكوين ثلاث صور. كان هو الحبيب والصديق العظيم ومن غير المعقول أن يكون بوسع أيّ امرأة أن تعشق رجلاً آخر أكثر منه، إذ لم يكن هناك أي شخص يماثله في شدة عطفه وطيبته كما كان هو. لقد كان هو القائد الأعظم في زمانه وعبقريّ سياسةٍ يُحسب له ألف حساب. أخيرًا لقد كان يمثل الفيلسوف

العظيم ورجل الحكمة وواحدًا من الندرة الموهوبة بالتبصر العميق في مغزى الحياة وعدم جدواها في النهاية.

لم تكن الصورة وهمية على وجه الإجمال، فقد كانت لديه إمكانات واسعة في كل الاتجاهات، غير أن هذه الإمكانات كانت قد رُفعت إلى مستوى الحقيقة الواقعة، لمستوى إنجاز عظيم وفريد من نوعه. وفوق ذلك، كانت الطبيعة القسرية للدوافع قد حجبت وأبدلت بإيمان في المميزات والمواهب الكامنة. فبدلاً من الحاجة العُصابية للحنو والاستحسان كانت هناك قدرة مزعومة على الحب وبدلاً من توافر دافع نحو الإبداع كانت هناك مواهب رفيعة مفترضة وبدلاً من الحاجة إلى الاستعلاء كانت هناك استقلالية وحكمة. ختامًا والأكثر أهمية كانت الصراعات قد خُتمت بالطريقة المثالية. فقد رفعت الدوافع التي تداخلت مع بعضها وحالت دون تحقيقه لأي من قدراته الكامنة في حياة الواقع إلى مملكة الكمال المطلق وبدت كجوانب متعددة متجانسة في شخصية ثَرَّة، كما عزلت جوانب الصراع الأساس الثلاث التي مَثّلتها ضمن الأنماط الثلاثة التي كونت صورته المثلى.

يجسد لنا مثال آخر بوضوح أكثر أهمية عزل العناصر المتصارعة. كانت العزلة هي النزعة السائدة في حال الشخص «ب» بصورة تقترب من التطرف مع كل ما يرافقها من نتائج وصفت في الفصل السابق. كان ميله للمطاوعة أيضًا بارزًا جدًا رغمًا عن أن «ب» نفسه

كان قد أوصد دونه باب وعيه لأنه كان يتعارض مع توقه الشديد للاستقلال. أحيانًا، كانت تنطلق عبر درع أحاسيسه المكبوتة جهودٌ نحو خير منقطع النظير. وكان الحنين إلى الألفة الإنسانية ملموسًا وكان يصطدم مع عزلته باستمرار. إنه يستطيع أن يكون اعتدائيًا متهورًا في مخيلته فحسب.

كان ينغمس في أحلام يقظة تتعلق بالتدمير الجماعي متمنيًا بصراحة تامة قتل كل أولئك الذين تدخلوا في حياته، وكان يُصرّح أنه يؤمن بشريعة الغاب وبالإنجيل الذي يذكر أن القوة تعني الحق مع ركضها الطائش وراء مصلحة الذات وأنها كانت طريقة الحياة الألمعية الوحيدة وغير المرئية. كان في حياته الواقعية يقترب من كونه رعديدًا كانت تنتابه فورات من العنف في ظروف معينة.

تألفت صورته المثلى من الخليط المتنافر التالي. كان راهبًا يعيش معظم الوقت على قمة جبل لأنه قد اهتدى إلى حكمة وسكينة ليس لها حدود. كان يستطيع في أحيان نادرة أن ينقلب إلى ذئب أمعط مجرد من المشاعر الإنسانية ومصرّ على القتل. وكأنما لم تكن هذه الصفات كافيةً فكان أيضًا الصديق والحبيب الأمثل.

نلاحظ هنا إنكار وجود النزعات العُصابية بالذات: فتعظيم الذات هو نفسه والخطأ نفسه في اعتبار الإمكانات الكامنة حقائق واقعية. في هذا المثال لم تكن قد جرت أية محاولة للتوفيق بين الصراعات لذلك تبقى التناقضات. غير أنها تبدو صافية ومركزّة

على نقيض مع حياة الواقع. وهي لا تتدخل مع بعضها لأنها منعزلة. ويبدو أن ذلك هو ما يهم إذ إن الصراعات، كصراعات، كانت قد اختفت.

نقدم هنا مثالاً أخيرًا عن صورة مثلى أكثر تناغمًا: كانت النزعات العدوانية عند «ز» تهيمن بقوة ومترافقة بميول سادية. كان متسلطًا ميّالاً إلى الاستغلال. كان يشق طريقه بتهور نحو الأمام مساقًا بطموح عارم. كان بوسعه أن يخطط وينظم ويقاتل وكان يتمسك شعوريًا بشريعة غاب لا محاباة فيها. كذلك كان شديد العزلة غير أنه لم يكن بوسعه المحافظة على استعلائه لأن دوافعه العدوانية كانت توقعه دائمًا في مجابهة مع مجاميع من الناس. غير أنه حافظ على حيطته المتزمتة في ألّا يتورط بأية علاقة شخصية أو أن يسمح لنفسه بأن تتمتع بأي شيء يساهم الناس فيه بصفة أساسية. كان ينجح في ذلك بكل معنى الكلمة لأن مشاعره تجاه الآخرين كانت مقموعة بشكل عظيم وكانت مشاعره التواقة نحو الألفة الإنسانية الحميمة قد حصرت أساسًا ضمن مجرى اهتمامات جنسية. كان هناك ميلٌ واضحٌ في المطاوعة مصحوب بحاجة من أجل الاستحسان تداخلت مع توقه الشديد للقوة. وكما وجدت لديه مقاييس طُهرية كامنة في الأعماق تتخذ بصورة رئيسة كسوط لإرهاب الآخرين. لم يكن ليسعه بالطبع غير تطبيقها على نفسه كذلك وحيث كانت تصطدم مباشرة مع شريعة الغاب الخاصة به.

كان في صورتـه المثلـى الفـارس في دروعـه البراقـة والصليبي ذا النظرة الشـاملة الصائبة والملاحِق للحق أبدًا. وكما هي خصلة القائد الحكيـم لم يكـن مرتبطًا شـخصيًا بأحـد ولكنه كان يقتـضي انضباطًا صارمًـا مـن الجميع ولـو اتصف هـذا بالعدالة. كان نزيهًـا بلا نفاق. لقد أحبته النسـاء وكان بوسـعه أن يكون عاشقًا عظيمًا غير أنه لم يكن متعلقًـا بأيـة امرأة. في هـذا الموضع يحقق الهدف نفسـه كـما تحقق في الأمثلة الأخرى إذ تأتلف عناصر الصراع الأساس.

لذلـك، تؤلـف الصـورة المثلى محاولـة في حل الصراع الأسـاس ومحاولة تكتسـب أهمية عظيمة على أقل تقدير مثل أهمية المحاولات الأخـرى التي كنا قد وصفناها. إنهـا تمتلك الأهمية الموضوعية الهائلة في كونهـا تمثل رباطًا يربط أجزاء شـخص منقسـم علـى ذاته بعضها بالبعض الآخر. كما أنها تضفي تأثيرًا حاسمًا على علاقاته مع الآخرين رغمًا عن كونها تعشش في ذهن الشخص وحده.

ربما يمكن أن تُسـمّى الصـورة المثلى بالـذات الوهمية أو الذات المخادعـة، لكـن ذلـك سـيمثل نصـف الحقيقـة فقـط، ومـن هنـا فسـيكون ذلك مضللاً. إن أفكار التمني التي نشـتهيها تلفت النظر حقًا،خصوصًـا لأنهـا تحـدث عند أشـخاص هـم من نـواحٍ أخرى يقفـون علـى أرصفـة واقعيـة صلبـة. غير أن هـذا لا يحيلهـا وهمية كليًـا. فهي مخلوق خيالي نسـجته وصممته عوامـل واقعية جدًا، كما أنهـا في حقيقتها تضـم آثارًا من مُثُل الشـخص الأصلية. فبينما تكون

المنجـزات العظيمـة وهمية تكون القـدرات الدفينة تحتهـا حقيقة في الغالب.

و ممـا هو أكثر صلة بالأمـر، أنها تتولد عن حاجات باطنية حقيقية جـدًا، وهي تؤدي وظائف حقيقية تمامًـا، كما أنها تمتلك تأثيرًا حقيقيًا بالغًا على مبتدعها. تتقرر العمليات المسببة في خلقها من قبل قوانين محدودة، يتيح لنا الاطلاع على قسـماتها الخاصة أن نكوّن استنتاجاتٍ دقيقةً فيما يتعلق ببنية شخصيتها الفعلية لدى الشخص المعين.

لكن الصورة المثلى بالنسـبة للشـخص العُصابي نفسه تمتلك قيمة واقعيـة بغض النظـر عن مقدار الوهم الذي نُسـج فيها. وكلما كانت وطيدة الأسـاس كلما بدا لـه بأنها صورة ذاته المثلـى بينما تُحجب ذاته الحقيقيـة. إن قلب الصورة الحقيقية هذا رأسًـا على عقب من المحتم أن يحـدث بسـبب طبيعة الوظائف نفسـها التي تكـوّن هذه الصورة. تهـدف كل وظيفة فيها إلى طمـس معالم الشـخصية الفعلية وتوجيه الأضـواء الكاشـفة نحـو ذاتهـا، بعـد إعـادة النظـر في سـير كثير من المرضـى نظـن أن بناءها كان ومـا يزال في الغالب إنقـاذًا للحياة بكل معنـى الكلمة، ولذلك السـبب تكـون المقاومة التـي يتبناها المريض إن هوجمـت صورتـه مـبررة أو علـى الأقل منطقيـة كليًا. لأنـه طالما تظل صورته حقيقية وسـليمة بالنسـبة له فإن بوسعه أن يشعر بأهمية الشـأن والتفوق والتناغم رغمًا عن الطبيعة الخادعة لهذه الأحاسيس. بإمكانـه حينئـذ أن يعتبر نفسـه مخـوّلاً لأن يتقدم بكل أنـواع الأوامر

والادعاءات على أساس تفوقه المزعوم. غير أنه إذا سمح للصورة أن تقوض فسيكون مهددًا مباشرة باحتمال مواجهة كل ضعف فيه دون أن يمتلك أي حق في مزاعم خاصة؛ وسيكون شخصًا بلا قيمة حتى في مرآة نفسه ذاتها. ولا يزال هناك ما هو أشد رعبًا حيث أنه سيواجه صراعاته كما سيواجه خوفًا بشعًا يتمثل في أنه سيتقطع إربًا إربًا. ولكن هذه العملية ربما تمنحه فرصة كي يصبح مخلوقًا إنسانيًا أفضل كثيرًا وله قيمة تزيد على كل أمجاد صورته المثلى. ذلك يمثل حكمة يصغي إليها لكنها لا تعني له شيئًا لفترة طويلة إذ تمثل قفزةً في الظلام يخشاها.

سيكون مركز الصورة غير قابل للاقتحام نظرًا لتمتعه بقيمة موضوعية عظيمة جدًا إن لم يكن ذلك بسبب العوائق التي لا تنفصل عنه. ويكون الصرح بكامله واهنًا جدًا بسبب العناصر الوهمية التي يشتمل عليها. ولكونه يمثل مخبأ كنز مليئًا بالمتفجرات مما يجعل الفرد شديد الحساسية بالنسبة للتهجمات بصورة كبيرة. إنّ أي تساؤل أو نقد خارجي وأي اطلاع على فشله الشخصي في الارتفاع إلى مستوى الصورة وأي استقرار للقوى الفاعلة في سريرته يمكن أن يجعلها تنفجر أو تنهار. إذًا يجب أن ينظم حياته كي لا يتعرض لمثل هذه المخاطر. يجب أن يتحاشى الأوضاع التي قد لا تشير إليه بالإعجاب أو التميّز. يجب أن يتجنب المهام التي لا يثق تمامًا بأنه يجيدها. وقد يتطور لديه نفور شديد نحو القيام بأي

جهـد من أي نوع. إن مجرد تخيل لوحة قد ساهم برسمها ستمثل عندئذٍ التحفة الرائعة. إن بوسـع أي شخص متواضع أن يصل إلى موقع معروف بالعمل الجاد أما بالنسبة له فإن قيامه ببذل جهدٍ كأي شـخص عادي مثل «تـوم» أو «دِك» أو «هاري» سيعني إقرارًا بأنه لا يمثل العقل الفذ وسيكون ذلك مدعاة لـلازدراء تمامًا. ولأنه لا يمكـن أن يحقق أي شيء فعلاً دون جهد فسيهزم بموقفه هذا ذات الأهداف التي يُساق من أجل الفوز بها. فتتسـع الهـوة بين صورته المثلى وصورته الحقيقية.

إنـه يعتمد على التطمين المتواصل مـن الآخرين الذي يجيء بهيئة استحسـان أو إعجاب أو رياء، ولكن ليس بوسع أي منها، على كل حال، أن يوفر له أكثر من ارتياح مؤقت وهو لا شعوريًا قد يمقت كل مـن يتصف بكونه أكثر تحملاً أو من يتصف بأية طريقة بكونه أفضل منـه أو أكثـر ثقة أو أكثـر اتزانًا أو أكثـر اطلاعًا، لأنه يهـدد بتقويض انطباعاتـه الشـخصية عن ذاتـه؛ وكلما تشـبث بقوة في الاعتقـاد بأنه صورة ذاته المثلى كلما كان الحقد لديه أشـدّ عنفًا. وإذا حدث أن قمع غروره الخاص بذاته حينها قد يعجب دون رويّة بأشـخاص يقتنعون صـراحة بأهميتهم، وسـيظهر ذلك بسـلوك متعجـرف. إنه يحب فيهم صورته الخاصة لكنه سـيجابه بخيبة أمل شديدة لا محالة حالما يصبح على وعي وذلك يحدث في وقت ما. إنّ الآلهة التي يعجب بها كثيرًا لا تبالي إلّا بنفسها فحسب ولا تهتم إلّا بالبخور الذي يحرقه في محرابها.

ربما كان أسوأ عائق هو الاغتراب عن الذات الذي ينتج عن الصورة المثلى. فنحن لا نستطيع أن نكبح أو نلغي أجزاء حيوية من أنفسنا دون أن نصبح غريبين عنها. إن هذه هي إحدى التغييرات التي تحدثها العمليات العُصابية تدريجيًا، بحيث أنها تحدث بصورة غير ملحوظة، رغمًا عن طبيعتها الجوهرية، فيمسي المرء غافلاً عما يحس به وما يحبه أو ما يرفضه أو يعتقد به، أي باختصار غافلاً عمّا عليه فعله. وقد يحيا حياة صورته دون وعي منه. إن شخصية «تومي» في قصة جي أم. باري الموسومة **تومي دكريزل** تلقي ضوءًا على هذه العملية أفضل من أي وصف سريري. بالطبع ليس بوسعنا أن نتصرف دون أن نؤثر بصورة لا خلاص منها داخل شراك عنكبوتي من الادّعاء والمنطق اللاواعي والذي يؤدي إلى حياة محفوفة بالمخاطر.

عندها يفقد الشخص اهتمامه بالحياة لأنه ليس هو الذي يحياها فلا يستطيع اتخاذ القرارات لجهله ما يريد فعلاً، وإذا ازدادت المصاعب فقد يطغى عليه إحساس بعدم الواقعية، تعبيرًا عن وضعه المستمر في كونه غير واقعي بالنسبة لذاته. كي نفهم مثل هذه الحالة يجب أن ندرك أن من المهم أن يعتمد قناع اللاواقعية التي تخلق العالمين الداخلي والخارجي. لقد لخّص أحد المرضى الحال برمتها بالقول: «لو لم يكن الأمر يرتبط بالواقع لكنت الآن على خير ما يرام».

ختامًا، رغمًا عن أن الصورة المثلى كانت قد خُلِقَت بهدف إزالة الصراع الأساس، وهي تنجح إلى حدٍ ما في ذلك، فإنها تولد

في الوقت نفسه صدعًا جديدًا في الشخصية أشد خطرًا تقريبًا من الصدع الأصلي. عمومًا يكوّن المرء صورة مثلى عن نفسه لأنه لا يستطيع أن يحتمل نفسه كما هي في الواقع. فالصورة كما يبدو تقف ضد هذه الكارثة بسبب نظرته إلى نفسه على أساس معين فهو لا يتحمل نفسه إلا قليلاً. إذ يبدأ بثورة غضب عارمة ضدها بازدرائها واقعًا تحت نير مطالبه الخاصة التي لا يمكن تحقيقها. ثم يتراوح بعد ذلك بين عبادة الذات واحتقار الذات أي بين صورته وصورته المحتقرة دون أن تتوفر هناك أرض وسيطة يستطيع الثبات عليها.

هكذا يخلق صراع جديد بين الجهود القهرية المتناقضة من جهة وبين نوع من الديكتاتورية الذاتية المفروضة بواسطة الاضطرابات الباطنية. ويكون رد الفعل تجاه هذه الديكتاتورية الذاتية شبيهًا برد فعل شخص ما تجاه ديكتاتورية سياسة مماثلة تمامًا. فقد يتعاطف معها أي يشعر بأنه رائع ومثالي فيصفه بالدكتاتور أو قد يقف على أطراف أصابع قدميه في محاولة ليكون بمستوى متطلباتها أو قد يعلن العصيان ضد الإكراه ويرفض الاعتراف بالالتزامات المفروضة قسرًا. فإذا كان رد فعله بالطريقة الأولى فسندرك بأنه شخص «نرجسي»، لا ينال منه النقد لذلك فالصدع القائم لا يتم الإحساس به على أنه صدع بصورة واعية. لدينا في المثال الثاني شخص ينزع إلى الكمال من صنف الـ «أنا» العليا لدى فرويد. ويبدو الشخص في المثال الثالث لا يعير اعتبارا لأي فرد أو لأي شيء وهو يميل

إلـى كونه سريـع الانفعال، متهورًا وسـلبيًا، إنني أتحـدث برويّة عن الانطباعـات والمظاهـر لأنه مهما كان رد فعله فهو أساسًـا سـيواصل كونـه مقاومًـا. وحتى النمط الثائر الذي يعتقد بأنـه «حر» عادة، فإنه يـرزح تحت عـبء القيـم المفروضة والتـي يحـاول الآن الإطاحة بها رغمًا عن كونه لايزال أسـيرًا في قبضة صورته المثلى والتي تظهر فقط مـن خلال تذكيره بتلك القيم كسـوط يرفعه فوق رؤوس الآخرين. أحيانًـا، يمر أحد الأشـخاص بفترات من التذبـذب وكأنه واقع بين طـرفي نقيض. ربما حاول بعض الوقت أن يكون «خيّرًا» مثلاً بصورة ترقى عن قدرة البشر، ونتيجة فشـله في الحصول على أية سـلوى من جراء ذلـك قد ينقلب إلى الطـرف المضاد المتميز بالعصيان الشـديد. علـى مثل هذه المقاييس. أو ربما ينتقل من عبادةِ ذاتٍ تتصف ظاهريًا بعـدم التحفظ إلى نزعة نحو الكمال. نجد في الغالب خليطًا من هذه المواقـف المتنوعة. وتشـير جميعها إلـى حقيقةٍ يمكـن فهمها في ضوء نظريتنـا. إن أيًا من هذه المحـاولات لا يفيد، فهي محكومٌ عليها جميعًا بالفشـل، وإننا يجب أن نعتبرها جهـودًا للخروج من مأزق لا يطاق؛ وقد تجرّبُ أشـدّ الوسـائل تضاربًا كما هو الأمر في أية حال أخرى لا تطاق، فإن فشلت إحداهما فقد يلجأ إلى الأخرى.

تنضـمُّ كل هـذه المحصلات مع بعضها لتقيـم حاجزًا ضخمًا ضد التطور الصحيح. وليس بإمكان الشـخص أن يتّعظ من أخطائه لأنه لا يراهـا. وهو يتجه في الواقـع نحو فقدان الاهتمام بنموّه الذاتي رغمًا

عـن تأكيداته على عكس ذلك. إن ما يضطرم في ذهنه حينما يتحدث عن النمو هو فكرة غير شعورية لإيجاد صورة مثلى أكثر كمالاً، صورة ستكون خالية من المثالب.

لذلـك، تتمثـل مهمـة العـلاج النفـسي في اطـلاع المريـض على صورتـه المثلى بـكل تفصيلاتهـا بغية معاونتـه تدريجًا علـى فهم كل وظائفها وقيمها الذاتية ومن أجل شرح ما تتضمنه من معاناة لا مفر منهـا. بعد ذلك سـيبدأ بالتسـاؤل عن ذلك الثمـن الباهظ جدًا. غير أنّ بوسـعه أن يتخلى عن الصـورة فقط حينما تضعف الحاجات التي خلقتها بشكل كبير.

الفصل السابع

التخريج

كنا قد شاهدنا كيف أن جميع الادعاءات التي يلجأ إليها الشخص العُصابي كي يردم الفجوة الكائنة بين ذاته الحقيقية وصورته المثلى، تقوده في النهاية إلى اتساع تلك الفجوة. لكنه بسبب احتفاظ الصورة بمثل تلك الأهمية الهائلة عليه أن يواصل محاولته في مهادنتها بصورة مطّردة. إن الطرق التي يسلكها من أجل ذلك متنوعة جدًا. وسيناقش الكثير منها في الفصل القادم. أما هنا فسوف نقتصر على البحث في إحداها وهي أقل انتشارًا من الأخريات وعلى التأثير الذي تتركه على بنية مرض العُصاب الحاد بشكل خاص.

حينما أُسمي هذه المحاولة **بالتخريج** فإنني أعرّف الميل إلى تجريب العمليات الباطنية كما لو أنها حدثت خارج ذات المرء واعتبار تلك

العوامـل الخارجية مسـؤولة عن مصاعب المرء. إن عملية التخريج هذه تشـترك مع الفكرة المثالية في هدف الهروب من الذات الحقيقية. بينـما تظـل عمليـة التزويق وإعـادة خلق الشـخصية الحقيقيـة كما لو كانـت ضمـن دخيلة النفـس. إن التخريج يعني هجـر منطقة الذات تمامًا. لكي نعبر عن ذلك ببسـاطة فإن الشـخص قادر أن يتحول من صراعـه الأسـاس إلى صورته المثلـى، غير أنه عندمـا ترتقي الفروق بـين الذات الحقيقيـة والذات المثلى إلـى نقطة تكون فيهـا التوترات غير قابلة للاحتمال فلن يكون بوسـعه حينئذٍ اللجوء لأي شيء آخر. والأمر الوحيد الذي يبقى حينئذٍ هو أن يتهرب المرء من ذاته كليًا وأن يرى كل شيء كما لو أنه كائن خارجها.

إن بعضًـا مـن الظواهـر التـي تحـدث هنا يمكـن تسـميتها بتعبير الإسـقاط المرحـلي الـذي يعني تجسـيد المصاعـب الشـخصية. يعني الإسقاط كما هو مستخدم بصورة شائعة إلقاء اللوم والمسؤولية على شـخص آخـر يتعلق بالصفـات والنزعـات المرفوضة شـخصيًا مثل الارتيـاب في الآخرين ببعض مـا لدى الأفراد من الميول الشـخصية كالخيانـة أو الطمـوح أو التسـلط أو العصمـة الذاتيـة عـن الخطأ أو الاعتـدال أو غيرها مـن الصفات، عندئذٍ يكون التعبـير مقبولاً تمامًا ضمن هذا المعنى. إن التخريج ظاهرة شـمولية وانتقال المسؤولية هو مجرد جزء منها. إذ لا تُنسب أخطاء المرء للآخرين فقط بل تنسب إلى حدٍ ما إلى كل المشـاعر مهما كانت درجتها. قد يشـعر الشخص الذي

يميـل إلى التخريج بقلق عميق بسـبب الاضطهـاد الذي تتعرض له الأقطار الصغيرة بينما هو لا يعي مدى إحساسه هو بالاضطهاد. وربما لا يحس بقنوطه الشـخصي لكنه سيشـعر به انفعاليًا لـدى الآخرين. إنّ مـا يشـكل أهمية استـثنائية في هذا المجال هو أنه غـير واعٍ بمواقفه الشـخصية تجـاه ذاته، فهو سيشـعر مثلاً وكأنّ شـخصًا آخر غاضبٌ منه حينما يشـعر هو بالغضب من نفسه. أو أنه سيحس بالغضب تجاه الآخريـن والذي يوجهه في الواقع نحو ذاته. إضافة لذلك فلن يعزو اضطراباته فحسـب بل أمزجته ومنجزاته الجيـدة إلى عوامل أخرى خارجيـة. بينما سـينظر إلى إخفاقاتـه على أنه قدر مكتوب وسـوف تعـزى نجاحاتـه لظـروف مواتية كما سـيعزو ابتهاجه هـذا للطقس، وهكذا.

عندمـا يحـس أحد الأشـخاص بـأن حياتـه خـيرًا كانـت أم شرًا تتحـدد من قبـل الآخرين، فمن المنطقي أن ينهمـك تمامًا في تغييرهم وإصلاحهم أو معاقبتهم أو حماية نفسه من تطفلهم أو التأثير عليهم. بهـذه الطريقة يمهد تخريجه هـذا للاتكال على الآخرين اتكالاً مغايرًا جدًا لذلك الذي خلقته الحاجة العُصابية للحنو. كذلك يمهد للاعتماد المفرط على الظروف الخارجية. وذلك لايعني أية أهمية استـثنائية إذا كان الشخص وسط المدينة أو في الضواحي وإذا كان يحافظ على هذه الحميـة أو تلك وإذا كان يذهب إلـى النوم مبكرًا أو متأخرًا وإذا كان يعمل ضد هذه الهيئة أو تلك. وهكذا يتصف بمميزات يدعوها يونغ

بالانبساط. وإذ يعتبر يونغ الانبساط على أنه تطور من جانب واحد يتعلق بنزعات موروثة بنيويًا فإنني أعتبرها حصيلة لمحاولة القضاء على الصراعات غير المصرَّفة عن طريق التخريج.

إن إحدى النتائج المحتومة الأخرى للتخريج هي الإحساس الطاحن بالفراغ والضحالة.

و هذا الإحساس لا يوضع في موضعه الملائم. فبدلاً من أي يكون الإحساس بالفراغ العاطفي بصفته الواضحة، يُحِسُّ به الشخص على أنه خواء في معدته ويحاول أن يتخلص منه بإجبار نفسه على الأكل. أو ربما يخشى أن فقدانه لثقل وزنه الجسدي قد يدفعه ليصبح «ريشةً في مهب الريح» فيشعر أن أية عاصفةٍ قد تطوِّح به بعيدًا. وربما يتصور أنه مجرد قشرة خاوية. وكلما كان التخريج أكثر تغلغلاً خُيِّل للشخص العُصابي أنه صار مثل طيفٍ قابلٍ للانجراف مع التيار.

يكفينا هذا القدر مما تعنيه هذه العملية ودعنا نتفهم الآن كيف تعمل هذه بشكل خاص على تهدئة التوتر بين الذات والصورة المثلى. وكيفما نظر الشخص إلى ذاته شعوريًا فإن التباين بين الصورتين سيقتضي ثمنًا باهظًا لا شعوريًا، وكلما كان الشخص قد نجح في مطابقة نفسه مع الصورة ازداد رَدُّ فعله اللاواعي عمقًا. ويعبر عن هذا في الغالب بصورة احتقار للذات أو إثارة غضب عارم ضد الذات أو شعور بالإكراه وهذه لاتكون جميعًا مؤلمة بشدة فحسب بل هي تُحِدُّ أيضًا من قابلية الشخص على أن يحيا بمختلف الطرق.

قـد يتخـذ تخريـج احتقـار الـذات صـورة ازدراء الآخريـن أو الإحســاس أن الآخريــن هــم الذين يــزدرون الشــخص. تتوفر كلتا الصورتـين عـادةً، وأيهما يكون أكثر بـروزًا أو على الأقـل أكثر وعيًا يعتمد ذلك على التركيب الكامل لبنية الشـخصية العُصابية برمتها. وكلما كان الشــخص أكثر عدوانًا شـعر بأنه أكثر تفوقًـا وأكثر صوابًا وصـار أكثر اسـتعدادًا لاحتقار الآخرين وبالتـالي كان الاحتمال أقل في تصــوره أن الآخرين قد يتعالون عليـه. وعلى عكس ذلك، فكلما كان أكثر مطاوعة كانت اتهاماته لذاته من جراء فشله في الصعود إلى مسـتوى صورته المثلى أكثر ميلاً لإشـعاره بأن الآخرين لا يحتاجون إليه. إن تأثير الفكرة الأخيرة مؤذٍ لدرجة شديدة. فهو يحيل الشخص خجولاً ومتكلفًا ومنعزلاً، شـاعرًا بالامتنان وربما بشيء من الإذلال تجاه أي نوع للحنان أو التقدير. في الوقت عينه ليس بوسـعه أن يتقبل حتى المودة الخالصة بصفتها المجردة بل يعتبرها نوعًا من البِر الذي لا يسـتحقه. فقد يستحيل إلى شخص مجرد من الحماية ضد الأشخاص المتعجرفين لاضطراره لمسـايرته جزءًا منهم، كما يشـعر أن معاملتهم باحتقار له هي في محلها تمامًا. لا شـك أن ردود فعلٍ كهذه تولد غيظًا وإذا كبِتت وتراكمت فقد يستجمع قوة متفجرة.

مـع كل هذا فقد تمتلك تجربة احتقـار الذات بصورتها التخريجية أهميـة شـخصية جلية. فقـد يحطم الشـخص العُصابي مـا عنده من الثقـة الضئيلة بالنفـس، ويقترب من حافة الانهيار لو شـعر بجميع

ما يختزنه من احتقار ذاتي. من المؤلم حقًا أن يكون المرء محتقرًا من قبل الآخرين المتحيزين. حينما يوجه المرء احتقاره نحو ذاته، فإن كل تلك الدفاعات لا تجدي نفعًا، فليست هناك محكمة استئناف فالقنوط الذي يحس به الشخص العُصابي سيبرز لا شعوريًا نحو ذاته بصورة مجسدة ولن يبدأ باحتقار مواضع ضعفه الحقيقية فحسب، بل سيجد الشعور بأنه محتقر بصورة عامة. لهذا السبب ستنجرف مميزاته الجيدة ذاتها نحو هاوية إحساسه بانحطاط الشأن، وبعبارة أخرى سيشعر باحتقار الذات وسيراها حقيقة ثابتة لن تتغير مطلقًا. هذا يؤشر إلى تأجيل الخوض في مسألة احتقار الذات أثناء عملية العلاج حتى يتضاءل فيه قنوط المريض وترتخي قبضة الصورة المثلى الممسكة بخناقه بشدة. عندئذٍ سيكون المريض قادرًا على مواجهتها مدركًا أن ضآلة قيمته ليست حقيقة موضوعية بل إحساس ذاتي ينبع من معاييره القاسية. سيرى عند اتخاذه موقفًا أكثر تساهلاً مع نفسه، بأن الحال ليست أمرًا لا يقبل التغيير وأن الصفات التي يعترض عليها بشدة ليست جديرة بالازدراء بل هي مصاعب يستطيع تذليلها في النهاية.

لن نفهم إحساس الشخص العُصابي بالغيظ من نفسه أو الأبعاد التي يتقمصها ما لم نحتفظ في أذهاننا كم هو مهم بالنسبة له أن يظل واهمًا في تصوّره أن ذاته هي المثالية. إن الحقيقة في كونه لا يحس بالقنوط بسبب عجزه عن الارتقاء إلى مستواها فحسب بل في كونه

ساخطًا عليها، يرجع إلى إحساسه بالقدرة الكلية التي تكوّن له ميزة ثابتة من مميزات صورته المثالية. ومهما كانت الظروف المعاكسة له قوية لا تقهر أثناء مرحلة الطفولة فإنه، وهو المقتدر كليًا، ينبغي أن يتغلب عليها. وحتى لو أدرك ذهنيًا بأن عقده العُصابية شديدة التشابك فهو مع ذلك يشعر بغيظ مكظوم بسبب عدم قدرته على إزالة ملابساتها. يصل هذا الغيظ إلى ذروته عندما يواجه المريض الدوافع المتصارعة مدركًا ضعفه وتراجعه في تحقيق غاياته المتناقضة. إن هذا هو أحد الأسباب التي تفسر لماذا يلقي به إدراكه المفاجئ لأي من الصراعات في حال شديدة من الهلع.

يُخَرَّجُ غيظ المرء من ذاته بطرق رئيسة ثلاث. فحين يكون التنفيس عن العدوان ظاهرًا ينفجر الغضب حينئذٍ بسهولة مندفعًا نحو الخارج ضد الآخرين ويظهر إما بهيئة حِدة في الطبع عمومًا أو سخط موجه لتلك العيوب نفسها لدى الآخرين والتي يمقتها الشخص في ذاته. أحد هذه الأمثلة يُساقُ لإجلاء الفكرة. حيث اشتكت إحدى المريضات تردد زوجها بسبب أمر تافه وكان حماسها واضحًا وشديدًا. بعد الاطلاع على ترددها الشخصي أفهمتها كيف أنها أدانت في ذاتها هذا التردد. عندئذ شعرت المريضة فجأة بغيظ جنوني وبرغبة في تمزيق نفسها إربًا إربًا. إنّ حقيقة كونها تمثّل في صورتها المثلى قلعة للقوة، جعل من المستحيل عليها أن تتحمل أي ضعف في ذاتها. بوضوح كان رد الفعل هذا، وبالرغم من طبيعتها الانفعالية العنيفة فقد نُسي

كليًا في المقابلة التالية. كانت قد شاهدت التخريج بلمح البصر لكنها لما تزل على استعداد للتخلي عنه.

تتخذ الطريقة الثانية صورة خوف أو تحسب مستمر، واع أو لا واع، بأن العيوب التي لا يتحملها المرء نفسه ستثير بشدة غيظ الآخرين. فقد يكون أحد الأشخاص مقتنعًا تمامًا بأن سلوكًا محددًا من جانبه سيثير عدوانًا قويًا بحيث أنه قد يذهل حقًا إذا لم يواجه بأية استجابة عدوانية. كانت إحدى المريضات على سبيل المثال وممن احتوت صورتها المثلى عناصر من التوق الشديد إلى أن تصبح صالحة مثلما كانت صورة القس تصاب في رواية فيكتور هيجو البائسون لأنها تجد أنها متى ما وقفت موقفًا حازمًا أو عندما كانت تعبر عن غضبها فإن الناس كانوا يحبونها أكثر مما أحبوها عندما تصرفت كقديسة. وكما قد يحدث للمرء عبر هذا النمط من الصورة المثلى فإن نزعة المريضة المتسلطة كانت المطاوعة. وبسبب انبثاقها من حاجتها للألفة مع الآخرين فقد كانت نزعتها تستمد قوة إضافية من توقعها للاستجابة العدوانية. تؤلف المطاوعة المتزايدة في الحقيقة إحدى المحصلات الرئيسة لهذا النمط من التخريج، كما تفسّر لنا كيف تعزز النزعات العُصابية مع بعضها بصورة مستمرة ضمن حلقة مفرغة. فتتصاعد المطاوعة القسرية لأن الصورة المثلى التي تتضمن عناصر بهذه الهيئة تدفع الشخص نحو أكبر قدر من محو الذات. لذلك تثير الاندفاعات العدوانية غيظًا ضد الذات. ثم

إن تخريج الغيظ الذي يؤدي إلى خوف متصاعد من الآخرين، يُعزز هذه المطاوعة بدوره.

تتمثل الطريقة الثالثة في تخريج الغيظ في التركيز على الاضطرابات العضوية، فحينما لا يجرب الغيظ ضد الذات بصفته تلك فإنه يخلق توترات عضوية ذات شدة لا يستهان بها قد تظهر كأمراض معوية أو صداع أو إرهاق وهكذا. ومما يؤكد ذلك رؤيتنا اختفاء جميع هذه الأعراض بسرعة البرق حالما يستثار الإحساس بالغيظ ذاته بصورة شعورية. وقد يشعر المرء بالتردد حول تسمية هذه الظواهر العضوية بالتخريج أو اعتبارها مجرد نتائج عضوية تبرز في أعقاب الغيظ المكبوت. غير أنه قلما يستطيع المرء أن يفصل الظواهر عن الاستخدام الذي يبتغيه المرضى من خلالها. وكشيء أساس يكون هؤلاء أكثر توقًا لأن ينسبوا معضلاتهم النفسية إلى عللهم العضوية وهذه بدورها تعزى لبعض المثيرات الخارجية. وهم مولعون بالبرهنة لانتفاء علة عضوية فيهم وبأنهم يعانون من مجرد مشاكل معوية بسبب نظام غذائي خاطئ أو بسبب الإرهاق من شدة الانهماك في العمل أو لمرض الروماتيزم الناجم من رطوبة الهواء وغيرها من الأسباب.

قد يقال هنا بشأن ما يحققه الشخص العُصابي في تخريجه لغيظه الشيء نفسه الذي قيل في حالة احتقار الذات. هناك اعتبار إضافي واحد ينبغي أن يذكر وهو أنَّ الجهود التي يبذلها مثل هؤلاء المرضى لن تكون مفهومة تمامًا ما لم يكن المرء مطلعًا على المسار الحقيقي

الـذي يرتبـط باندفعـات تدمير الذات. لقـد كان لـدى المريضة التي نوّهنـا عنها في المثـال الأول اندفاع مؤقت فقط في تمزيق نفسـها إربًا، غير أن مرضى الذّهان قد ينفذون ذلك فعلاً وربما يمثلون بأنفسهم. كـما أن من المحتمـل تنفيذ عدد أكبر من حـوادث الانتحار لو لم يكن التخريـج سـببًا في منعها. وهـذا يدعونا إلى تفهم السـبب الذي دعا فرويـد لكونه على اطلاع بقـوة اندفاعات تدمير الذات إلى افتراض وجـود غريـزة تدمير الـذات أو ما يسـمى (غريزة المـوت)، رغم أنه حجـب الطريق بذلك إلى التفهم الحقيقي بالتالي إلى العلاج النفسي الفعال بهذه الفكرة.

تعتمد شدة **الإحسـاس بالإكراه الباطني** على المدى الذي تحاصر فيه الشخصية من قبل السيطرة المستبدة للصورة المثلى. قد يكون من العسير أن نبالغ في الإحاطة بمقدار هذا الضغط.

إنه أسـوأ مـن أي إكراه خارجـي لأن الأخير يسـمح بكبح جماح الحريـة الذاتيـة. ويكون المرضـى في أغلب الأحـوال على غير وعي بهذا الشـعور ولكن بوسع المرء قياس قوته من خلال ارتياحهم حالما يـزول عنهم ليحصلوا على قدر من الحريـة الذاتية. قد يخرج الإكراه من خلال فرض الضغوط على الآخرين. وبوسع هذا أن يتخذ نفس التأثير الخارجي كتوق عُصابي نحو التسـلط، غير أنه رغمًا عن وجود كليهـما معًا فإنهما يختلفان في كون الإكراه الـذي يمثل تخريجًا للضغط الباطنـي لا يمثل في الأسـاس مطلبًا من مطالب الطاعة الشـخصية.

فهو يكمن بالدرجة الأولى في فرض المقاييس ذاتها على الآخرين، كتلك التي يرزح الشخص نفسه تحت وطأتها وبالإغفال لنفسه في سبيل سعادتهم. يمثل علم النفس الصوفي شرحًا وافيًا لهذه العملية.

و بالدرجة ذاتها من الأهمية يكون تخريج الإكراه الباطني هذا في هيئة تحسس مفرط تجاه أي شيء في العالم الخارجي حتى لو كان الأمر قليل الشبه بالإكراه. وكما يعلم أي شخص دقيق الملاحظة فإن مثل هذا التحسس المفرط واسع الانتشار. لا تنبثق جميع أنواع التحسس المفرط عن الإكراه المفروض ذاتيًا. ففي الحقيقة يتوفر هناك عنصر من عناصر معاناة الفرد لدافع التسلط الخاص به والامتعاض منه. وفيما يتعلق بالشخصيات المنعزلة أساسًا بالإصرار القسري على الاستقلال الذي يصيّرها حساسة بالضرورة لأي ضغط خارجي. إن تخريج أي كبت لا واع مفروض ذاتيًا يكون مصدرًا من المصادر الخفية بشكل كبير والتي تهمل بشكل أكبر أثناء تحليل النفس. هذا أمر مؤسف لأنه يشكل في الغالب تيارًا عميقًا ومؤثرًا في العلاقة بين المريض والمحلل. من المحتمل أن يواصل المريض دحض كل اقتراح يقدمه المحلل حتى بعد إتمام التحليل لأسباب حساسيته الأكثر وضوحًا والمرتبطة بهذا الشأن. إن المعركة المدمرة المحتدمة في هذا المضمار تكون شديدة القسوة لأن المحلل يرغب حقًا أن يحدث تغييرات في المريض. كما أن تأكيده الأمين في رغبته لمساعدة المريض في استعادة ذاته لينابيع حياته الباطنية تكون قليلة الجدوى.

ألا يستسلم المريض عندها لشيء من التأثير الذي يبذل بصورة عفوية؟

تتمثل الحقيقة في أنه يجهل «ما هو عليه فعلاً» لذلك لا يكون بوسعه اختيار ما يقبله أو ما يرفضه ولن يؤدي أي مقدار من الحرص من جانب المحلل لأي تغيير. ولأنه لا يعلم بأنه ينوء تحت إكراه باطني كان قد صاغه في قالب معين فإنه قد يثور بصورة عشوائية ضد كل فكرة خارجية للتغيير. ولا حاجة للقول إن هذه المعركة غير المجدية لا تظهر في موقف تحليل النفس فحسب بل من المحتم أن تحدث بدرجة أكبر أو أقل في أية علاقة حميمة. إن تحليل هذه العملية الباطنية هو الذي سيجسد الشبح ويظهره للعيان في النهاية.

و كلما كان الشخص أميل إلى مطاوعة الحاجات الملحة لصورته المثالية كان أكثر تخريجًا لهذه المطاوعة. وسيكون تواقًا لبلوغ ما يتوقعه منه المحلل أو أي فرد- بقدر ما يتعلق الأمر بهذا - أو لما يظن أنهم يتوقعونه منه. وربما يبدو سهل الانقياد أو ساذجًا لكنه في الوقت ذاته سوف يتضاعف الامتعاض الخفي ضد هذا «الإكراه». وربما توصله المحصلة في النهاية إلى النظر إلى كل شخص باعتباره ذا دور متسلط ليكون ساخطًا على كل شيء في الكون.

ماذا يكسب الشخص إذًا من جراء تخريجه لضغوطه الباطنية؟ طالما اعتقد أنها تتأتى من الخارج فإنه يستطيع أن يثور ضدها حتى لو كان ذلك عن طريق التحفظ الذهني. وبشكل مماثل يمكنه أن

يتجنب التقييد المفروض عليه من الخارج ويمكن أن يحافظ على وهم الحرية.

غير أن ما هو أهم من ذلك العامل الذي أشير أليه آنفًا أي أنّ الاعتراف بالإكراه الباطني قد يعني الاعتراف بأنه لا يمثل صورته المثلى بكل ما تتضمنه من نتائج.

و من المسائل المثيرة للاهتمام ما يثيره الإجهاد الشديد الذي يسببه هذا الإكراه الباطني الذي يتحول إلى صورة أعراض مرضية عضوية. إن انطباعي الشخصي هو أنه عامل مساهم في أمراض الربو وارتفاع ضغط الدم وإصابة الأمعاء بالإمساك، ولكن خبرتي في هذا المجال تبدو محدودة.

بقي لنا أن نناقش ملامح التخريج المتنوعة التي تتناقض مع صورة المرء المثلى. يتحقق هذا بواسطة الإسقاط البسيط أي برؤية ذلك لدى الآخرين أو بالاعتقاد أنهم مسؤولون عنها.

ليس من الضروري أن تسير العمليات معًا. ويتعين علينا في الأمثلة اللاحقة أن نكرر أشياء معينة سبق أن ذكرناها بهذا الصدد إضافة إلى الأمور المعروفة الأخرى بشكل عام لكن الأمثلة سوف تعيننا على الوصول إلى فهم أعمق لما يعنيه الإسقاط.

كان المريض «أ» المدمن على الكحول يشكو الإهمال من خليلته. وعندما استطعت رؤيته لم تكن الشكوى مبررة ولم تقترب من حالة

كان «أ» يعنيها حقًا. فهو ذاته كان يعاني من صراع شديد واضح لمراقب خارجي في كونه دمث وطيب المعشر وكريم من جهة ومتسلط كثير المطالب ومتعجرف من جهة أخرى. هنا إذًا كانت حالة إسقاط لنزعات عدوانية. لكن ما الذي جعل الإسقاط ضروريًا؟ لقد كانت الميول العدوانية في صورتها المثلى مكونات طبيعية في شخصية قوية. كانت الطيبة أشد الملامح بروزًا ولم يكن من هو أكثر طيبة منه منذ أيام القديس فرانسيس كما لم يكن هناك من يمثله كصديق مثالي. إذًا هل كان الإسقاط مجرد تهدئة لصورته المثلى؟

بالتأكيد! لكن أتيح له العيش من خلال نزعاته العدوانية دون أن يكون على وعي بذلك فهو يواجه صراعاته. لدينا هنا شخص أسير مأزق شائك. إذ لم يكن بوسعه أن يُقلع عن نزعاته العدوانية لكونها ذات طبيعة قسرية كما لم يكن بوسعه أن يتخلى عن صورته المثلى لكونها سبب تماسكه. كان الإسقاط وسيلة للخروج من المعضلة. وهكذا كان الإسقاط يمثل إزدواجية غير واعية تمكنه من تطمين كل طلباته الملحة مع البقاء في الوقت ذاته كصديق مثالي.

كان المريض يرتاب أيضًا في خيانة المرأة. لم يكن هناك أي دليل يؤيد ذلك كانت المرأة تكرس نفسها لرعايته بطريقة تماثل حنوّ الأم. كانت الحقيقة تتمثل في أنه هو نفسه كان منغمسًا ببعض الصلات العابرة التي احتفظ بها في سرِّه. قد يفكر المرء بوجود خوف انتقامي ناتج عن حكمه على الآخرين عندما يقارنهم مع نفسه لذا كان

بحاجة لالتماس العذر لنفسه. كما أن التفكير في إسقاط محتمل بسبب ميول جنسية شاذة لم يساعد على جلاء الموقف. كان مفتاح الحل يكمن في موقفه الخاص تجاه خيانته هو بالذات. لم ينس علاقاته الجنسية، لكنها لم تذكر أثناء تداعي الأحداث. فهي لم تعد تجارب حية بينما كانت الخيانة المزعومة للمرأة تبدو جلية جدًا. إذًا كان هناك تخريج للتجربة وكانت وظيفته هنا تماثل الوظيفة في المثال السابق حيث أمكن للمريض بأن يحتفظ بصورته المثلى وأن يفعل ما يشاء.

ربما تنفع سياسات القوة كما تمارس بين التكتلات السياسية والمهنية كمثال آخر. إذ غالبًا ما تكون مثل هذه المناورات مدفوعة عن نية واعية بهدف إضعاف أحد المنافسين وتحصين موقع المرء الخاص. لكنها قد تنبع أيضًا عن معضلة لا شعورية تشبه تلك التي قدمت آنفًا. في تلك الحال تمثل تعبيرًا عن ازدواجية لا واعية قد تسمح للمرء بالمكائد والتحركات ذات الصلة بهذا النوع من الهجوم دون تشويه الصورة المثلى بينما تتيح في الوقت ذاته وسيلة ممتازة في صب جام غضب المرء واحتقاره لذاته على شخص آخر أو على شخص يرغب في هزيمته بالدرجة الأولى.

سأختتم الموضوع بالإشارة إلى طريقة شائعة قد تلقي التبعة من خلالها على الآخرين دون تطويقهم بمصاعب المرء الشخصية. حالما يتعرف كثير من المرضى على بعض مشاكلهم يقفزون فورًا إلى مرحلة طفولتهم لينسبوا إليها كل شيء فيذكرون أنهم مرهفو

الإحســاس تجاه الإكراه بسبب تسـلط أمهاتهم. وأنهم مثار الاحتقار لأنهـم ذاقوا الإهانات في طفولتهم، وأن قلوبهم مملوءة حقدًا بسـبب جراحاتهـم في الأيـام الخـوالي، وكانـوا منطويـن لأنهـم لم يقابلوا من يفهمهــم حينما كانوا في مرحلة الشـباب. وكانوا يعانون كبتًا جنسـيًا بسـبب تربيتهم على الطُهـر والبراءة، وهكذا. إنني لا أشـير هنا إلى الجلسات التي ينهمك فيها كل من المحلل والمريض في فهم المؤثرات المبكرة بل إلى مجرد توق شـديد في سـبر أغوار مرحلـة الطفولة التي لا تـؤدي لشيء غير التكرار المتواصل والمصحـوب بعدم الاهتمام في اكتشاف القوى الفاعلة في باطن المريض حاليًا.

و بقدر ما يسـند فرويد هذا الموقف من خـلال تأكيده البالغ على الوراثـة، دعنـا نتفحص بعناية مدى اسـتناده إلى الحقيقـة تارة وإلى الخيال تارة أخـرى. إنه لأمر صحيح أن يكون تطور المريض عُصابيًا والـذي كان قـد بدأ أثناء الطفولـة وكل ما لدينا من معلومات يشـير إلـى نوع التطور المحدود الذي كان قد حـدث حينذاك. كما أنه لأمر صحيـح أن يكون المريض غير مسـؤول عن عُصابـه. فلقد كان تأثير الظروف عليه قاسـيًا بحيث أنه عجز عن الصمود أمامها. ولأسباب ستبحث فيما يلي يجب أن يوضح محلل النفس هذه النقطة تمامًا.

يكمـن الوهم في جهل المريـض بكل القوى التي تكونت في باطنه ضمـن مرحلـة الطفولة. وهي القوى العاملة في ذاتـه حاليًا والكامنة خلـف المصاعـب الحـاضرة. كانـت رؤيتـه لكثير مـن صـور النفاق

حوله كطفل قد لعبت دورًا، على سبيل المثال، في جعله ساخرًا. ولكنه إذا أرجع سخريته هذه إلى خبرته المبكرة وحدها فإنه سوف يتجاهل حاجته الحاضرة لأن يكون ساخرًا. تلك الحاجة تنبثق عن كونه منقسمًا بين مُثُل مختلفة ويتعين عليه أن يقذف بجميع القيم إلى البحر في محاولة لحل ذلك الصراع. وفوق ذلك فهو يميل إلى تحمل المسؤولية إن لم يستطع ورفضها حيثما ينبغي أن يتحملها. وهو يواصل الإشارة إلى الخبرات المبكرة ليؤكد لنفسه مجددًا أنه ليس بوسعه حقًا إلا أن تكون لديه بعض العيوب كما يحس في آن واحد أنه كان ينبغي له التخلص من محنه المبكرة دون أن يصاب بأذى كزنبقة بيضاء نقية تظهر خارج للعيان من مستنقع. إن صورته هي موضع اللوم قليلاً لأنها لا تتيح له أن يتقبل ذاته بأخطائها وفشلها في الماضي أو الحاضر. لكن ما هو أهم من ذلك هو عزفه على نغمة الطفولة منتحلاً نوعًا خاصًا للهروب من الذات والذي ما زال يتيح له أن يحتفظ بوهم الرغبة في التفحص لمعضلاته. وهو لا يشعر بالقوى العاملة في باطنه لأنه يقوم بتخريجها، كما أنه لا يتخيل نفسه كعامل فعّال في حياته الخاصة. ولأنه توقف عن كونه محركًا فعالاً فهو ظن نفسه مثل كرة إن قذفت مرة نحو منحدر التلّ فهي ستواصل التدحرج أو أنه شبيه بكبش فداء إن أُعِدّ لشيء فسيواصل مسيرته كذلك إلى الأبد.

إن إصرار المريض على منحىً واحد من مرحلة الطفولة يمثل تعبيرًا محددًا جدًا لميوله في التخريج بحيث أنني لو صادفت موقفًا

كهذا فسوف أتوقع أن أجد شخصًا مغتربًا كل الاغتراب عن ذاته، وممن يواصل الانسياق مبتعدًا عن ذاته. وكنت وما زلت غير مخطئة في هذا التوقع.

يظهر الميل إلى التخريج في الأحلام كذلك. فإذا ظهر المحلل في أحلام المريض بصورة سَجّان وإذا أغلق الزوج بعنف أبوابًا تريد المريضة أن تعبرها وإذا حدثت ثمة أحداث مؤسفة أو تدخلت صعاب في بلوغ غاية مرغوبة كثيرًا فستكون هذه الأحلام محاولة في إنكار الصراع الباطني وإحالته إلى بعض العوامل الخارجية.

يمثل المريض الذي يميل إلى التخريج بصورة عامة مصاعب استثنائية عند التحليل. فهو يحضر للتحليل كما لو أنه يراجع طبيب أسنان متوقعًا من المحلل أن يقوم بعمل لا يشارك فيه فعلاً. فهو يهتم بعُصاب زوجه وصديقه وأخيه ولكن ليس بعُصابه هو شخصيًا. إنه يتحدث عن الظروف الصعبة التي يعيشها وهو كاره في تمحيص نصيبه فيها. فلو لم تكن زوجه مريضة العُصاب الشديد أو لو لم يكن عمله مقلقًا جدًا لكان بوسعه أن يغدو على ما يرام. ويمضي لفترة طويلة دون أي إدراك مهما كان ضئيلاً في أن تكون هناك عوامل عاطفية تفعل فعلها في ذاته نفسها. إنه يخاف الأشباح واللصوص والزوابع الرعدية ويخشى الأشخاص الحقودين من حوله، غير أنه لن يخاف من نفسه، وهو في أفضل حالاته يهتم بمعضلاته لغرض التسلية الفنية أو الفكرية التي قد تقدمها له. ولكن طالما هو غير

متواجد نفسـيًا فهو عاجز لأن يدخل إلى ظلمات حياته الواقعية بأي بصيـص من التبصر ولهذا السـبب فهو لا يسـتطيع أن يتغير إلا قليلاً بالرغم من ثقته التامة بنفسه.

يمثل التخريج أساسًـا، لهذا السبب، عملية فعالة في إلغاء الذات. ويرجع السبب في إمكانية تطبيقها إلى الاغتراب عن الذات الموروث في العمليـة العُصابيـة على أية حـال. من الطبيعي عنـد إلغاء الذات أن تـزال الصراعـات الباطنيـة من الوعـي أيضًا. غير أنـه بعد إحالة الشـخص إلى إنسـان ميّال إلى التأنيب والانتقام وتخويف الآخرين فهـو يسـتبدل التخريـج للصراعـات الباطنيـة بصراعـات خارجية. وبصـورة أدق يزيد من تفاقـم الصراع الذي دفـع بالعملية العُصابية كلها نحو الاستفحال أي يتجه الصراع بين الفرد والعالم الخارجي.

الفصل الثامن

الوسائل الإضافية للتوافق المصطنع

مـن البديهـي أن كذبة واحدة تقود إلى أخـرى والثانية قد تتطلب كذبة ثالثة لإسـنادها وهكذا حتى يقع المرء أسـيرًا في شـباك معقدة. ومن المحتمل أن يحدث شيء من هذا القبيل لأي موقف في حياة الفرد أو الجماعة حيثما يُفتقدُ التصميم على الغوص إلى جذور القضية. قد يكون في عملية الترقيع بعض الفائدة غير أنها سـتولد مشاكل جديدة تستدعي بدورها بديلاً مؤقتًا جديدًا. هكذا هي الحال مع المحاولات العُصابية في حل الصراع الأسـاس، وهنا مثلما هو في أي مكان آخر، لا شيء يعطـي فائـدة حقيقيـة غير تغيـير جوهري في الظـروف التي انبثقت عنها المشـكلة الأصلية، ما يفعله الشـخص العُصابي بدلاً من ذلك وما لا يسـتطيع إلا أن يفعله، هو تكديس أشـباه الحلول واحدًا

فوق الآخر، ربما يحاول كما رأينا، أن يجعل من أحد أوجه الصراع وجهًا متسلطًا ويظل هو خائبًا كسابق عهده. وربما يلجأ إلى الوسيلة الجذرية في عزل نفسه كليًا عن الآخرين. غير أنه رغمًا عن إيقاف الصراع عن العمل فإن حياته ستوضع برمتها على قاعدة غير مكينة. فيختلق ذاتًا مثالية يبدو فيها منتصرًا ومتماسكًا غير أنه يخلق صدعًا جديدًا في الوقت نفسه. ويحاول أن يتخلص من ذلك الصدع بإلغاء ذاته الباطنية عن ميدان النزال ليجد نفسه واقعًا في مأزق أكبر لا يطاق.

يتطلب مثل هذا التوازن الشديد القلق مزيدًا من الإجراءات بغية تدعيمه أيضًا. يتجه المريض بعد ذلك إلى أيّ من الوسائل اللاواعية التي قد تصنف كبقاع مظلمة مجزئًا إياها إلى أقسام أو فئات ومسوّغًا ضبط النفس المفرط والحق التعسفي والمراوغة والسخرية. لن نحاول مناقشة هذه الظواهر بحد ذاتها فقد تكون تلك مهمة مركزة جدًا، لكننا سنبين فقط كيف أنها تستخدم فيما يتعلق بالصراعات.

يمكن أن يكون البون شاسعًا جدًا بين السلوك الواقعي للشخص العُصابي وصورته المثلى عن ذاته، حيث يعجب المرء كيف يجهل العُصابي حقيقة نفسه. ولكونه بعيدًا عن فعل ذلك فإن بوسعه أن يظل غير واقع للتناقض البيّن. كانت هذه البقعة المظلمة المتصلة بالتناقضات البارزة جدًا إحدى الحالات الأولى التي لفتت انتباهي لوجود وترابط الصراعات التي كنت قد وصفتها. فمثلاً، أخبرني

أحد المرضى بشكل عرضي، ممن اتصف بصفات النمط المطاوع وممن كان يظن نفسه طاهرًا كالمسيح، أنه غالبًا ما كان يودّ لو أطلق النار على زملائه الواحد بعد الآخر أثناء اجتماعات موظفي الإدارة ممثلاً ذلك بمجرد حركة صغيرة من إبهامه. حقًا إن التوق المدمر الذي أثار أعمال القتل المجازية هذه كان غير واع آنذاك ولكن القضية هنا هي أنّ إطلاق النار الذي وصفه بأنه «لعب» لم يُثر قلق صورته المتشبهة بالمسيح.

وكان أحد المرضى الآخرين عالمًا يظن نفسه مُكرسًا لعمله بجد ويعتبر نفسه مبتكرًا في حقل اختصاصه يقاد في اختياره لما ينبغي أن ينشره بدوافع انتهارية محضة ناشرًا تلك البحوث التي يشعر أنها ستقوده إلى شهرة أوسع فحسب. لم تكن هناك محاولة للتمويه، بل مجرد الغفلة الناتجة عن التناقض الذي يرتبط بالأمر. وبصورة مماثلة لم يأبه أحد الرجال المعروفين بالطيبة والاستقامة بما يستحوذ عليه من مال إحدى الفتيات ليبذره على فتاة أخرى.

من الجلي في كل من هذه الحالات أن وظيفة التعامي كانت تتمثل في حجز الصراعات الكامنة عن الوعي. وما يثير الحيرة هو المدى الذي كان ممكنًا فيه وما هو أكثر حيرة أن المرضى المشار إليهم لم يكونوا أذكياء فحسب بل على اطلاع تام بعلم النفس أيضًا. أما إذا قلنا بأننا جميعًا نميل إلى تجاهل ما لا نهتم برؤيته فهذا بالتأكيد تفسير لا يفي بالمرام. وينبغي أن نضيف أن الدرجة التي نمحو بها الأشياء

تعتمد على مقدار اهتمامنا بإجراء ذلك. يرينا مثل هذا المحو المصطنع وبأسلوب مبسط للغاية كم هو عظيم هنا تمييز الصراعات. غير أن المعضلة الحقيقية هي كيف نستطيع التغاضي عن تناقضات بارزة جدًا كتلك التي كنا قد ذكرناها قبل قليل. في الحقيقة هناك ظروف خاصة إن لم تكن موجودة فسيكون ذلك من المستحيل حقًا. يتمثل أحدها في حذرٍ متطرف بخبرتنا العاطفية الخاصة. وقد سبق أن بَيَّنَ الآخر ستريكر ونعني بذلك ظاهرة الحياة في أقسام مستقلة، يتحدث ستريكر الذي يعطي تفسيرات عن البقاع المظلمة أيضًا، عن حُجُرات محكمة وعن فصلٍ نوعي، فهناك حجرة للأصدقاء وأخرى للأعداء، وواحدة للعائلة وأخرى للأغراب، وواحدة للحياة المهنية وأخرى للحياة الشخصية، وواحدة لمشابهينا في المستوى الاجتماعي وأخرى لمن هم أدنى مستوى. من هنا فإن ما يحدث في أحد الأقسام لا يبدو للشخص العُصابي متناقضًا مع ما يحدث في القسم الآخر. يمكن لأحد الأشخاص أن يحيا بتلك الطريقة بسبب صراعاته حينما يكون قد فقد إحساسه بالوحدة. وبقدرٍ ما، تمثل التجزئة في أقسامٍ حصيلةَ تمزق المرء نتيجة لصراعاته فهي تمثل دفاعًا ضد الاعتراف بوجودها. هذه العملية تكون متشابهة مع تلك التي وضعت في قضية لإحدى الصور المثلى إذ تبقى التناقضات بينها تطرد الصراعات بعيدًا. إنّ من الصعب القول إن كان هذا النوع من الصور مسؤولاً عن التجزئة في أقسام أو إن الأمر معكوس تمامًا. يبدو من المحتمل، أن إمكانية

العيش في حجرات صغيرة تصير هي الأمم وأنها قد تكون مسؤولة عن نوع الصورة المختلفة.

ولتقويم هذه الظاهرة يجب أن تؤخذ العوامل الحضارية بعين الاعتبار. كان الإنسان قد أصبح مجرد وتدٍ في نظام اجتماعي شديد التعقيد ذلك لأن الاغتراب عن الذات أصبح عالميًا تقريبًا، كما أنّ القيم الإنسانية ذاتها قد انحطّت وكنتيجة للتناقضات البارزة في حضارتنا والتي لا تعد ولا تحصى حدث فيها تطور خدر عام يرتبط بالمشاعر الأخلاقية. إذ يُنظر إلى المعايير الخلقية بشكل عابر تمامًا بحيث لا أحد يفاجأ مثلاً إذا شاهد شخصًا كان في يوم من الأيام مسيحيًا متدينًا أو أبًا حريصًا وقد راح يتصرف كأحد رجال العصابات.

هناك عدد ضئيل جدًا من الأشخاص الذين يتحلون بالصدق والسوية إلى درجة تبرز اختلافات صارخة عند مقارنتهم بتناقضاتنا الشخصية. فيما يتعلق بالتحليل كان تغاضي فرويد عن القيم الخلقية نتيجة من نتائج اعتباره علمَ النفس كعلمٍ طبيعي قد ساهم في جعل المحلل يتصف بفقدان الحس نفسه الذي يتصف به المريض بالنسبة لتناقضات من هذا النوع. يظن المحلل أن التحلي بقيم خلقية خاصة به أو إبداء أي اهتمام بتلك القيم المرتبطة بالمريض مسألة «غير علمية». في حقيقة الأمر يبدو قبول التناقضات جليًا للعيان في كثير من الصياغات النظرية التي لا تقتصر بالضرورة على دنيا الأخلاق.

ربـما يعـرف التبرير علـى أنه خـداع الـذات بواسـطة المنطق. إن الفكـرة الشـائعة على أنـه مسـتخدم أساسًـا لغرض تبرير السـلوك الفـردي أو للتوفيـق بـين دوافـع المـرء وأفعاله مـع العقائـد المقبولة التـي هـي صحيحـة إلـى درجة ما. ربـما يعنـي المغزى هنا بـأن جميع الأشـخاص الذين يعيشون ضمن الحضارة نفسـها صاروا يمارسون التبرير ضمن المسـارات نفسـها بينما تجد هناك في الواقع مجالاً عريضًا مـن الفروقات الفردية فيما يُبرّر في الأسـاليب المسـتخدمة لذلك. إن كـون هـذا الأمر كذلك هو أمـر طبيعي إذا اعتبرنـا التبرير طريقةً من طـرق إسـناد المحاولات العُصابيـة ومن أجل خلـق تناغم مصطنع. يمكـن أن تشـاهد العملية وهي تفعـل فعلها في كل صـور المنصات الدفاعية المشـيدة حول الصراع الأسـاس. إذ يعزز الموقف السائد عن طريـق المنطق وتقلل العوامل التي قد تسـلط الضوء على الصراع أو تعاد صياغتها بحيث تتفق معه. وتظهر للعيان الحالة التي يسـاعد بها هـذا الاسـتدلال المخادع للذات في انسـيابية الشـخصية حينما يقارن المرء النمط المطاوع مع النمط العدواني. يعزو الأول رغبته الشـديدة في المعاونـة لمشـاعره الرحيمة رغمًا عـن توفر ميول قوية في السـيطرة الكامنـة لديـه، فـإذا كانـت هـذه صارخـةً جـدًا فإنه يبرزها بشـكل وسـاوس. وحينما يتصف الأخير بالمسـاعدة فهو ينكر أي إحسـاس بالشفقة ويلقي تبعة عمله كلها على عاتق ذريعة من الذرائع. تتطلب الصورة المثلى دائمًا قدرًا كبيرًا من التبرير لإسـنادها ويجب أولاً إلغاء

الفـروق بين الذات الحقيقية والصـورة بطريق المنطق. وتُحمَلُ النفس أثنـاء التخريج على الاقتناع بالبرهنة علـى ترابط الظروف الخارجية أو علـى الرؤية بأن الصفات غير المقبولة للفرد ذاته هي مجرد رد فعل «طبيعي» تجاه سلوك الآخرين.

إن الميـل نحـو ضبط ذاتي مفرط يمكن أن يكـون قويًا جدًا بحيث أننـي كنت أحسـبه في وقت من الأوقات من بـين النزعات العُصابية الأصليـة. تتمثل وظيفته في كونه يؤلف سـدًّا ضـد إفاضة العواطف المتناقضة. ورغمًا من كونه ابتداءً يمثل في الغالب عملاً من أعمال قوة الإرادة الواعية، لكنه يصبح عادة وبمرور الوقت تلقائيًا. لن يسـمحَ الأشـخاصُ الذين يبذلون مثل هذه السـيطرة لأنفسهم بالانجراف، وإن حصـل ذلك فبالإثارة الجنسـية أو الشـفقة بالنفـس أو الغضب الشـديد وعند التحليل سـيظهر بأنهم يواجهون أعظـم المصاعب في المعـاشرة بحرّيّة. لـن يسـمحوا للمشروبات الكحوليـة أن ترفع من معنوياتهـم وغالبًـا يفضلـون تحمـل الألم علـى أن يخضعوا أنفسـهم لتنـاول المهدئات. بإيجاز إنهـم يريدون أن يكبحوا جمـاح أية حالات عفويـة. وهكذا تكـون هذه الصفة قـد تطورت، في أقـوى صورها، لـدى الأفـراد الذيـن ظهـرت صراعاتهـم علنًـا ولم يتخـذوا أيًـا من الخطـوات التي تعينهم كما هي العادة على طمس تلك العادات. فلم يحدث أي تسـلط واضـح لأيـة مجموعة من المواقـف المتصارعة كما لم تكن قد تطورت لديهم عزلة كافية لإيقاف الصراعات عن النشـاط.

يكوّن مثل هؤلاء الأشخاص كتلة واحدة متماسكة بواسطة صورهم المثلى. ومن الجلي أن قوّتها الرابطة تكون غير كافية حينما لا تساند من قبل إحدى المحاولات الرامية إلى بناء الوحدة الباطنية أو غيرها. تكون الصورة غير ملائمة بشكل خاص حينما تتخذ هيئة خليط من العناصر المتناقضة. عندئذٍ يحتاج المرء إلى بذل قوة الإرادة، بوعي أو بلا وعي، للاحتفاظ بالاندفاعات المتصارعة تحت السيطرة. ولأن أشد الاندفاعات تمزيقًا هي تلك التي تعود للعنف المنطلق عن الغيظ فإن أعلى درجة من الطاقة توجه نحو السيطرة على الغيظ. هنا تبدأ حلقة مفرغة في التحرك إذ يصبح الغيظ قوة متفجرة تتطلب بدورها ضبطًا ذاتيًا أكبر من أجل إخمادها. فإذا لفت نظر المريض إلى السيطرة الفائقة التي يمارسها فسوف يدافع عنها بالإشارة إلى فضيلة وضرورة ضبط الذات بالنسبة لأي فرد متحضر. وما يفعله هو طبيعة سيطرته القسرية، إذ ليس بوسعه إلّا أن يبذلها بأقسى الطرق صلابة، كما يستبد به الهلع إن فشلت في تأدية وظيفتها لأي سبب كان. ربما يبدو الهلع كخوف من الجنون الذي يشير بوضوح إلى أن وظيفة السيطرة هي درء خطر الانفصام.

يمتلك الحق التعسفي وظيفة مزدوجة تتمثل في إلغاء الريبة من الباطن والتأثير من الخارج، تكون الريبة والتردد مرادفات ثابتةً للصراعات غير المصرّفة والتي يمكن أن تبلغ قوة جبارة بدرجة كافية لشلّ كل عمل. في مثل هذه الحال يكون الشخص سريع التأثير

بصورة اعتيادية. إننا لن نجبر على تغيير آرائنا بسهولة إذا كنا نمتلك قناعـات أصلية، ولكن إذا كنا نقـف عند مفترق الطرق طوال حياتنا متردديـن إن كنا سـنذهب في هذا الاتجاه أو ذاك حينها يكون بوسـع القوى الخارجية أن تصبح العامل الحاسـم في توجيهنا بسـهولة حتى وإن كان ذلـك مؤقتًـا فقط. عـلاوة على ذلك لا ينطبـق التردد على سُبُل الأداء الممكنة فحسـب بل يتضمن شكوكًا بذات المرء وبحقوقه وبجدارته أيضًا.

تَحدُّ هذه الشـكوك من قدرتنا على مقارعة الحياة ولاتبدو ظاهريًا غير محتملة لكل امرئ بصورة مماثلة فكلما نظر أحد الأشـخاص إلى الحيـاة على أنها معركة قاسـية اعتبر الشـك على أنـه ضعف خطير. وكلـما كان منعـزلاً ومصرًّا على الاسـتقلال بنفسـه صـارت قابليته للتعرض للتأثير من الخارج مصدرًا للسـخط. تشـير جميع ملاحظاتي إلـى حقيقة تتضـح في اتحاد نزعـات عدوانية متسـلطة بالإضافة إلى العزلـة باعتبارهـا التربة الأخصـب في تطوير الحق المتعسـف. وكلما كان العدوان بارزًا على السـطح كان الحق أشـد تعسـفًا وهو يؤلف محاولة في حسـم الصرعات نهائيًـا، وذلك بالتصريح وبصورة جازمة أنه على حـق دائمًا. هنا تمثل الانفعالات خيانة من الداخل ويجب أن تمنع بالسيطرة القوية. وقد يتوصل بذلك إلى السلام غير أنه سيكون سـلام القبور. وكـما نتوقع فإن مثل هؤلاء الأشـخاص يسـتهجنون فكرة تحليل النفس لأنه يهدد بضياع الصورة التي يرتضيها.

تعتبر المراوغة أمرًا محوريًا بالنسبة للحق المتعسف لكنها تمثل بصورة مشابهة دفاعًا مؤثرًا ضد الاعتراف بالصراعات. وفي الغالب يمثل المرضى الذين يميلون إلى هذا النوع من الدفاع، تلك الشخصيات في أساطير الجنيات اللاتي يستحِلن إلى سمكاتٍ حينما يُلاحَقن فإن لم يكنَّ آمناتٍ في ذلك المظهر فإنهنّ يتحولن إلى ظباءٍ فإن لحق الصياد بهنّ فسيُحلّقن بعيدًا كالطيور. إنك لن تستطيع إلزامهم بأي قول إذ ينكرون أنهم كانوا قد قالوه أو يؤكدون لك أنهم لم يكونوا يقصدونه بتلك الطريقة. إن لديهم استعدادًا مذهلاً على إحاطة الأمور بالغموض. ويستحيل عليهم غالبًا أن يقدموا تقريرًا ملموسًا عن أي حدث من الأحداث وإن حاولوا القيام بذلك فسيكون السامع غير متيقن مما حصل حقيقة.

الارتباك نفسه يسود حياتهم. إذ يكونون أشرارًا في لحظة من اللحظات وعطوفين في لحظة أخرى، مسرفين أحيانًا في تقدير الآخرين أو غير مبالين بمشاعر الآخرين بشكل متهور، متسلطين في بعض الجوانب ومنكرين لذاتهم في جوانب أخرى. وهم يمدون أيديهم إلى الرفيق المستبد لينقلبوا إلى مجرد «ممسحة أرجل» ثم يكرّون راجعين إلى سابق عهدهم وسيغمرهم شعور بالندم بعد إساءة معاملة شخص ما فيحاولون تقديم الترضيات ثم يشعرون كما يشعر «المغفل» فينقلبون إلى حالهم الفاسدة مرة أخرى. إذ لا شيء حقيقي بالنسبة لهم.

ربما يجد المحلل نفسه في حالة ارتباك كذلك وأنه مثبط العزيمة فيشعر بضياع الخلاصة التي يعمل من أجلها. وهو على خطأ في ذلك الأمر فهؤلاء ببساطة هم المرضى الذين لم يكونوا قد نجحوا في تبني إجراءات التسوية المعتادة أي أنهم لم يكونوا قد فشلوا في كبت أجزاء من صراعهم ولم يشيدوا الصورة المثلى على وجه التحديد. قد يقال أنهم يظهرون أهمية هذه المحاولات بوضوح، لأنه مهما كانت العواقب وخيمة فإن الأشخاص السائرين على هذا المنوال، هم أفضل تنظيمًا وليسوا ضائعين تمامًا كضياع النمط المراوغ. من جهة أخرى، سيكون المحلل مخطئًا بصورة عامة إذ يتوقع عملاً ميسورًا لأن الصراعات تبدو للعيان ولذلك فهي ليست بحاجة لأن تسحب ببطء من مكمنها. فمع ذلك سيجد أنه يرقى إلى مجابهة مع المريض وسينزع المريض إلى إحباطه ما لم يكن واضحًا لديه أن هذه هي طريق العُصابي في تفادي أي نفاذ بصيرة حقيقية.

إن **السخرية** هي دفاع أخير ضد الاعتراف بالصراعات والإنكار والاستهزاء بالمعايير الخلقية. فمن المحتم ظهور ريبة عميقة لدى كل مرض عُصاب، فيما يتعلق بالمعايير الخلقية وكيفما كان الشخص ملتزمًا عقائديًا بمقاييسه المقبولة هذه. وبينما تختلف أساليب السخرية فإن مهمتها تكون في إنكار وجود المعايير الخلقية وهكذا تحرر الشخص العُصابي من ضرورة الإفصاح بذاته عن ماهية ما يؤمن به حقًا.

الجزء الثاني

الصراعات العُصابية ومحاولات الحل

مـن الممكـن أن تكون السـخرية واعيـةً ومن ثم تصبـح مبدأ من التقليـد الميكيافيـلي وأن يدافع عنها بهذه الصفة. فـكل ما يُعول عليه هو المظهر الخارجي. تستطيع أن تفعل ما تشاء طالما لا تضبط متلبسًا. ويعتـبر كل امرئ مُرائيًا ما لم يعتبر أبلـه حقيقيةً. ربما يتميز هذه النوع من المرضى بالحساسـية ضد اسـتخدام المحلـل لأي تعبير خلقي كما كان أولئـك النـاس في عـصر فرويـد يتحمسـون تجاه الإشـارة إلى الجنـس. غير أن السـخرية قد تظل لا شـعورية أيضًا وتحجب بغلالة مـن المظهر السـطحي الـكاذب بالنسـبة للعقائد السـائدة ورغمًا عن كونه غير شاعر بسيطرة السخرية عليه ولكن الطريقة التي يعيش من خلالها والأسلوب الذي يتحدث به عن حياته سيظهر بأنه كان يعمل وفقًا لمبادئها. أو قد يوقع نفسـه في التناقضات غير المعتمدة كالمريض الذي كان واثقًا بأنه يؤمن بقيم الصدق والحشمة ومع ذلك كان يحسد كل من أطلق العنان لنفسـه في مناورات غير شريفة، وكان يستاء من الحقيقة لأنه هو نفسه لم يستطيع «الخلاص» من أمور كهذه. من المهم أثنـاء العلاج النفسي أن نحمل سـخرية المريض إلـى الوعي التام بها في الوقت المناسـب، وأن نسـاعد المريض على إدراكها. قد يكون من الـضروري أن نشرح لِمَ يكون مُفضلاً بالنسـبة له قدرته لأن يؤسـس مجموعته الخاصة من القيم الخلقية.

إن مـا مَرَّ ذكـره إذًا يُمثّل الدفاعات التي تشـاد حول نواة الصراع الأسـاس. سأشـير لغرض التبسـيط إلى نظام الدفـاع برمته على أنه

البنية الواقية. إذ تطوّر في كل عُصاب مجموعة مؤتلفة من الدفاعات، غالبًا ما تكون متوفرة جميعها رغم تفاوت درجاتها من الحيوية.

الفصل التاسع

المخاوف



عند البحث عن المعنى الأعمق لأية معضلة عُصابية فمن المحتمل أن نضلّ سبيلنا في متاهة من التعقيدات. وليس ذلك أمرًا غير طبيعي لأننا لا نستطيع أن نتوقع فهم مرض العُصاب دون مواجهة تعقيداته. ومن المفيد أحيانًا أن نقف موقف المتفرج لاستعادة منظورنا.

كنا قد تعقبنا تطور البنية الواقية خطوة بعد خطوة. وكنا قد رأينا كيف يُبنى دفاع بعد آخر حتى تتوطد منظومة راسخةٌ نسبيًا. وكان العنصر الذي يترك فينا انطباعًا عميقًا جدًا هو الجهد المطلق الذي كان قد بذل في هذه العملية وكان جهدًا هائلاً جدًا يقودنا نحو التساؤل ثانية عن حقيقة ما يدفع بشخص ما عبر ممر شاق مجهد ذي ثمن باهظ. ونسأل أنفسنا ما هي القوى التي تجعل البنية الواقية بهذه الصلابة

والمناعـة. هل تكمـن القوة الدافعـة للعملية كلها بسـبب الخوف من الفعالية الممزقة للصراع الأسـاس؟ قد يوضح القياس التمثيلي مدخلاً نحـو الإجابـة. وكأي قيـاس تمثيلي آخر فهـو يمكـن أن ينطبق بصيغ شـاملة جدًا. لنفترض أن أحد الرجال من ذوي الماضي المشين كان قد وجـد طريقه نحـو أحد المجتمعات الصغيرة بطريـق الادّعاء المزّيف. فهـو سـيعيش لا محالـة متخوفًا مـن افتضاح حاله السـابق. ثـم يعلو مركـزه بمـرور الزمن فيكون أصدقاءً ويؤمن لنفسـه عملاً ويؤسـس عائلـة. وأثناء تعلقه بمركـزه الجديد كان يكتنفه خوفٌ جديد خشـية فقدان هـذه الامتيازات الجديدة، كما كان اعتـداده بكرامته يبعده عن ماضيـه البغيـض. لذا تجده يتـبرع بمبالغ ضخمة مـن أجل الخير وقد يفعـل الشيء نفسـه لشركائه القدامى كي يطهر ماضيه المشـين. كانت التبدلات في شـخصيته تتابع على نحو مطرد لكنها تساهم في توريطه بصراعات جديدة وكمحصلة في نهاية المطاف يصبح اسـتهلاله لحياته الحالية على أسس مزيفة مجرد تيار خفي يعكر صفوه فحسـب.

و هكـذا يظـل الـصراع الأسـاس باقيًـا في النظـام الـذي أعـده الشـخص العُصابي لكنه يصبح مشوهًا. فحيث يكون قليلاً في بعض الجوانب فإنه يزداد في جوانب أخرى. ونظرًا للحلقة المفرغة المتأصلة في العمليـة تصبـح الصراعات المنبثقة أشـدّ إلحاحًـا.. وما يصعد من حدّتهـا إلـى أقصاها في الحقيقة كون كل موقـف دفاع جديد يزيد من إضعـاف علاقـة العُصـابي مع ذاته ومـع الآخرين، وهـذه هي التربة

التي تنبت فيها الصراعات. فضلاً عن ذلك فإنها كعناصر جديدة مهما كانت مغلفة بالوهم، أي وهم الحب أو النجاح أو العزلة المتاحة أو الصورة الوطيدة، فهي تبدأ بلعب دور هام في حياته مولدة خوفًا من نوع مختلف وخوفًا من أن شيئًا ما قد يعرض هذه الكنوز للخطر. واغترابه المتصاعد عن قدرته على أن يقنع نفسه وأن يتخلص من مصاعبه. وهكذا يأخذ الكسل مكان النمو الموجّه.

تتميز البنية الواقية مع كل صلابتها بكونها سريعة الانكسار وهي تُنمّي بحد ذاتها ظهور مخاوف جديدة. يتمثل أحد المخاوف هذه في الشعور بأنّ اتزانه سيكون قلقًا. ففي الوقت الذي تضفي عليه البنية الواقية إحساسًا بالتوازن لكنه سرعان ما يتقوض وينهار. ويكون الشخص ذاته غير واعٍ شعوريًا بهذا التهديد لكن لن يسعه إلا الإحساس بذلك بطرق متنوعة. لقد علمته التجربة أنه يمكن أن يفقد عصا القيادة دون أي سبب ظاهر، إنه يصبح حانقًا أو مبتهجًا أو مكتئبًا أو مجهدًا أو كظيمًا في وقت يتوقع فيه الرغبة في حدوث ذلك. إنّ محصلة كل هذه الخبرات أعطاه شعورًا بالريبة وشعورًا بأنه لن يكون بوسعه الاعتماد على نفسه، كما لو كان يتزحلق على جليد هش. وربما عن عدم توازنه أيضًا في طريقة مشيته أو جلسته أو في نقص مهارته في أي عمل يتطلب توازنًا عضويًا.

يتمثل أعلى تعبير ملموس لهذا الخوف بالخوف من الجنون. وحينما يتواجد ذلك بدرجة ملحوظة فإنه قد يكون العارض المرضي

الأشد بروزًا والذي يسوق أحد الأشخاص للبحث عن معاونة الطب النفسي. في مثل هذه الأحوال يدفعه الخوف أيضًا وبطريق الاندفاعات المكبوتة للقيام بجميع الأمور التي تدل على «خيل» أو عمل ذي طبيعة تخريبية في الغالب دون الإحساس بالمسؤولية عنها. لا يُعتبر تصوّر الخوف من الجنون كمؤشر على أن الشخص متجه فعلاً نحو الجنون. وقد يكون هذا أمرًا عابرًا يظهر في حالات المحن الشديدة. إن أكثر بواعثه المؤثرة هو التهديد المفاجئ للصورة المثلى أو التوتر المتعاظم الذي يرتبط في الأعم بالغيظ اللاواعي مما يعرّض ضبط الذات المفرط للخطر. فقد اعترت إحدى النساء المعروفات بسماحة الخلق والشجاعة موجةٌ من الرعب حينما أصابها إحساس بالخوف والغضب العنيف أثناء موقف محرج إذ انفجرت صورتها المتزنة المتماسكة بما يشبه شريطًا من الفولاذ وتركتها في حالة خوف من الانفصام. لقد سبق أن تحدّثنا عن الرعب الذي يتملك الشخص المنعزل حينما يُجرّ من مخبئه ويساق إلى علاقة حميمة مع الآخرين، أي حينما يتعين عليه مثلاً، أن يلتحق بالجيش أو أن يعيش مع الأقرباء. ربما يعبر عن هذا الرعب أيضًا كخوف من الجنون وفي هذا الظرف قد تحدث سلسلة من أحداث الذّهان فعلاً. وثمة خوف مماثل سينبثق أثناء تحليل النفس حينما يدرك أحد المرضى ممن كان قد بذل أقصى جهده لخلق توافق مصطنع، أنه منقسم على نفسه.

إن ذلك الخوف من الجنون والذي يطوح به في أغلب الأحوال غيظ لا شعوري يبرز أثناء التحليل في وقت تأخذ فيه رواسبه شكل

التصور في أن المريض قد يهين أو يضرب أو ربما يقتل بعض الناس في ظروف يستحيل عليه فيها ضبط الذات. سوف يشعر بالخوف من اقتراف أحد أعمال العنف أثناء النوم أو تحت تأثير مسكر أو مخدر أو عند الإثارة الجنسية. قد يكون الغيظ نفسه واعيًا أو قد يظهر كاندفاع متسلط باتجاه العنف غير مرتبط بأي ميل أو شعور. وقد يكون عمله من جهة أخرى لا شعوريًا بشكل عام، وكل ما يشعر به الشخص هو نوبات مفاجئة من هلع مبهم ربما يكون مصحوبًا بالتعرق ودوار الرأس أو الخوف من الإغماء، مشيرًا بذلك لخوف كامن في أن الاندفاعات العنيفة قد تفقده السيطرة. وحيثما يُخرّج الغيظ اللاشعوري فقد يتملك الشخص ذعرٌ من العواطف الرعدية أو الأشباح أو اللصوص أو الثعابين وغيرها، أي من أية قوة مخيفة محتملة خارج حدود ذاته.

غير أن الخوف من الجنون بعد كل هذا، نادر نسبيًا. إنه ببساطة أشد التعبيرات وضوحًا عن خوف فقدان الاتزان. وقد يفعل الخوف فعله بأساليب أكثر خفاءً. فيظهر بصور غامضة غير محدودة أو يترسب بواسطة أي تبدل في روتين الحياة، قد يشعر الأشخاص الذين يتعرضون له بالقلق العميق من القيام برحلة أو الانتقال أو تغيير العمل أو استخدام خادمة جديدة أو ما شابه ذلك. وهم حيثما أمكن ذلك يحاولون تجنب مثل هذه التغييرات. كما أن تهديده للاستقرار قد يشكل عاملاً من العوامل التي تحول بين المرضى وبين تحليلهم نفسيًا

وبخاصـة إذا كانـوا قد وجـدوا طريقة للعيش تسـمح لهم بممارسـة نشـاطهم بشـكل جيد تمامًا. وهم حينما يناقشـون أرجحيـة التحليل النفسي فسـوف يهتمون بقضايا قد تبدو معقولة بما يكفي لأول وهلة كالسؤال هل سيقوض التحليل أُسس زواجهم؟ هل سيشّل قدرتهم عـن العمل مؤقتًا؟ هل سـيجعلهم سريعي الانفعال؟ هل سـيتدخل في معتقدهم الديني؟ إن مثل هذه الأسـئلة تقرر بشـكل مبدئي سبب قنـوط المريض فهو لا يعتقد أن القيام بأية مجازفة سـيجدي نفعًا. غير أن هناك تحسبًا حقيقيًا يكمن وراء قلقه، فهو بحاجة للتحقق ثانية بأن تحليل النفس لن يقلب توازنه رأسًـا على عقب. نستطيع في مثل هذه الحالات أن نفترض بكل اطمئنان أن التوازن مزعزع بشـكل خاص وأن تحليل النفس سيكون مهمة صعبة.

هل يسـتطيع المحلل أن يعطي المريـض التأكيد الذي يريده؟ كلا، لا يسـتطيع. مـن المحتم أن يخلق كل تحليل نفـسي اضطرابا مؤقتًا. ما يستطيع المحلل أن يفعله على كل حال هو أن يغوص إلى جذور مثل هـذه الأسـئلة وأن يشرح للمريض ما هو خائـف منه فعلاً وأن يخبره أنـه بينما سـيقلب التحليل النفـسي اتزانه الحالي فهو سـيمنحه فرصة لبلوغ توازن يرتكز على أرضية أكثر صلابة.

كما يتولد خوف آخر عن البنية الواقية هو خوف الافتضاح. ويقبع مصدره في الادعاءات الكثيرة التي تتصل بتطور وصيانة البنية ذاتها. سـيوصف هذا مع ما يرتبط بإفسـاد الاسـتقامة الخلقية التي تنشأ عن

الصراعات غير المصرّفة. نود فيما يخص هدفنا الحالي فقط أن نشير إلى الشخص العُصابي الذي يريد أن يُظهر لكلٍّ من نفسه والآخرين أنه مختلفٌ عما هو عليه فعلاً أي أكثر انسجامًا وأكثر سلامةً في تفكيره وأكثر كرمًا أو نفوذًا أو طيشًا. قد يكون من الصعب القول إذا كان أكثر خوفًا من أن يفتضح أمره بالنسبة له أو للآخرين. شعوريًا يكون الآخرون هم أكثر ما يقلقه وكلما عمل على تخريج خوفه أكثر ازداد قلقه وشعوره بأن الآخرين ينبغي أن لا يكتشفوه. قد لا يهمّه ما يظنه هو عن نفسه وأن بوسعه أن يتحمل اكتشافه الشخصي لعيوبه خلال مسيرته إذا أمكن إبقاء الآخرين في الظل. لن يكون الأمر كذلك لكنه يمثل الطريقة التي يحس بها شعوريًا والتي تبيّن مدى الدرجة التي يكون فيها التخريج موجودًا.

قد يظهر خوف الافتضاح إما بصورة شعور غامض بأن المرء مخادع أو أنه قد يتعلق بميزة خاصة فحسب ترتبط من بعيد بما يضايق المرء فعلاً. قد يكون أحد الأشخاص خائفًا من أنه ليس ذكيًا أو ذا كفاءةٍ أو متعلمًا بشكل حسن أو جذابًا مثلما يظن نفسه وبذلك ينقل الخوف إلى الصفات التي لا تنعكس على شخصيته. وهكذا فقد تذكّر أحد المرضى أنه في سني مراهقته المبكرة كان يلاحقه خوف يتمثل في أن سبب كونه من الأوائل يرجع إلى الخداع. وكان واثقًا في كل مرة ينتقل فيها إلى مدرسة أخرى أن أمره سيفتضح هذه المرة، وكان الخوف يدوم حتى حينما انتزع المرتبة العليا. لقد حيره إحساسه لكنه لم يكن

قـادرًا على أن يضـع إصبعه على السـبب، لم يسـتطع أن ينفذ ببصيرته إلـى مشـكلته هـذه لأنه كان يسـير على غـير هداية. لم يكـن خوفه من الافتضـاح يرتبـط بذكائه بل كان قـد انتقل إلى ذلك المجال فحسـب. كان ذلـك يرتبـط في الحقيقـة بادعـاءٍ لا شـعوري بأنـه شـخص طيب لم يكـن ليهتـمَّ بالدرجات، بينما كانـت الحقيقة أنَّ حاجـةً مدمرةً كانت تطغى عليه بهدف الانتصار على الآخرين. يقودنا هذا المثال إلى تعميمٍ وثيـقِ الصلـةِ بالموضوع. يرجـع الخوف دائمًا من كون المـرء مخادعًا إلى أحـد العوامل الموضوعيـة، وفي العادة لا يكون هـو العامل الذي يظنه الشخص نفسه. إن تعبيره المميز كعرض مرضي يتمثل في احمرار الوجه خجـلاً أو الخـوف من احمـرار الوجه خجلاً، ولأنه تظاهر لا شـعوري ذلـك الذي يخشـى المريـض افتضاحه فقـد يرتكب محلـل النفس خطأً جسيمًا إذا فتش عن بعض الممارسات التي يظن بأن العُصابي يخجل منها ويخفيها. غير أن المريض قد لا يخفي أي شيء من هذا القبيل، ما يحدث بعـد ذلك الشـعور بأنه يصبـح أكثر تخوفًا من أن شـيئًا ما في دخيلته هو على جانب كبير من السوء بحيث أنه سيشمئز لا شعوريًا من الإفصاح عنـه. تقضي مثل هذه الحال لإمعان النظر في الـذات بارتياب لكنها لن تقـود إلى العمل البناء. وربما سـيدخل في تفاصيـل أخرى تدور حول أحـداث جنسـية أو اندفاعات مدمـرة، لكن خوف الافتضاح سـيبقى طالما يفشـل محلل النفس في إدراك كون المريض أسـيرًا في قبضة صراع وبأنه هو نفسه يعمل على التأثير فيه من جانب واحد فقط.

مـن المحتمل أن يسـتثار خوف الافتضاح بواسـطة أية حال تعني وضـع العُصـابي في موضـع الاختبار. سـيتضمن هذا البـدء بوظيفة جديدة أو التعرف على أصدقاء جدد أو الانضمام إلى مدرسة جديدة أو الامتحانات أو التحشـدات الاجتماعيـة أو أي نوع من الفعاليات التـي قد تسـلط الأضـواء عليـه حتـى وإن لم يتعد ذلك المشـاركة في مناظرة. إنه غالبًا ما يتصور لا شعوريًا بأنه خوف من الفشل له علاقة بالافتضاح في الواقع، ومن هذا المنطلق فهو لا يستكين بالنجاح.

سـوف يشعر الشخص أنه «نفذ بجلده» هذه المرة فحسب، ولكن ماذا في المرة المقبلة؟ وإذا تعين عليه الفشـل فسـيكون أكثر قناعة بأنه كان ومـا زال مخادعًا وأنه قد ضبط متلبسًـا هـذه المرة. إن الجبن يمثل إحدى العواقب لمثل هذا الإحسـاس لا سيما ضمن أية حالة جديدة. تتمثـل العاقبة الأخـرى في الحذر إزاء كونه محبوبًا أو مقدرًا. سـيفكر الشـخص شـعوريًا أو لا شـعوريًا: «إنهم يحبونني الآن غـير أنهم إذا عرفوني حقًا فسيشعرون بعكس ذلك». لا شك أن هذا الخوف يلعب دورًا في تحليل النفس حيث يكون غرضه الصريح هو «الاكتشاف».

يسـتدعي كل خوف جديد مجموعة جديدة من الاسـتحكامات. وتنقسـم تلك التي تنصـب ضد خوف الافتضاح إلـى فئات متقابلة وتتوقف على بنية الشخصية برمتها. فمن جهة هناك ميلٌ نحو تجنب حالات الاختبار من أي نوع وإن لم يسـتطع تجنبها فهو يتحفظ عليها ويضبطها داخليًا ويلبسـها قناعًا لا يمكن اختراقه. ومن جهة أخرى

هناك محاولة لأن يصبح المرء مخادعًا منقطع النظير بحيث لن تبقى هناك حاجة للخوف من الافتضاح. ليس الموقف الأخير وقائيًا فحسب إذ تستخدم المخاتلة الرفيعة المستوى من قبل أفراد من النمط العداوني ممن يعيشون نيابة عن الآخرين كوسيلة للتأثير على أولئك الذين يرغبون في استغلالهم؛ وأية محاولة في الارتياب بهم ستقابل بهجوم ماكر مضاد فيما بعد. إنني أشير هنا إلى الأشخاص الساديين بصورة صريحة. وسنرى بعد ذلك اتفاق هذه الميزة مع البنية كلها.

سوف نفهم خوف الافتضاح حينما نكون قد أجبنا على سؤالين: الأول ما الذي يخيف أحد الأشخاص إذا كان يفشي أمرًا؟ والثاني: ما الذي سيخشاه في حال تعرضه للفضيحة؟ كنا قد أجبنا على السؤال الأول مسبقًا. ولنجيب على الثاني أيضًا علينا أن نبحث في خوف آخر ينبعث من البنية الواقية وهو خوف **الإهمال والإذلال والشعور بالسخرية**. وبينما يكون ضعف البنية مسؤولاً عن خوف اضطراب التوازن، يُولّد الخداع اللاواعي المرتبط بذلك خوفًا من الافتضاح. كما يتأتى خوف الإذلال من كرامةِ ذاتٍ جريحة. وقد لمحنا لهذه المسألة بشكل عابر في مجالات أخرى. يمثل كلٌ من خلق الصورة المثلى وعملية التخريج محاولة في إصلاح احترام الذات المتضررة غير أن كلاً منهما لا يزيد عن كونه تجريحًا فحسب كما شاهدنا سابقًا.

إذا ألقينا نظرة شاملة على ما يحدث لاحترام الذات خلال تطور مرض العُصاب فسنفاجأ بزوجين من العمليات المتأرجحة صعودًا

ونزولاً. فبينما يهبط مستوى احترام الذات الواقعي تتصاعد كبرياء غير واقعية: كبرياء في كون المرء صالحًا جدًا ومكافحًا جدًا وفذًا جدًا ومطلق القدرة تمامًا ومطلق المعرفة أيضًا. نجد في الأرجوحة الأخرى تصغير ذات الشخص العُصابي الفعلية معادلةً بثقل مقابل نحو تصعيد الآخرين إلى منزلة العمالقة. تضيع رؤية الفرد لذاته من خلال تعتيم مساحات واسعة من الذات بالقمع والكبت أو بواسطة الصورة المثالية أو التخريج فيشعر بأنه صار كظل لا وزن له ولا جوهر فيه. في الوقت عينه، إن حاجته للآخرين وخوفه منهم لا يجعلهم أشدَّ هولاً بالنسبة له فحسب بل أشد ضرورةً أيضًا. من هنا يصبح مركز ثقله أكثر استقرارًا في الآخرين منه في ذاته حيث يتنازل لهم عن امتيازات هي خاصة به حقًا. ويتمثل تأثيرها في إضفاء أهمية خاصة لا موجب لها على تقديرهم بينما يفقد تقديره الذاتي لمغزاه. وذلك يعطي لرأي الآخرين نفوذًا ساحقًا.

عند النظر إلى مجموعة العمليات معًا بنظر الاعتبار فإنها تفسر تحسس الشخص العُصابي المفرط للإهمال والإذلال والسخرية. وبقدرِ ما تشكل هذه العمليات جزءًا من كل مرض من أمراض العُصاب بقدر ما يكون التحسس المفرط في هذا المجال شائعًا جدًا. فإذا كنا مطلعين على مصادر خوف الإهمال المتشعبة الأنواع فسوف نستطيع أن نرى أنه ليس من السهل إزالته أو التقليل منه فهو يمكن أن ينحسر إلى ما ينحسر إليه مرض العُصاب برمته.

بصورة عامة تتمثل عواقب الخوف هذا في أنه يبعد الشخص العُصابي عن الآخرين ويجعله عدائيًا بالنسبة لهم. غير أنّ الأهم من ذلك كله يتمثل في قدرته على قص أجنحة أولئك الذين ابتلوا به إلى درجة عظيمة. فهم لا يجرؤون على توقع أي شيء من الآخرين أو أن يضعوا لأنفسهم أهدافًا سامية. إنهم لا يجرؤون على الاقتراب من أولئك الذين يحسبونهم أرفع مقامًا منهم بأية طريقة، وهم لا يجرؤون أيضًا على التعبير عن فكرة ما حتى ولو كانت لديهم مساهمة حقيقية لتقديمها، ويرون أن لا قدرة لهم على ممارسة القدرات الخلاقة حتى ولو توفرت فيهم، كما أنهم لا يستطيعون إضفاء السحر على أنفسهم أو المحاولة في التأثير على الآخرين أو البحث عن عمل أفضل وهلم جرًا. حينما يركبون المخاطر في تلمس أي من هذه الاتجاهات يشدهم احتمال السخرية الكئيب إلى الوراء فيلجؤون إلى ستار التحفظ والكرامة.

و ما هو أشد دقة من المخاوف التي كنا قد وصفناها يتمثل في أحد المخاوف التي قد تعتبر تكثيفًا لها جميعًا وكذلك لمخاوف أخرى تتواجد في التطور العُصابي. إنه الخوف من تغيير أي شيء في دخيلة المرء. يستجيب المرضى لفكرة التغيير عن طريق تبني واحد من موقفين متطرفين. إما أن يغضوا الطرف عن الموضوع برمته على الرغم من غموضه شاعرين بأن التغيير سيحدث عبر نوع من المعجزات في وقت غامض مستقبلاً أو أن يحاولوا التغيير

بسرعة فائقة وبإدراك أقل مما يجب لمتطلباته. فيضمرون في الحال الأولى تحفظًا فكريًا بأن إلقاء نظرة على معضلة من المعضلات أو الاعتراف بزلل ينبغي أن يكون كافيًا بحد ذاته. والفكرة في تحقيق ذاتهم تجعلهم يغيرون مواقفهم ودوافعهم باعتبارها صدمة عصبية تقودهم للإحساس بالقلق. ليس بوسعهم إلا أن يروا صحة المقترح ولكنهم يرفضونه لا شعوريًا. هذا الوضع المعاكس يقود إلى تظاهر لا شعوري في التغيير الذي يتم جزئيًا بطريق التمني الناشئ من عدم تحمل المريض لأي عيب يراه في نفسه ولكنه يتقرر أيضًا عن طريق إحساسه اللاواعي بالقدرة الفائقة، أي لمجرد تمني اختفاء مشكلة من المشاكل التي ينبغي أن يكفي التمني لتبديدها.

يكمن وراء الخوف من التغيير أحاسيس مفاجئة، بالخوف من التبدل نحو الأسوأ وأعني فقدان المرء لصورته لمثلى حيث ينقلب إلى الذات المرفوضة ويصبح كأي شخص آخر، أو يطرح بعد تحليل النفس إناءً فارغًا فيه ذعر من المجهول وشعور بأن عليه أن يتخلى عن وسائل السلامة ومعطيات الارتياح التي كسبها حتى الآن ولا سيما تلك التي تتعلق بمطاردة الأوهام التي تبشّر بالحل. وأخيرًا هنالك خوف من كونه قادرًا على التغيير وهو خوف سيكون مفهومًا بصورة أفضل عندما نصل إلى مناقشة القنوط العُصابي.

تنطلق جميع هذه المخاوف من الصراعات غير المصرَّفة. وعلينا أن نفصح لها عن أنفسنا إذا ابتغينا التكامل وإلا فهي تقف حجر عثرة

أمام مواجهتنا لأنفسـنا أيضًا. إنها تمثل مواضـع التطهير التي يجب أن نبذل مزيدًا من التفكير عبرها قبل أن نفوز بالنجاة.

الفصل العاشر

استلاب الشخصية

يُعنى البحث في عواقب الصراعات غير المصرّفة الدخول إلى منطقة غير محدودة ومنطقة لم تكن قد اكتشفت إلا على نطاق ضيق. ربما يكون بوسعنا أن نقترب منها بالشروع في مناقشة بعض العلل التي تدل على أعراض مرضية مثل الاكتئاب والإدمان على المسكرات أو انفصام الشخصية آملين أن نصل إلى فهم أفضل عن اضطرابات معينة. إنني أفضل أن أمحّصها من منطلق أكثر شمولاً وأن أطرح السؤال التالي: ماذا تفعل الصراعات غير المصرّفة بطاقاتنا وباستقامتنا وبسعادتنا؟ إنني أتبنى هذا المنحى لقناعتي بأنه ليس في وسعنا أن ندرك مغزى أي اعتلال كعرض مرضي دون أن نفهم قاعدته الإنسانية الأساسية. والميل لدى طب النفس الحديث في

بلـوغ نظريـة ملائمة تفـسر الأعراض المتوفـرة يبدو أمـرًا مفهومًا في ضـوء حاجة الطبيب المعالج الذي يتعامل مع تلك الأعراض. لكنها محاولة قلما تكون عملية عدا عن كونها مشابهة لعمل مهندس معماري يبني الطوابق العليا لإحدى البنايات قبل إرساء الأساس.

لقد سبق وأشرت إلى بعض العناصر الداخلة في سؤالنا والتي هي بحاجـة إلـى تفصيل. كما أن عناصر أخرى مفهومـة ضمنًا في بحوثنا السـابقة ولا تزال هنـاك عناصر أخرى تتعين إضافتهـا. كما لا يتمثل هدفنـا في أن نـترك القارئ يسـاير فكـرة غامضة لإيـذاء الصراعات غـير المصرّفة بل ينبغي علينا إعطاء صورة واضحة وشـاملة تمامًا عن الخراب الذي توجهه لتلك الشخصية.

يقتـضي العيش مـع الصراعات غـير المصرّفة إتلافًـا مخربًا للقوى الإنسـانية، لا تسـببه مـن وقت لآخـر الصراعات ذاتها فحسـب بل المحـاولات الملتوية لإزاحتها أيضًا. وحينما يكون الشـخص منقسـمًا على ذاته فهو لن يستطيع أبدًا أن يكرس قواه بصدق نابع من القلب في أي شيء بـل يريـد دومًـا أن يطـارد هدفـين أو أكثر مـن الأهداف المتنافـرة هـذا يعني إمـا بعثرة قـواه أو إحبـاط جهوده عمليًـا. وهذا يصدق على الأشـخاص الذين تغريهـم صورهم الرائعة كصورة بير جينت بالاعتقاد أن بوسعهم التفوق في كل شيء فالمرأة في حال كهذه ترغـب أن تكون أمًّـا مثاليةً وطباخةً ومضيفةً كاملـة وأن تكون أنيقةً وأن تلعب دورًا اجتماعيًا وسياسـيًّا ذا شـأن وأن تكون زوجة متفانية

وأن تمارس عملاً منتجًا خاصًا بها. ولا حاجة للقول أن هذا أمر صعب وعندها سوف تشعر بخيبة الأمل في كل هذه المساعي كما أن طاقتها، مهما كانت كبيرة، فستؤول إلى الضياع مكتبة سُر مَن قرأ

إن إحباط المسعى الصادق حين تصطدم الدوافع المتنافرة أحدها بالآخر له صلة أشمل بالموضوع. فقد يرغب أحد الرجال أن يكون صديقًا مخلصًا لكنه يكون مستبدًا كثير المطالب بحيث يصعب تحقيق إمكاناته في هذا الاتجاه. ويريد آخر أن ينجح أطفاله في الحياة، لكنّ دافعه في السلطة وعدله الواسع يتضارب مع ذلك. ويرغب شخص آخر أن يؤلف كتابًا لكن صداعًا ممزقًا يعتريه أو يفاجئه إعياءٌ مهلك وعندها لا يستطيع أن يعبّر عما يريد. في هذا الحال أيضًا تكون الصورة المثلى هي المسؤولة. ولأنه العقل الموجّه ينبغي أن تنساب منه الأفكار الرائعة كالأرانب المنطلقة من قبعة ساحر! وحينما لا يقدر فهو ينفجر غيظًا. قد يمتلك شخص آخر فكرة رائعة يرغب في تقديمها في أحد الاجتماعات غير أنه لا يروم إظهارها بطريقة مثيرة يدفع بها الآخرين إلى الظل فحسب بل يرغب أيضًا أن يكون محبوبًا متفاديًا الخصومة وفي الوقت نفسه يتوقع السخرية بسبب تخريج احتقاره لذاته. وحصيلة ذلك أنه لا يستطيع التفكير إطلاقًا كما أن الفكرة ذات الصلة الوثيقة بالموضوع والتي ربما أراد إظهارها سوف لن تبلغ مرحلة النضوج.

و هناك شخص آخر يمكن أن يصبح رجل تنظيم جيد غير أنه وبسبب نزعاته السادية يثير عداوة كل من حوله. قلما يكون من

الضروري أن نقدم أمثلة إضافية لأننا نستطيع جميعًا أن نجد كثيرًا منها إذا أمعنا النظر في أنفسنا وفي من حولنا.

هناك استثناء ظاهر لهذا الافتقار إلى التوجه الواضح. يُظهر الأشخاص العُصابيون أحيانًا عزمًا ذا مسلك واحد مثيرًا للغرابة. فقد يضحي أناس بكل شيء حتى بكرامتهم الشخصية من أجل طموحهم وقد لا تتمنى نساء شيئًا آخر من الحياة غير الحب، وقد يكرّس بعض الآباء كل اهتمامهم لأبنائهم. ويعطي مثل هؤلاء الأشخاص انطباعًا عن الإخلاص النابع من القلب ولكن كما سبق أن عرفنا فهم في الواقع يلاحقون سرابًا يبدو أنه يقدم حلاً لصراعاتهم. إنّ الإخلاص الظاهر صنعة نابعة عن القنوط أكثر من كونها نابعة عن الكمال.

لا تكون الحاجات والاندفاعات وحدها مسؤولة عن استهلاك وتبديد الطاقات. إذ إن لعوامل أخرى في البنية الواقية الأثر نفسه. وهناك إغفال ساحات كاملة من الشخصية بسبب كبح جواب من الصراع الأساس. تظل هذه الجوانب مفعمة بالنشاط بما يكفي للتأثير ولكن ليس من المستطاع توجيهها نحو غرض بنّاء. لهذا السبب تؤلف العملية فقدانًا للطاقة يمكن أن يستخدم لتوكيد الذات والتعاون أو لغرض توطيد أواصر إنسانية حسنة. ثم هناك الانسلاخ عن الذات الذي يسلب من شخص ما قوته المحركة. بوسع هذا الشخص أن يظل عاملاً مفيدًا وقادرًا على بذل جهد لا يستهان به حينما يتعرض

لضغط خارجي غير أنه ينهار حالما يترك لوسائله الشخصية. لا يعني هذا بأنه لا يستطيع القيام بشيء بنّاء أو ممتع وقت فراغه بل يعني أن جميع قواه الخلاقة قد تذهب أدراج الرياح.

في معظم الأحيان، تتحد عوامل متنوعة من أجل خلق مساحات واسعة تتميز بالكبت الشامل. ويتعين علينا كي ننفسهم ونزيل كبتًا معيّنًا أن نعود إليه المرة تلو الأخرى ممعنين النظر فيه من جميع الزوايا التي كنا قد ناقشناها.

من المحتمل أن ينجم تبديد الطاقة أو سوء توجيهها عن اضطرابات رئيسة ثلاثة تشكل جميعًا أعراضًا مرضية للصراعات غير المصرّفة. يتمثل أحدها في التردد العام. قد يكون هذا متفشيًا في كل شيء بدءاً من الأشياء التافهة ووصولاً إلى شؤون شخصية ذات أهمية قصوى. فقد يكون هناك تذبذب لا حد له لهذا اللون من الطعام أو ذاك أو شراء حقيبة السفر هذه أو تلك والذهاب إلى السينما أو الإصغاء إلى المذياع. قد يكون من المحال التصميم على مهنة ما أو على أية خطوة ضمن إحدى المهن أو في المفاضلة بين امرأتين أو في التصميم للحصول أو عدم الحصول على الطلاق أو على الموت أو الحياة. إن القرار الذي يجب أن يتخذ والذي يتعذر إلغاؤه يمثل محنة حقيقية قد تترك إنسانًا مصابًا بالهلع وفي حال إعياء.

رغمًا عن كون ترددهم واضحًا فالناس غالبًا غير واعين به لأنهم يبذلون قصارى جهدهم لا شعوريًا لتجنب اتخاذ قرار. إنهم يماطلون

و«لا يتهيأ لهم» إنجاز الأشياء فحسب وقد يسمحون لأنفسهم بأن تسيّرها الصدف تاركين القرار لشخص آخر. وقد يحجبون النقاط الحيوية في المسائل بدرجة من الغموض لا تترك أساسًا يستند إليه للبت في شأنها. إنّ انعدام التوجه الذي يعقب ذلك لا يظهر جليًا للشخص نفسه عادة. كما أن الوسائل العديدة اللاواعية المستخدمة في التمويه على التردد المنتشر تعلّل الندوة النسبية لاستماع المحللين لشكاوى ترتبط بما هو - في حقيقته - اضطراب شائع.

يتمثل مظهر آخر من مظاهر الطاقات المجزأة في وجود خمول شامل. إنني لا أقصد هنا عدم البراعة في حقل معين قد يكون سببه الافتقار إلى التدريب أو نقص الاهتمام بالموضوع. كما أنه ليس قضية طاقات غير مستغلة مثل تلك التي يصفها وليم جيمس في بحث ممتع.

مشيرًا إلى الحقيقة في أن خزينًا من الطاقة يصبح متوفرًا حينما لا يستسلم المرء لأي من صور الإعياء أو تحت ضغط الظروف الخارجية. إن الخمول في هذا الصدد ينتج عن عجز الشخص عن بذل قصارى جهده بسبب تياراته الباطنية المتضاربة. وذلك يماثل قيادة سيارة مع الضغط على الكابح إذ لا مفر من أن تنخفض سرعة السيارة. يمكن أن ينطبق هذا حرفيًا في بعض الأحيان. فكل شيء يحاوله المرء قد ينفذ بصورة أشد بطئًا مما قد تبرره قدراته أو الصعوبة الكامنة في المهمة. ليس لكونه لا يبذل جهدًا كافيًا بل على العكس

إذ عليه أن يبذل جهدًا مغالىً فيه في أي عمل يؤديه. وقد يستغرق ساعات مثلاً في تدوين تقرير بسيط أو في إتقان أداة يدوية بسيطة. إن ما يعرقل أمره بالضبط يختلف طبعًا، فقد يعلن العصيان لا شعوريًا ضمن ما يشعر به كإكراه وقد يساق إلى تحسين كل تفصيل دقيق وهو يتميز غيظًا ضد ذاته كما أشرنا سابقًا، وذلك لأنه لم يُبلِ حسنًا في المحاولة الأولى. لا يظهر الخمول في التباطؤ فحسب، بل في الارتباك أو في النسيان أيضًا. فلا تؤدي خادمة أو ربة بيت عملها بكفاءة إذا كانت تشعر سرًا أن من الظلم أن يتعين عليها القيام بعمل وضيع وهي موهوبة. كما لن يقتصر خمولها على هذه الفعالية بالذات بل ستتخلل جميع مساعيها. هذا يعني من وجهة النظر الشخصية العمل المجهد وفي النهاية سوف تشعر بالإنهاك وبالحاجة للنوم الكثير. إن أي نوع من العمل تحت هذه الظروف يؤدي لأن يسلب جزءًا أكبر من المرء مثلما ستتضرر المركبة إذا سارت وكوابحها في حالة الإقفال.

لا يظهر الإجهاد الباطني والخمول في العمل فقط بل بدرجة ملحوظة في التعامل مع الناس أيضًا. فإذا كان أحدهم يرغب أن يكون ودودًا غير أنه في الوقت ذاته يمتعض من الفكرة لأنه يشعر بأنها مجرد مداهنة، فسيكون متكلفًا. وإذا رغب في طلب شيء ما لكنه كان يشعر أيضًا بأن ذلك حقٌ له عندها سيكون فظًا. أما إذا كان يرغب في تأكيد ذاته وظن أنه يساير أيضًا فحينها سيكون مترددًا. وإن كان يرغب بالاتصال بالناس لكنه يتوقع الرفض فسيكون

حينهـا جبانًا؛ وإذا كان يرغب في ممارسـة علاقات جنسـية لكنه يريد أيضًـا أن يُشـعر رفيقته بالإحباط فسـوف يكون فاترًا جنسيًا وهكذا. كلما كانت التيارات المتقابلة شاملة كان إجهاد الحياة أعظم.

يكـون بعض الأشـخاص على وعي بمثل هـذا الإجهاد الباطني ويصبحـون في غالبيتهم علـى وعي به فقط حينما يتزايد تحت ظروف خاصة. كما يلفت نظرهم أحيانًا في المناسبات القليلة التي يستطيعون خلالها الاسترخاء حيث يشعرون بالراحة ويصبحون عفويين.

و هم من ينسبون الإعياء الناشئ عادة إلى عوامل أخرى بصفتها المسـؤولة: كبنية هزيلة أو زيادة في حجـم العمل أو افتقار إلى النوم. إن أيًـا من هذه قـد تلعب دورًا بالفعل، لكنه دور أقل شـأنًا بكثير مما يظن في حقيقة الأمر.

ثالثًا تؤلف **العطالة** الشـاملة عرضًا مرضيًا من الاضطراب المعني بالشـأن. أحيانًـا يتهـم المرضى أنفسـهم بالكسـل لكنهـم واقعيًا لن يستطيعوا أن يتكاسلوا وينعموا بذلك. قد يكون لديهم مقت شعوري لبذل المسـاعي من أي نوع كان وقد يبررونه بالقول أنه يكفيهم فخرًا أن يمتلكـوا الأفكار وأن من واجـب الآخرين تنفيذ «التفاصيل» أي إنجـاز العمـل. قد يبدو كرههم لبذل الجهـد أيضًـا بصورة خوف من أن الجهد سـيكون ضارًا بهم. يمكن أن يكون هذا الخوف مفهومًا في ضوء الحقيقة وهي أنهم يعلمون كم يتعبون بسهولة وقد يتصاعد هذا بنصيحة الأطباء الذين ينظرون إلى الإعياء بمعناه الظاهري.

تمثـل العطالة العُصابية شـللاً لروح المبـادرة والأداء. وهي نتيجة الاغتراب عن الـذات وفقدان التوجه نحو الأهـداف بصورة عامة. فالتجربـة الطويلة في بذل جهد متوتر غير مجد يترك المريض العُصابي في فتـور همة شـاملة بكل معنـى الكلمة رغـمًا عن تخلل ذلـك أحيانًا بفـترات مـن النشـاط المحمـوم. تؤلـف الصـورة المثلـى والنزعات السادية عاملين من ضمن العوامل المتميزة التي تساهم فيها. قد يشعر الشـخص العُصـابي أن حقيقة حاجتـه إلى بذل جهد مـا هي الدليل على أنه لا يمثل صورته المثلى، بينما يبدو الأمل في القيام بشيء عاديّ رادعًـا إلى درجة عظيمة بحيث يفضل ألا يقوم به إطلاقًا، بل يمكنه إنجازه فقط في مخيلته على نحو رائع.

و يسـلبه احتقار الذات المزعج الذي تحدثه الصورة ثقته بنفسـه ولا يكـون بوسـعه أن يفعـل أي شيء جديـر بالأهميـة. فيختفـي كل حافـز وبهجـة في العمل بهذه الوسـيلة، كما لو كان ذلك وسـط رمال متحركة. إن النزعات السـادية في صورتها المكبوتة (السـادية والارتكاسـية) تجعل الشـخص يتقهقر متراجعًا عن كل شيء يبدو كعدوان، مع النتيجة في أن ما يتلو ذلك قد يمثل شللاً نفسيًا كاملاً قـل أم كثـر. تكون العطالة الشـاملة ذات دلالة خاصـة بها لأنها لا تطغى على الأداء فحسـب بل على المشاعر كذلك. وتكون الطاقة المبددة بسـبب الصراعـات العُصابية غير المصرّفـة عظيمة لايمكن أن تُسـبر أغوارها. وبما أن أمراض العُصـاب هي نتاجات حضارة

ما، فسيبرز مثل هذا الضياع للمواهب والخواص الإنسانية كاتهام خطير لتلك الحضارة.

لا يستلزم التعايش مع الصراعات غير المصرّفة تبديدًا للطاقات فحسب بل تمزيقًا في شؤون ذات طبيعة خلقية أيضًا أي المبادئ الخلقية والمشاعر جميعها والمواقف والتصرفات التي تؤثر في علاقات المرء مع الآخرين كما تؤثر في تطور المرء الخاص. وكما هو شأن الطاقات فالتجزئة تقود إلى الخسارة وهكذا فهي تؤدي فيما يتعلق بالقضايا الخلقية إلى ضياع المصداقية الخلقية أو بعبارة أخرى إلى إفساد السلامة الخلقية. يحدث مثل هذه التعويض نتيجة الأوضاع المتناقضة المتقمصة وكذلك نتيجة محاولات إخفاء طبيعتها المتناقضة.

تظهر مجموعات من القيم الخلقية المتضاربة في الصراع الأساس. ورغمًا عن جميع المحاولات في جعلها متناغمة فهي تظل نشطة جميعها. هذا يعني أن لا أحد فيها يؤخذ أو يمكن أن يؤخذ بصفة جدية. فالصورة المثلى مع كل ما تتضمنه من عناصر ومثل صادقة فهي أساسًا تمثل زيفًا وتكون صعبة في تمييزها عن الشيء الحقيقي على الشخص نفسه أو المراقب غير المدرب، مثلما يكون التمييز صعبًا بين ورقتي نقد إحداهما مزيفة والأخرى حقيقية. وكما كنا قد رأينا، فالشخص العُصابي قد يعتقد وبحسن نية بأنه يتبع مُثلاً ما وقد ينتقد نفسه عن كل هفوة ظاهرة وبهذا يعي انطباعًا لتحمسه الفائق في ملاحقة معاييره أو قد يُسكر نفسه بالتفكير والتحدث عن القيم

والمثل. ومن المؤكد أنه بالرغم من ذلك فهو لا يأخذ مُثُله مأخذ الجد وهـذا يعني أنها لا تمتلك سـلطانًا ملزمًا بالنسـبة لحياتـه. فهو يطبقها عندمـا يكون من اليسـير أو المفيد له أن يفعل ذلـك، بينما هو يحجبها بصـورة مريحة في أحيـان أخرى، وقد رأينا أمثلة من هـذه أثناء بحثنا فيما سُـمي بالبقاع المظلمة والتجزئة ضمن أقسام، وتلك أمثلة سوف لن تصدق في حال الأشخاص الذين حملوا مثلهم على محمل الجد.

وإلا فـإن كانت المُثـل أصيلة فهل كان من الممكـن أن يُضرب بها عرض الحائط بطريقة سـهلة كما في حالة ذلك الشخص الذي يدّعي تكريـس نفسـه بحماس لمبدأ مـا غير أنه ينقلـب خائنًا حالما يتعرض للمغريات؟

بصـورة عامـة تبـدو سـمات إفسـاد السـلامة الخلقيـة في نقـص الإخـلاص وزيـادة الأنانيـة الذاتية، ومـن الممتع أن نلاحـظ في هذا المجـال أن الإخلاص في كتابات زين بوديسـت يتعـادل مع الصدق وهو يشـير إلى النتيجة نفسها التي نتوصل إليها بالملاحظة السريرية، أي أنه ليس بوسـع الشخص المنقسـم في قرارة نفسه أن يكون مخلصًا كليًا.

- الناسـك: إنني أعلم حينما يمسـك الأسـد بغريمه إن كان هذا أرنبًـا بريًـا أو فيلاً فهو يبـذل جهدًا مضنيًا مـن قوته؛ فأخبرني من فضلك ما هي هذه القوة؟

– السيد: إنها روح الإخلاص (أو في الواقع هي قوة عدم المخاتلة).

إن الإخلاص، أي عدم المخاتلة، يعني «بذل كيان المرء كاملاً» وهو ذائع فنيًا على أنه «كيان بأكمله في حال الأداء»... حيث لا يبقي على شيء منه احتياطًا ولا يعبر عن شيء منه تمويهًا إذ لا شيء منه يذهب هباءً. حينما يحيا المرء حياة كهذه يقال عنه أنه أسد ذهبي الشعر، وأنه رمز الرجولة والإخلاص والصدق، وأنه إنسان قدسي.

إن الأنانية مشكلة خلقية بمقدار ما تتضمنه من جعل الآخرين يتبعون لحاجات المرء الشخصية. فبدلاً من أن يعتبروا ويعاملوا على أنهم بطبيعتهم الشخصية كائنات بشرية فإنهم يستحيلون إلى مجرد وسيلة لغاية من الغايات. فينبغي أن يُستحالوا أو يُحبوا لتخفيف قلق المرء الشخصي. إذ يجب أن يتكون لديهم انطباع للإشادة باحترام المرء الذاتي لنفسه، ويتعين أن يلاموا لأن أحدهم لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية نفسه أو أن يغلبوا على أمرهم بسبب الحاجة الشخصية للانتصار وهكذا.

إن الوسائل الخاصة التي تبرز فيها هذه المعوقات تتنوع بتنوع الأفراد. وكان معظمها قد نوقش في بعض المجالات الأخرى وهو بحاجة لأن يراجع هنا بصورة أكثر تنظيمًا فحسب. لن أحاول أن أتحدث هنا بإسهاب، لأن ذلك سيكون شاقًا. إننا لم نكن قد بحثنا النزعات السادية وأجلنا البحث فيها لأنها تعتبر مرحلة نهائية

في التطـور العُصـابي. فمهـما كان المسـار الـذي يتخذه أحـد أمراض العُصـاب في بدايته، فـإن الادعاءات اللاواعية دائـمًا ما تؤلف عاملاً من العوامل. إن البارزة منها هي كما يلي:

ادعاء الحب إن الاختلافات في المشـاعر والجهود الحثيثة التي يمكن أن تشمل بتعبير الحب أو التي يتم الشعور بها شخصيًا على أنها كذلك تثير الدهشـة الشـديدة. فقد يشـمل الآمال الطفيلية لأحد الأشخاص ممن يشعر أنه ضعيف بحيث يصعب عليه أن يحيا حياته الذاتية.

و قد يشمل في صـورته الاعتدائية كثيرًا الرغبة في استغلال الرفيق وفي الظفـر بالنجاح والتميّز والنفوذ. قـد يعبّر الحب عن حاجة لقهر شـخص مـا والانتصـار عليـه أو الاندمـاج مع شريـك والعيش من خلاله ربما بطريقة سادية. وقد يعني حاجة للحصول على الإعجاب وبهـذا يضمن التأكيد على صورة المرء المثلى. وللسـبب نفسـه في أن الحب في مدينتنا قلما يمثل حنوًا أصيلاً تسـود الخيانة وسـوء المعاملة. بعدئذٍ نشـير إلى أن الحب ينقلب إلـى احتقارٍ وكره أو عدم اكتراث. ولكن الحب لا ينقلب على عقبيه بسـهولة تامة. إذ تكون الحقيقة أن المشاعر والمساعي التي نمت وسط حب زائف تطفو على السطح في نهايـة الأمـر. ولا حاجة للقـول أن هذا الادّعاء يفعـل فعله في علاقة الآباء بالأبناء وفي الصداقة وفي الصلات الجنسية كذلك.

ادعاء الطيبة أو الإيثار أو العطف وأشـياء أخرى تكون متجانسـة مـع ادعـاء الحب. إنـه يمثـل صفة النمـط المطـاوع وهو يعـزز بنوع

خاص من الصور المثلى وكذلك بالحاجة لحجب جميع الاندفاعات العدوانية.

ادعاء **العناية والمعرفة** يكون في أوج وضوحه عند أولئك الذين يغتربون عن انفعالاتهم ويظنون أن الحياة يمكن أن يؤخذ بزمامها بالفكر وحده. فيتعين عليهم أن يتظاهروا أنهم يعلمون كل شيء وأنهم يهتمون بكل شيء لكنه يبدو أيضًا أشد مكرًا عند أشخاص يظهر عليهم أنهم مكرسون لخدمة مهنة معينة فيستخدمون هذا الاهتمام ودون وعيٍ منهم لأجل الارتقاء للنجاح والسلطة أو لغرض المنفعة المادية.

يتوفر ادعاء **الاستقامة والإنصاف** في الغالب عند النمط العدواني ولا سيما عندما تكون للمرء نزعات سادية بارزة. فهو يدرك المرامي الخفية عبر ادعاءات الحب والطيبة لدى الآخرين ويظن أنه بسبب عدم انضمامه لمظاهر النفاق المتداول المرتبط بالكرم الظاهري أو الوطنية أو التقوى أو غيرها من الصفات يظن بأنه نزيه بشكل خاص. ففي الواقع إن لديه نفاقه الخاص الذي هو من طراز مختلف. ربما كان عدم وجود الأهواء المتداولة لديه يمثل احتجاجًا مستترًا أو سلبيًا ضد القيم التقليدية. إن قدرته على قول «لا» قد لا تمثل قوةً بل رغبةً في إحباط الآخرين. وقد تكون صراحته رغبةً في الاستهزاء والتحقير. وقد تكمن الرغبة في الاستغلال خلف مصلحة الذات المشروعة التي يقرّها.

يجب أن يناقش ادعاء المعاناة بإسهاب أعظم بسبب الآراء المضطربة التي تتداول حوله. يشارك المحللون النفسيون المتشددون والمتمسكون بنظريات فرويد الرجل العادي في الاعتقاد بأن الشخص العُصابي يرغب أن يشعر بالأذى وأنه يريد أن يقلق وأن لديه حاجات لأن يعاقب. إن الفكرة السائدة بأن الشخص العُصابي يريد أن يشقى هي فكرة معروفة تمامًا.

لكن التعبير يغطي في الواقع أنواعًا من المغالطات الفكرية. إذ يفشل المؤلفون الذين يقدمون النظرية في إدراك أن الشخص العُصابي يعاني أكثر بكثير مما يعرفه وأنه يصبح عادة على وعي بمعاناته عندما يبدأ باسترداد عافيته فحسب. يتمثل ما هو أوثق صلة بالموضوع في أنهم كما يبدو لا يدركون أن لا مفرَّ من المعاناة من الصراعات غير المصرّفة لأنها مستقلة تمامًا عن رغبات المرء الشخصية. فإذا ترك الشخص العُصابي نفسه تتجه نحو الانهيار فمن المؤكد أنه لا يُحدث مثل هذا الضرر لنفسه وحدها لأنه يرغب فيه بل لأن الضرورات الباطنية تفرض عليه أن يفعل ذلك. فإن كان من النمط الذي يمحو ذاته ويبدي استعداده لتقديم الخد الآخر، فهو -على الأقل شعوريًا- يكره أن يفعل ذلك ويحتقر ذاته لهذا السبب، غير أنه يشعر بذعر لا مثيل له بسبب مشاعره العدوانية الشخصية التي يتوجب عليه المضي نحو الطرف المقابل تاركًا نفسه تُظلم بطريقة أو بأخرى.

إن الميـزة الأخـرى التي كانت قد سـاهمت في مفهـوم النزوع إلى الشـقاء هـي الميل للمبالغة أو التعبير بطريقـة مسرحية عن أية بلوى. في الحقيقـة إن الشـقاء قـد يلمـس ويعـرض للعيـان بسـبب دوافـع بعيـدة. فقد يمثل ذريعـة للفت الانتباه أو للصفح، وقد يسـتعمل لا شعوريًا لأغراض الاسـتغلال، وقد يكون تعبيرًا عن الحقد المكبوت فيسـتخدم بعدئذٍ كوسـيلة من أجل إيقاع العقوبات. هذه هي السبل الوحيدة المفتوحة أمام الشـخص العُصابي، في ضـوء تراكماته الذاتية بغيـة تحقيق غايات معفيـة. وصـحيح أيضًـا أنه غالبًا ما يعزي شـقاءه لأسـباب مزيفـة وهكذا يعطـي الانطباع في أنه يتمرغ في شـقائه دون أي سـبب وجيـه. لهـذا فقد يكـون مهمومًا بشـعوره بأنه «آثـم» بينما هـو يقـاسي في الواقـع من كونه لا يمثـل صورته المثلى. أو قد يشـعر بالضيـاع حينما يفارق شـخصًا يحبـه، ورغم أن إحساسـه يُعزى لحبه العميـق إلا أنـه في الحقيقة وبسـبب تمزقه في قرارة نفسـه لا يسـتطيع تحمـل الحيـاة وحيدًا. قد يُزيّـف عواطفه ويظن أنه يشـقى بينما يكون في الواقـع يضطـرم غيظًـا. قـد تقـاسي إحـدى النسـاء لأن حبيبها لم يبعث لها برسالة في الموعد المتفق عليه ولكنها في الحقيقة غاضبة لأنها تتمنى أن تجري الأمور كما تتوقعها تمامًا أو لأنها تشعر بالمهانة لأنها لم تكن في موضع الاهتمام. هنا يُفضَّلُ الشـقاء بصورة لا شـعورية على الاعتراف بالغيظ وبالدوافع العُصابية المسؤولة عنه ويؤكد عليه لأنه يغطي على الازدواجية المتصلة بالعلاقة كلها. وعلى كل حال، ليس

من المستطاع في أي من هذه الأمثلة أن نستدل بأن الشخص العُصابي راغب في الشفاء. ولكن ما يعبر عنه هو ادعاء لا واعٍ بالشفاء.

يتمثل خلل معين آخر في نشوء **عجرفة لا واعية**. وتعني هذه انتحال سجايا للذات لا يمتلكها المرء أو أنه يمتلكها بدرجة أقل مما يدّعيه، كما تعني المطالبة لا شعوريًا بحقه في أن يكون مهيمنًا وشاعرًا بالازدراء تجاه الآخرين. إن كل عجرفة عُصابية لاشعورية تنمو بسبب أنّ الشخص لم يعِ أية ادعاءات مزيفة. ليس الاختلاف في هذا الموضع بين عجرفة واعية وغير واعية بل بين واحدة بارزة وأخرى مخفية وراء تواضع جم وسلوك مبرر. يقبع الفرق في مدى العدوان المتيسر أكثر منه في مدى العجرفة الموجودة. في الحال الأولى يطالب أحد الأشخاص بامتيازات خاصة علنًا وفي الأخرى سيشعر بالألم إن لم تقدم إليه عفويًا. إنّ ما يبدو مفقودًا في أي من الحالين هو ما قد يسمى بالتواضع الواقعي أي الإدراك لما يقيّد الكائنات البشرية عمومًا ولما يخص المرء شخصيًا. إنّ كل مريض حسب خبرتي ينفر من التفكير أو الاستماع إلى أي قصور قد ينطبق عليه. يصدق هذا بصورة خاصة لحال المريض ذي العجرفة الخفية. فهو سيميل لأن يؤنب نفسه بقسوة لكونه قد أغفل شيئًا على الاعتراف سوية مع القديس پول أن «معرفتنا تكون تدريجية». بعكس ذلك سيفضل اتهام نفسه لأنه كان مهملاً أو كسولاً على الاعتراف أن ليس هناك من هو بوسعه أن يكون منتجًا بشكل

متساوٍ في كل الأوقات. إنّ الدلالة الأعظم تأكيدًا على وجود العجرفة الخفية تتمثل في التناقض الظاهر بين اتهام الذات مع موقفها الشديد الاعتذار والإثارة الباطنية التي تصاحب أي نقدٍ أو تجاهل من الخارج. في الغالب يتطلب الأمر ملاحظة دقيقة لاكتشاف هذه المشاعر الموجعة، إذ أن من المحتمل أن يقوم بكبتها النمط الشديد التواضع. إنه في الواقع قد يكون كثير المطالب تمامًا مثلما يكون الشخص المتعجرف بصورة علنية. كذلك لا يكون انتقاده للآخرين أقل مرارة رغم أن ما يطفو على السطح قد يمثل إعجابًا مزيلاً للذات فحسب. وهو يتوقع سرًا الكمال نفسه لدى الآخرين مثلما يتوقعه هو في ذاته مما يعني أنه يفتقر إلى الاحترام الحقيقي للشخصية الفردية الخاصة بالآخرين.

تتمثل المشكلة المعنوية الأخرى في **عدم القدرة على اتخاذ موقف محدود** وما يرافقه من **عدم الثقة**. قلما يتخذ الشخص العُصابي موقفًا من المواقف طبقًا للفضائل الموضوعية التي تتعلق بأحد الأشخاص أو بفكرة أو بمبدأ بل غالبًا ما يكون ذلك على أساس حاجاته العاطفية الخاصة. وبسبب كون هذه متناقضة لذا يمكن بسهولة استبدال حال بأخرى بسهولة. من هذا المنطلق يمكن أن يحمل العديد من الأشخاص العُصابين على تغيير آرائهم بيسر - كما لو أنهم يُرشون لا شعوريًا - بإغراء يتمثل في حنو أكبر أو مقام أعظم أو تقدير أو سلطة أو «حرية» أعظم.

ينطبق هذا على كل علاقاتهم الشخصية إن كانت هذه فردية أو بصفتها جزءًا من جماعة من الجماعات. وهم في الغالب لا يستطيعون إلزام أنفسهم بشعور أو فكرة معينة تجاه شخص آخر.

فقد يغيّر رأيهم بعض الشائعات المشكوك فيها. وقد يكون بعض الاستخفاف أو خيبة الأمل أو ما يلمس على أنه كذلك سببًا كافيًا للتخلي عن «صديق حميم جدًا». وقد تحيل بعض الصعاب حماسهم هذا إلى فتور همة. كما قد يغيرون أفكارهم الدينية والسياسية أو العلمية بسبب بعض الصلات أو الامتعاض الشخصي. وربما يتخذون موقفًا من المواقف في حديث خاص غير أنهم يتراجعون تحت أي ضغط من قبل سلطة أو جماعة دون أن يعلموا في الغالب لماذا غيروا رأيهم أو إن كانوا حقًا قد فعلوا ذلك.

قد يتجنب الشخص العُصابي لا شعوريًا التردد الواضح بعدم استقراره على قرار ما في المقام الأول من خلال «الجلوس على التل» تاركًا جميع الخيارات قائمة. وقد يسوغ مثل هذا الموقف عن طريق الإشارة إلى الملابسات الواقعية للوضع أو قد يكون مقيّدًا من قبل «كياسة» قسرية. مما لا ريب فيه أن الكفاح الأصيل لتحقيق العدالة شيء ثمين. كما أن رغبة الضمير الحي في جعل المرء عادلاً لا تسهل له اتخاذ موقف محدد في كثير من الأحوال ولكن العدالة يمكن أن تكون جزءًا مفروضًا للصورة المثلى ووظيفة العُصابي حينئذ، هي كون اتخاذ موقف ما أمرًا غير ضروري، بينما يتيح للشخص في الوقت

نفســه، الشعور بأنه «منســجم» لكونه فوق أساليب الكفاح البين. في هـذه الحالة، هناك ميل في صعوبة التمييـز بفكرة الاعتقاد، بأن اثنتين مـن وجهات النظر ليسـتا في الحقيقة متناقضتين جـدًا، أو وجود حق لـكلا الطرفين في نزاع من النزاعات. إنها أمور موضوعية كاذبة تلك التي تمنع شخصًا ما من تمييز نقاط الخلاف الجوهرية لأي مشكلة.

هنـاك فوارق عظيمة حول هذا الشـأن بين مختلـف أنواع أمراض العُصـاب. يمكـن أن يتوفر أعظم قـدر من الموضوعيـة لدى أولئك الأشـخاص المنعزلـين ممـن كانـوا قـد ظلـوا خـارج دوامة المنافسـة والارتباطـات العُصابيـة والذيـن لا يخدعون بسـهولة عـبر «الحب» أو الطمـوح. كذلـك يتيـح لهـم موقفهم موقـف المتفرج تجـاه الحياة موضوعيـة كبـيرة في أحكامهـم في الغالـب. غـير أنه لـن يتوفر لكل شـخص منعزل أن يستقر على موقف من المواقف. فقد يكره الجدال أو الالتـزام لأنه لا يتخذ وضعًا محـدودًا حتى في ذهنه الخاص بل هنا تختلط لديه نقاط الخلاف، أو في أفضل الأحوال يتذكر الخير من الشر والصواب من الخطأ دون التوصل إلى قناعة خاصة به.

يبـدو النمط العدواني مـن جهة أخرى على النقيـض مع التحقق بـأن الشـخص العُصابي كأمـر ثابت يواجـه صعوبة في اتخـاذ موقـف من المواقف. فهو يبدو شـديد الميل للاستقامة الصارمة وليس ممتلكًا لقابليـة غير عادية نحو الآراء المحدودة ومدافعًا ومتمسـكًا بها. لكن المظاهـر خادعة، فحينما يكون هذا النمـط واضحًا فالحال تعني غالبًا

اعتداده برأيه أكثر من أنه يمتلك قناعات أصيلة. ستتصف آراؤه بأنها ذات ميزة جزمية أو متعصبة لأنها تحدّ من كل الريب النابعة في دخيلة نفسه، وفوق هذا فهو يمكن أن ينخدع ببعض المغريات. كما تقتصر إمكانية الثقة لديه على بعض دوافعه في التسلط والظهور.

يمكن أن يكون موقف الشخص العُصابي من المسؤولية غامضًا. يرجع هذا جزئيًا إلى الحقيقة في أن الكلمة ذاتها تمتلك معانٍ مختلفة. قد تشير إلى الضمير الواعي في تنفيذ الواجبات أو الالتزامات. إذا كان الشخص العُصابي مسؤولاً بهذا المعنى فإن ذلك يعتمد على بنيته الخلقية الشخصية؛ إنه أمر لا تشترك فيه جميع أمراض العُصاب. وقد تعني المسؤولية تجاه الآخرين الإحساس بالمسؤولية عن أفعال المرء الشخصية بقدر ما تؤثر هذه شخص آخر لكنها قد تمثل أيضًا وسيلة السيطرة على الآخرين. حينما تعني المسؤولية إلزام المرء وتحمله اللوم يومئذ قد تصبح مجرد تعبير عن الغيظ لأن المرء لا يمثل صورته المتكاملة وهي بهذا المعنى لا علاقة لها بالمسؤولية الحقيقية.

فإذا كنا على بيّنة تمامًا مما يقصد بتحمل المسؤولية تجاه الذات فسوف نفهم أنه من الصعب، إن لم يكن مستحيلاً، تحملها من قبل أي شخص عُصابي. إنها تعني في المقام الأول الاعتراف بالأمر الواقع وبنوايا المرء وكلماته أو أفعاله وبكونه راغبًا في تحمل العواقب، سيكون هذا نقيض الكذب أو إلقاء التبعية على الآخرين. سيكون تحمل المسؤولية بهذا المعنى شاقًا للشخص العُصابي لأنه كأمر ثابت

لا يعـرف مـاذا أو لمـاذا يفعل ذلـك ولديه مصلحة شـخصية قوية في جهلـه هـذا. لذلك السـبب يحـاول في الغالـب التخلص مـن الخطأ بالإنكار والنسيان والاسـتخفاف وبتقديم دوافع أخرى بصورة غير متعمدة شاعرًا بأنه قد أسيء فهمه أو أنه أصيب بالارتباك.

و بسـبب ميله لاسـتثناء نفسـه أو إبعادها من التبعية فسـيفترض فـورًا أن زوجته أو شريكه في العمل أو محلله النفسي هم المسـؤولون عـن ظهـور أيـة مصاعـب. وفي الغالب يسـاهم عامل آخـر في عدم قدرتـه علـى تحمـل عواقـب أفعالـه أو حتـى في أن يراهـا، ويتمثـل ذلك في إحسـاس خفـي يتصل بالقـدرة الثابتة وعلى أساسـه يتوقع أن يفعـل ما يشـاء ويتملص ممـا يشـاء. إنّ إدراك العواقب التي لا بد منهـا سـيقرض هذا الإحسـاس. ويبدو أحد العوامـل الأخيرة ذات الصلـة بالموضوع لأول وهلة على أنه عجز ثقافي عن التفكير بصيغة السـبب والنتيجة. وبشـكل عام يعطي الشـخص العُصابي انطباعًا عن كونه قادرًا فطريًا على التفكير بأسـلوب الخطأ والعقاب. ويشعر كل مريـض تقريبًـا أن المحلل ينحي عليه باللائمـة عندما يواجهه هذا في الحقيقة بمصاعبها وعواقبها. وقد يشعر عندما يكون خارج التحليل النفسـي بأنه كمتهـمٍ واقع تحت تهديد الريبـة والتهجم ولذلك يكون في حـال دفاع دائمـة. وفي حقيقة الأمـر إن هذا تخريـج متعلق بأمور نفسية متداخلة. إن الأصل الذي تنشأ عنه الشكوك والنوبات يتمثل في صورته الشـخصية المثلـى مثلما رأينا. إن ما يجعـل صعوبة تصوره

لعلاقة السـبب والنتيجة متى اتصل الأمر بذاته، كونه يكمن في تلك العمليـة الباطنيـة في البحـث عن العيـوب والدفاع عنهـا إضافة إلى تخريجهـا. وعندما تختفي مصاعبه، فإن بوسـعه أن يكـون واقعيًا كأي شخص آخر تمامًا. فإذا ابتلّت الطرقات بفعل المطر فهو لن يسأل عن المسبّب بل يتقبل الأمر بسهولة.

حينـما نتحـدث عـن تحمـل المسـؤولية عـن الـذات فإننـا نقصد بالإضافـة لذلـك القدرة علـى الثبات إلـى جانب ما نعتقـده صوابًا والرغبـة في تحمـل العواقب إن ثبت أن فعلنـا أو قرارنا كان مغلوطًا. ويكـون هذا من الصعوبة بمكان أيضًا حينما يكون المرء منقسـمًا على نفسـه من جراء الصراعات. إذًا، لأي نزعة من النزعات المتعارضة في ذاتـه ينبغي عليه أو يكون بوسـعه أن يَثبُت؟ إنّ أيـا لا يمثل ما يريده أو يؤمـن به حقًا. وهو يسـتطيع فعـلاً أن يركض إلـى صورته المثلى فحسـب. وهذه لا تسـمح له بإمكانية الوقوع في الخطأ. من هنا كان عليه لو قاده عمله إلى مشـكلة أن يزيّف الأمور منحيًا باللائمة على شخص آخر.

ثمة مثال بسيط سيوضح هذه المعضلة. يتحرق أحد الرجال شوقًا ليرأس مؤسسة ما أو يكون من ذوي النفوذ الواسع. فلا شيء يمكن أن يجعله يقنع نفسـه بتكليـف الواجبات للآخرين ممـن كانوا أفضل اسـتعدادًا للتعامل مع شؤون معينة بسبب تدريبهم الخاص. إذ ليس هنـاك من شيء يجهله حسـب وجهة نظره الخاصـة. وفوق ذلك فهو

لا يريد لأي شخص آخر أن يصبح مرموقًا مثله. كما سيكون من المستحيل مواكبة آماله حتى وإن كان ذلك بسبب نقص في الزمن أو الطاقة. لكن هذا الرجل بالذات لا يريد أن يتسلط فحسب فهو مطاوع أيضًا وبحاجة لأن يكون رجلاً فاضلاً بصورة تفوق قدرة البشر. ونتيجة لصراعاته غير المصرّفة فهو يمتلك كل الأعراض المميزة التي كنا قد وصفناها: كالعطالة أو الحاجة إلى النوم والتردد أو المراوغة ولذلك ليس بوسعه أن ينظم وقته. إنه يستمتع سرّا في تلكؤ الناس بسبب شعوره أن المحافظة على المواعيد شيء لا يطاق وهو إضافة لذلك يقوم بأشياء كثيرة تافهة لمجرد أنها ترضي غروره. أخيرًا إنّ حافزه في أن يكون رب عائلة وحريصًا يستنفد كثيرًا من وقته وتفكيره. مما لا شك فيه بعد ذلك أنّ الأمور في المؤسسة لا تسير على خير ما يرام؛ لكنه لعدم رؤيته أي خلل في ذاته يلقي اللوم على الآخرين أو على الظروف غير المواتية.

دعنا نسأل الآن، أيّ جزء من شخصيته هو قادر على تحمل المسؤولية؟ هل بسبب ميله للتسلط أو ميله نحو المطاوعة والتهدئة وإرضاء ذاته؟ إبتداءً هو لا يعي أيًا منها. غير أنه إذا كان يعيها فهو لن يستطيع الاعتماد على أحدها مطوحًا بالأخرى بسبب كونهما قسريتين. وفوق ذلك لا تسمح له صورته المثلى لأن يبصر أي شيء في ذاته باستثناء الفضائل الرائعة والقابليات الواسعة. من هنا لا يستطيع تحمل المسؤولية للعواقب الناجمة عن صراعاته. عند قيامه بذلك سيبدو واضحًا كل ما هو في شوق من أجل كتمانه عن ذاته.

يكون الشـخص العُصابي عند التحدث بشـكل عام في حال نفور من تحمل المسؤولية لعواقب أعماله، فهو يغمض عينيه حتى عن تلك التـي تبدو بارزة جدًا. ولكونه غير قـادر على التملص من صراعاته ويُصرّ -لاشعوريًا- على أن يُوصف بالقوة مثلما هو ينبغي أن يكون قـادرًا على مقارعـة تلك الصراعـات. فالعواقب كـما يعتقد هو ربما تأخذ بتلابيب الآخرين أما بالنسـبة له فهي لا وجود لها. لهذا السبب يجب أن يواصل تفادي أي اعتراف بقوانين المسببات والنتائج. بوسع هذه أن تلقنه درسًـا قويًا لأنه كان سـيفتح لها آفاق ذهنه فحسـب. إذ تبرهن له بطريقة لا سبيل إلى الخطأ فيها أنّ نظام حياته لا جدوى منه وأنه مع كل دهائه وسـعة حيلته فهو لا قدرة له لأن يزحزح القوانين المؤثرة في حياتنا النفسية بالعناد عينه مثلما هي الحال في العالم الطبيعي.

في الحقيقـة لا يمتلـك موضوع المسـؤولية كلـه إلا جاذبية ضئيلة بالنسـبة له. فهو يبصر - أو يشـعر بصورة مبهمة - جوانبها السـلبية فحسب. وما لا يبصره وما يتعلم عن أن يقدّره تدريجيًا هو كونه يحبط جهوده الكبيرة من أجل الاسـتقلال. إنه يأمل الفوز بالاستقلال من خـلال إقصـاء جميـع الالتزامـات بجرأة بينـما يمثل تحمل المسـؤولية بالنسبة لأي إنسان حالاً لا غنى عنها للحرية الباطنية الفعلية.

يلجـأ الشـخص العُصـابي لأية وسـيلة من ثـلاث وسـائل أو في الغالـب جميعهـا كـي لا يقـر بأن معضلاته وشـقاءه ينشـأان بسـبب مصاعبـه الباطنيـة. قد يسـتعمل التخريج هذا إلى حـدّ الثمالة حيث

يلقي اللوم على كل شيء بسبب تناول الطعام والمناخ أو البنية الموروثة عن الأبوين أو الزوجة أو القدر حيث يعتبرها جميعًا مسؤولة عن الكارثة المعنية. أو قد يلجأ إلى الموقف الذي يشير إلى أنه بسبب عدم مسؤوليته عن أي خطأ فمن الظلم أن يصاب بأية مصيبة. من الظلم أن يمرض أو أن يكبر في السن أو أن يموت أو ألّا يكون سعيدًا في زواجه أو يحظى بطفل متعب أو أن يظل مغمورًا. هذا النوع من التفكير والذي قد يكون واعيًا أو غير واع تفكير خاطىء بصورة مزدوجة لأنه لا يقصي قسطه الخاص من مصاعبه بل كذلك كل العوامل المستقلة عن ذاته والتي لها صلة بحياته. ومع ذلك فهو يمتلك منطقًا خاصًا به. إنه يمثل التفكير النموذجي لكائن منعزل يدور حول ذاته كليًا وممن تحول أنانيته دون أن يرى ذاته كحلقة صغيرة في سلسلة أضخم.

وهو يعتبر ببساطة أن من المفروغ منه أن ينبغي أن يستمد كل أطايب العيش في وقت معين وفي نظام اجتماعي ثابت لكنه يمتعض من كونه مرتبطًا مع الآخرين خيرًا أو شرًا. لهذا السبب ليس بوسعه أن يرى لماذا ينبغي عليه أن يشقى من أي أمر لم يتورط هو فيه شخصيًا.

ترتبط الوسيلة الثالثة برفضه إدراك العلاقات بين السبب والنتيجة. إذ تبدو العواقب من وجهة نظره كأحداث منفصلة غير مرتبطة بذاته أو بمصاعبه. قد يبدو الانقباض أو الخوف من المرض

نازلاً عليه من السماء. وربما يعود هذا للجهل النفساني إو الافتقار للملاحظة. لكن بوسعنا أن نشاهد أثناء التحليل أن المريض يبدي أشد العناد في المقاومة ضد الاضطلاع بأية معرفة عن الصلات المتناهية في الدقة. فقد يظل ميالاً للشك أو النسيان، أو قد يشعر أن المحلل يلقي «اللوم» عليه ويحفظ ماء وجهه هو بلباقة بدلاً من إزاحة الاضطرابات المزعجة على عجل والتي حضر من أجلها. إذًا فربما يكون المريض قد أصبح على اطّلاع بالعوامل !المتعلقة بتعطله لكنه يوصد عقله دون الحقيقة الواضحة وهي أن تعطله هذا لا يؤخر تحليل نفسه فحسب بل كل شيء يقوم به. أو ربما يكون شخص آخر عالمًا بسلوكه العدواني المتقض تجاه الناس غير أنه لا يستطيع أن يفهم لم تشتد لديه الخصومات ولم أنه لا يحب كثيرًا. إن هذه المصاعب توجد في قرارة نفسه هذا شيء ولكن مشاكله الواقعية من يوم لآخر هي شيء آخر. يمثل هذا العزل لمشاكله الباطنية وتأثيرها على حياته أحد الأسباب الرئيسة في الميل نحو التجزئة والتقسيم.

تكون المقاومة مخفية بعمق ضد إدراك عواقب الاتجاهات والدوافع العُصابية في أغلب أجزائها وقد يغفلها المحلل بسهولة لأن العلاقة السببية جلية جدًا بالنسبة له. وما لم يلفت نظر المريض إلى أنه يخفي عن ذاته العواقب وما لم يعرف لماذا يقوم بذلك فلن يكون باستطاعته أن يدرك إلى أي مدى يتدخل هو في حياته بالذات. إنّ الوعي بالعواقب يمثل أقوى العوامل الباعثة على الشفاء في التحليل

إذ إنـه يطبع في ذاكرة المريض أنه لا يسـتطيع بلوغ الحرية أبدًا إلّا بعد تغيير بعض الأشياء في قرارة نفسه بالذات.

إذا لم يكـن مـن المستطاع بعـد ذلك أن يلـزم الشـخص العُصـابي بمسـؤولية ادعاءاتـه وعجرفتـه وأنانيتـه وتهربـه من المسـؤولية فهل نسـتطيع التحـدث بلغـة «الأخلاقيـات» أصلاً؟ سـتثار الحجـة بأننا كأطبـاء، بحاجـة فقط إلى توجيه عنايتنا لعلـة المريض ولعلاجه وأن «أخلاقياته» ليسـت مـن اختصاصنا. وسـيكون واضحًـا أن إحدى ميـزات فرويد العظيمة كانت اضطراره لطـرح الموقف «الأخلاقي» جانبًا والذي يبدو أنني أدعو إليه.

تعتـبر مثل هـذه المناظـرات ذات طابـع علمي، لكن هـل يمكننا الدفـاع عنهـا؟ هل نسـتطيع حقًا بحالة السـلوك الإنسـاني أن نقضي أحكامًـا ذات صلـة بالصواب والخطـأ؟ إذا قرر محللـو النفس ما هو بحاجـة إلـى الفحص التحليـلي وما ليس بحاجة لذلك ألا يسـيرون حقًـا على أسـس الأحكام نفسـها التي يرفضونها وهم يشـعرون؟ هناك مجازفـة في مثل هذه الأحكام الضمنية. فمن المحتمل أن تصدر إما على أسـاس شـخصي بحت أو تقليدي بحت. لذلك فقد يشـعر «المحلـل أن لا حاجة لتحليل المغازلات لأحد الرجال بينما تسـتحق مغـازلات أية امرأة إمعـان النظر فيها أو إذا آمـن بحياة نظيفة خارج دوافـع الجنـس فقد يقرر أن الإخلاص إن كان لـدى الرجل أو المرأة بحاجة الى التحليل النفسي. حقًا ينبغي أن تقرر الأحكام على ضوء

عُصاب المريض الخاص. إن القضية التي يتعين البت فيها هي إذا خلّف أحد المواقف لمريض ما عواقب وخيمة بتطوره أو بعلاقاته مع الناس. فإذا كان كذلك فالموقف خاطئ وبحاجة للمعالجة. ينبغي أن يعبر للمريض عن أسباب استنتاجات محلل النفس على نحو واضح لكي تمكنه من اتخاذ قراره بهذا الشأن.

و أخيرًا ألا تتضمن الحجج أعلاه المغالطة نفسها التي تعشش في ذهن المريض أي أن الأخلاقيات هي قضية تقدير فحسب وليست في الأساس أمرًا يرتبط بحقيقة مقرونة بنتائج. دعنا نأخذ العجرفة العُصابية كمثال. فهي توجد كحقيقة بغض النظر عما إذا كان المريض مسؤولاً أم لا. يعتقد المحلل أن العجرفة مشكلة بالنسبة للمريض يتعين أن يدركها وفي النهاية أن يتغلّب عليها. فهل يتخذ هذا الموقف الحاسم لأنه كان قد تعلم في مدرسة دينية أن العجرفة إثم وأن التواضع فضيلة؟ أم هل يتحدد اجتهاده في أنّ العجرفة تبدو غير واقعية وأنّ لها عواقب مضادة لابد أن يتحمل المريض عبأها وبغض النظر عن مسؤوليته؟ إنّ العواقب في حال العجرفة تقف حائلاً دون معرفة المريض لذاته وهكذا تخذل تطوره. ويميل المريض المتعجرف إلى كونه غير منصف تجاه الآخرين أيضًا ولهذا مضاعفاته، ليس في تعريضه للاصطدامات مع الآخرين بين الحين والحين فقط بل في انسلاخه عن الناس عمومًا أيضًا. وهذا لن يعمل إلّا على إيغاله في عُصابه بصورة أعمق. لا يمتلك محلل النفس خيارًا غير أن يهتم

بأخلاقيـات المريـض لأنها تنتج جزئيًا عن عُصابه وتسـاهم جزئيًا في الإبقاء عليه.

الفصل الحادي عشر

القنوط

أحيانًا يكون بإمكان الشخص العُصابي أن يبدو راضيًا برغم صراعاته، فيستطيع أن ينعم بالأشياء التي يشعر أنه في حال انسجام معها. غير أن سعادته تتوقف على ظروف كثيرة جدًا من أجل السماح بحدوثها بين آونة وأخرى. فهو لن يُسعد بأي شيء، مثلاً، حينما يكون بمفرده أو ما لم يشرك به شخصًا آخر وما لم يكن هو العامل المهيمن أو ما لم يمتدح من الجوانب كافة. وتقل الفرصة أكثر من ذلك من خلال تناقض الظروف التي تبعث على السعادة. فقد يكون سعيدًا بسبب اضطلاع شخص آخر بالترؤس لكنه قد يغتاظ من ذلك في الوقت نفسه. وقد تستمتع امرأة بنجاح زوجها غير أنها أيضًا قد تحسده على ذلك. قد تستمتع هي بإقامة حفلة غير أنها تحب

أن تُعد كل شيء بصورة رائعة ولكنها متعبة للغاية قبل بدء الاحتفال. وحينما يجد الشخص العُصابي سعادة مؤقتة فعلاً، فسرعان ما تُعكر عليه لسرعة تأثره ومخاوفه المتعددة الجوانب

و فوق ذلك تأخذ الحظوظ العاثرة التي تصادف أي فرد أبعادًا لا مبرّر لها في ذهنه. فقد يغمره الانقباض لأي فشل تافه لأن ذلك يثبت ضآلة شأنه العام حتى لو كان ذلك بسبب عوامل خارجة عن سيطرته. إن أية ملاحظة بنّاءة قد تثير لديه القلق أو تجعله يستغرق في التفكير، وهكذا. وكنتيجة لذلك فهو عادة يصير أكثر حزنًا وسخطًا مما تبرره الظروف.

هذه الحال تتفاقم من خلال اعتبار آخر وكما يبدو تستطيع الكائنات البشرية أن تتحمل مقدارًا مذهلاً من البؤس طالما تتوفر هناك بارقة أمل غير أن التعقيدات العُصابية تحدث مقدارًا ثابتًا من القنوط؛ وكلما كانت التعقيدات أشد قسوة كان القنوط أعظم، قد يكون هذا دفينًا بصورة عميقة، إذ قد يكون الشخص العُصابي منهمكًا بصورة مصطنعة في تخيّل وتخطيط ظروف قد تبدل الأوضاع نحو الأحسن، كأن يكون متزوجًا أو لديه «شقة» أوسع أو لو كان هناك رئيس عمال آخر أو زوجة أخرى أو لو كانت رجلاً بدلاً من كونها امرأة وأكبر سنًا أو أصغر بقليل أو أطول بعض الشيء أو ليست طويلة على الإطلاق، إذًا لكان كل شيء على خير ما يرام بعد ذلك. إنّ إقصاء عوامل مقلقة في بعض الأحيان يبرهن فعلاً أنه عون

حقيقي، مثل هذه الآمال غالبًا ما يجسد المصاعب الباطنية فحسب، حيث يحكم عليها بالفشل، ويتوقع الشخص العُصابي عالمًا من الخير وسط التغييرات الخارجية لكنه لا بد أن يحمل نفسه وعُصابه ضمن أية حال جديدة.

من الطبيعي أن يكون الأمل المستند على عوامل خارجية أكثر انتشارًا بين الشباب وذلك يمثل أحد الأسباب في أن تحليل النفس لشاب يافع جدًا أقل بساطة مما قد يتوقعه المرء. حينما يصبح الناس أكبر سنًا ويتلاشى عندهم أمل بعد آخر فهم يصبحون أكثر رغبة في تفحص أنفسهم بإمعان بصفتها مصدرًا محتملاً للشقاء.

وعندما يكون الإحساس العام بالقنوط غير واقع فإن وجوده وقوته يمكن أن تستنبط من مؤشرات متفرقة. قد تكون هناك سلسلة أحداث في سيرة الحياة تكشف عن رد فعل الشخص تجاه إحباطات معينة كانت شديدة ولفترة زمنية لا تتناسب كليًا مع الباعث عليها. لهذا السبب قد يقابل المرء قنوطًا كاملاً ناتجًا ظاهريًا عن حب غير متكافئ أثناء فترة المراهقة أو بسبب خيانته من صديق أو لإقصاء ظالم من العمل أو عن الفشل في الامتحانات. حقًا قد يحاول المرء أولاً أن يسبر غور ما حصل من أسباب خاصة ترتبط بمثل رد الفعل العميق هذا. لكنه سيكتشف عادة بأن التجربة المؤسفة تستنزف بئرًا أعمق غورًا بكثير من القنوط. بصورة مماثلة يشير الاستغراق في التفكير بالموت أو بأفكار الانتحار الآنية لظهور قنوط شامل حتى

وإن بـدا الشـخص بمظهـر كاذب مـن التفـاؤل. إنّ طلاقة اللسـان الشـاملة ورفـض التعامـل جديًـا مـع أي شيء -إن كان ذلك ضـمن وضع التحليل أو خارجه - يمثل مؤشرًا آخر مثلما يمثل ذلك هبوط الهمـة السريع أمـام إحدى المصاعب. يرتبط بهذه الحـال كثير مما كان فرويد قد عرّفه كرد فعل علاجي سلبي. إنّ أي نفاذ بصيرة جديد قد يتيح مخرجًا، رغمًا عن كونه مؤلمًا، وقد يبعث على هبوط الهمة وعدم الرغبـة في المـضي قُدُمًـا عبر صعوبة العمـل وعدم الرغبـة في مقارعة معضلـة جديـدة. يبرز هذا في بعـض الأحيان كما لـو كان المريض لا يثق بنفســه في التغلب على الصعوبة المحدودة، ولكنه في الواقع يعبر عن فقدان الأمل في الاسـتفادة من التجربة. ومن المنطقي بالنسـبة له في هذه الظروف الشـكوى من أنّ التبصر يؤلمه أو يخيفه وأن يمتعض مـن الإزعاج الذي يسـببه له المحلل. كذلك يمثـل الانهماك في التنبؤ بالمسـتقبل علامـة على القنـوط. وعلـى الرغم من أن هـذه قد تبدو أمرًا ظاهريًا بصورة قلق من الحياة بشـكل عام أو بسـبب أن المرء قد يؤخذ على حين غرة أو بسبب الوقوع في الأخطاء لكننا سنلاحظ في مثل هذه الأحوال أنه يُعدُ نظر مشـوب بالتشاؤم بصورة دائمة. يشبه الكثير من العُصابيين شخصية كساندرا فكثيرًا ما يتوقعون شرًا وقلما يتوقعـون خيرًا. ينبغي أن يبعث هذا التركيز على الجانب المظلم بدلاً من الجانـب المشرق من الحياة على الارتياب بوجود قنوط شـخصي عميق مهما كان مبررًا ببراعة. أخيرًا هناك حالة الاكتئاب المزمن التي

يمكن أن تكون مخفية بدهاء تمامًا بحيث لا يخطر للمرء بأنها حالة اكتئاب.

قد يؤدي الأشخاص المبتلون بها أعمالهم بصورة جيدة وبوسعهم أن يكونوا لطفاء وأن يستمتعوا بأوقاتهم لكنهم قد يستغرقون ساعات قبل أن يوقظوا أنفسهم في الصباح وقبل أن تدبّ فيهم الحياة ليصبروا على مرارة العيش مرة أخرى. تكون الحياة عبئًا ثقيلاً إلى درجة عظيمة بحيث أنهم قلما يشعرون بها كحياة رغمًا عن كونهم لا يتذمرون منها. غير أن عزائمهم تكون في حالة دائمة لانحسار شديد.

و بينما تكون أسباب القنوط لا شعورية بشكل دائم فإن الإحساس ذاته قد يكون ملموسًا بكل معنى الكلمة. ربما يتولد لدى شخص ما شعور غامر بالهلاك أو قد يتخذ موقفًا مستسلمًا تجاه الحياة بصورة عامة وهو لا يتأمل أي خير، شاعرًا ببساطة أن الحياة يجب أن تجرع. أو قد يُعبر عن ذلك بصيغ فلسفية قائلاً ما معناه أن الحياة هي في أساسها مأساة وأنّ البلهاء فحسب هم الذين يخدعون أنفسهم بالنسبة لقدر الإنسان المحتوم. قد يحصل لدي المرء انطباع فوري لقنوط المريض خلال المقابلة الأولية. إذ سيكون غير راغب في تقديم أقل تضحية أو تحمل أدنى إزعاج أو تحمل أتفه المجازفات. بعد ذلك قد يعطي الانطباع في كونه مستغرقًا في الاهتمام بذاته، لكنه في الحقيقة لا يرى سببًا ملزمًا لتقديم تضحيات عندما لا يأمل أن يخرج

مـن ورائهـا بِطائل. ويمكـن أن تشـاهد مواقف مماثلة خـارج تحليل النفـس. إذ يسـتمر أناس في مواقـع لا ترضيهم مطلقًـا وهم قادرون علـى تحسـينها بشيء مـن الجهـد والمبادرة. كـما أنّ أحد الأشـخاص قد يكون مشـلولاً شـللاً كاملاً بسـبب قنوطه بحيث تبدو المصاعب المعتدلة أمامه كعقبات أداء لا يمكن تذليلها.

قـد تـؤدي ملاحظـة عابـرة أحيانًـا إلـى ظهور هـذه الحـال. فقد يستجيب أحد المرضى متسائلاً لقول المحلل أن مشكلة ما لم تحل بعد وهـي تتطلـب جهدًا إضافيًا: «أنـت لا تظن أنّ الأمـر ميئوس منه؟» وعندمـا يصبح شـاعرًا بقنوطه فهو في حقيقته لا يسـتطيع أن ينسـبه لـشيء. أو مـن المحتمل أن ينسـبه لعوامـل خارجية أخـرى بدءًا من مهنته أو زواجه ثم إلى الحال السياسـية. لكنه لا يرجعها لأي سـبب أو ظرف مادي ثابت أو مؤقت. إنه يشعر بالقنوط لأنه لم يستطع أبدًا أن يصنـع مـن حياته شـيئًا أو القـدرة لأن يكون سـعيدًا أو حرًا على الإطلاق. ويشعر بأنه مستثنى من كل ما يجعل حياته ذات مغزى.

ربما كان سفرين كيركجارد قد قدم أكثر الإجابات عمقًا. إذ يقول في مؤلفـه المـرض نحو الموت إن كل قنوط هـو في حقيقته من العيش على سـجيتنا. وقد أكد الفلاسفة في كل العصور على الأهمية البالغة في أن نحيا على سـجيتنا، وعلى شـعورنا باليأس الشـديد المصاحب للشـعور بأننا نُمنع من التوصـل إليها. إنها الفكـرة الثابتة في كتابات زيـن بوديسـت. وهنـا لا أجـدُ بُـدًا مـن أن أقتبـس من بـين المؤلفين

المحدثين هذا القول من جون ماكمري: «أي مغزى آخر يمكن أن يكون لوجودنا أكثر من أن نحيا كما نحن تمامًا وبكل ما في الكلمة من معنى».

يمثل القنوط ذروة نتاج الصراعات غير المصرّفة، الممتدة في أعماق اليأس المرتبط بعدم عودة المرء إلى نفسه السليمة وغير المجزأة أبدًا. تقود نسبة مرتفعة من المعضلات العُصابية إلى مثل هذه الحال. إن أساس ذلك يتمثل في الشعور بكون المرء أسير صراعاته كطير في شباك دون أن تلوح أبدًا فرصة واضحة لإنقاذ نفسه. على رأس ذلك تأتي جميع محاولات الحل التي لا تقوده للفشل فحسب بل تُقصي الشخص بعيدًا عن ذاته بصورة مضاعفة. إذ تقود الخبرة المتكررة إلى تكثيف القنوط. فالمواهب التي لا تؤدي إلى النجاح بسبب الطاقات المبعثرة في مختلف الاتجاهات، المرة تلو المرة، أو بسبب المصاعب المنبثقة عن أية عملية خلّاقة، تكون كافية لردع الشخص عن الاستمرار في المثابرة. وقد ينطبق هذا أيضًا على أمور الحب وقضايا الزواج والصداقات التي تتحطم الواحدة تلو الأخرى. مثل هذا الفشل المتكرر يوهن العزيمة؛ مثلما تبدو حال فئران المختبر بعد أن تتكيف للقفز داخل فتحة معينة للحصول على الطعام، ثم حين تقفز المرة تلو المرة تجد الفتحة موصدة في وجهها.

و فوق ذلك هناك المشروع الذي لا طائل من ورائه والمتمثل في محاولة الارتقاء إلى مستوى الصورة المثلى. نستطيع القول بأن هذه

تمثل أعظم العوامل المسببة للقنوط ولا جدال في أن القنوط يتجسد بوضوح تام أثناء التحليل النفسي عندما يصبح المريض واعيًا في حال أبعد من أن يمثل الشخص المتكامل بصورة فريدة مرسومة في مخيلته. إنه يشعر بالقنوط في مثل هذا الوقت لا بسبب يأسه فحسب من بلوغ تلك المراقي الخيالية بل أيضًا بسب كونه يستجيب لهذا الإدراك باحتقار عميق للذات. وهذا مضر ولا شك لتوقع الفوز بأي شيء على الإطلاق سواء كان ذلك في أمور الحب أو في مشكلات العمل.

إن كل العمليات التي تتسبب في تحوّل مركز ثقل أحد الأشخاص من داخل ذاته مما يجعله يكف عن إدراك المحرك الفعال في حياته تمثل العامل الأخير من بين العوامل المساهمة في القنوط. ومحصلة كل ذلك فقدان الثقة بذاته وفي تطوره ككائن إنساني وهكذا يميل إلى الاستسلام. وإنه موقف، رغمًا عن أنه قد يمّر دون أن يلاحظ، له عواقب وخيمة بحيث يمكن تسميته بالموت النفسي. وكما يقول كيرجارد: «غير أنه رغمًا عن الحقيقة (المتصلة بيأسه).. فإنه مع ذلك قد.. يكون قادرًا على مواصلة الحياة بصورة حسنة جدًا، وأن يكون رجلاً وأن يتزوج وينجب أطفالاً ويظفر بأسباب الشرف والاحترام. وربما لا يلاحظ بعض الناس افتقاره لذاته بطريقة ما. عن أمر لا يُثير الهرج والمرج في الدنيا لأن الذات تمثل شيئًا لا يُثير لدى العالم كثيرًا من التساؤل عنه؟ إنه الشيء الذي يمثل مصدر الأشياء جميعًا، الأعظم خطرًا بالنسبة لصاحبه وهو لا يسمح للناس لملاحظة ما يستحوذ

عليه. فالخطر الأعظم هو ذلك الذي يتصل بخسارة المرء لذاته الخاصة، وقد يتلاشى بهدوء كما لو أنّ شيئًا لم يحدث، وكل خسارة لغيره، كتلك التي تتصل بفقد ذراع أو ساق أو خمسة دولارات أو ضياع زوجة، الخ.، من المؤكد أن تُلاحظ».

إنني أعلم من خلال خبرتي في الإشراف على عملي أنّ محلل النفس لا يتخيل بوضوح معضلة القنوط في الغالب، ومن هنا فهي لا تعالج بصورة لائقة. كان بعض زملائي وما يزالون يزدادون ارتباكًا بسبب قنوط المريض الذي عالجوه لكنهم لم ينظروا إليه كمعضلة وذلك قادهم لليأس الشديد. هذا حقًا موقف حاسم بالنسبة لأي تحليل للنفس إذ كيفما تضاعفت البراعة الفنية أو كيفما كان الجهد راسخًا أدرك المريض أن المحلل قد تخلى عنه فعلاً. إنّ الأمر صحيح خارج دائرة التحليل النفسي أيضًا. فليس باستطاعة أي فرد أن يكون صديقًا أو زوجًا وفيًا ما لم يؤمن أن بإمكان صاحبه تحقيق الإمكانات الكامنة فيه.

كان الزملاء قد وقعوا في الخطأ الآخر بسبب عدم إدراكهم لقنوط المريض إدراكًا كافيًا. فقد شعروا بحاجة المريض الى التشجيع ولذلك شجعوه وهو أمر جدير بالإطراء غير أنه لا يكفي أبدًا. ولو حدث هذا ولو قدّر المريض حسن نوايا المحلل لصار معذورًا تمامًا في استيائه منه لأنه يدرك جيدًا أن قنوطه هذا ليس مجرد مزاج يمكن تبديده عبر التشجيع وحسن النية.

قبل كل شيء وحتى نمسك الثور من قرنيه ونواجه المشكلة مباشرة فلندرك من خلال الدلالات غير المباشرة، كتلك المشار إليها آنفًا، بأن المريض يحس بقنوطه ولنعي مقدار ما يحس به كذلك. ثم ينبغي أن يُفهَمَ أنّ لقنوطه ما يبرّره تمامًا عبر تعقيداته. ينبغي أن يدرك المحلل وأن ينقل للمريض بجلاء أنّ موقفه أمر ميئوس منه طالما بقي الوضع الراهن وطالما تصوَّرهُ غير قابل للتغير فقط. إنّ المشكلة برمتها توضح بصورة مبسطة عبر مشهد في قصة چيخوف الموسومة حديقة الكرز. إذ يخيّم القنوط على العائلة المشرفة على الإفلاس وعندما يهمّون بمغادرة مزرعتهم وحديقة الكرز العزيزة، يتقدم منهم أحد الوجهاء مقترحًا بناء بيوت صغيرة تُؤجَّرُ وسط جزء من المزرعة. إلا أنهم بسبب أفكارهم المضطربة لا يستطيعون تبني مثل هذا المشروع ويتضاءل أملهم إذ لم يكن هناك من حلٍ آخر. ثم يتضاعف يأسهم كما لو أنهم لم يصغوا للاقتراح، ويتساءلون إن كان بوسع أحد أن يُسدي لهم النصح أو يمد لهم يد العون. فلو كان ناصحهم محللاً بارعًا لقال لهم: «إنّ الموقف محرج ولا شك. لكن ما يُضاعف اليأس فيه هو موقفكم الخاص نحوه. فلو فكرتم مليًّا في اختياراتكم في الحياة إذًا لانتفت الحاجة للإحساس بالقنوط».

إن الإيمان بأن المريض يمكن أن يتغير فعلاً، فهذا يعني حقًا أن بوسعه التصرف تجاه صراعاته، كونه العامل الذي يقرر إن كان لدى المحلل الجرأة أو عدمها لمعالجة المعضلة وإن كان بوسعه

أن يفعـل ذلـك بقدر مناسـب مـن النجـاح. في هذا الصدد تتجسـد خلافـاتي بجلاء مـع فرويد. إن سـيكولوجية فرويد والفلسـفة التي تكمـن خلفهـا تبدوان تشـاؤميتين بصـورة واضحة. وهـذا ما يطبع نظرتـه لمسـتقبل الجنس البشري. وكذلك موقفه نحـو العلاج. إنه لا يسـتطيع إلّا أن يكون متشـائمًا بسـبب افتراضاته النظرية. فالإنسـان يندفـع غريزيًـا ويمكن تحويـر الغرائز أحيانًا «بالتسـامي» فحسـب. كـما أنه لا مفر مـن إحباط دوافعه الغريزية المتجهة نحو الإشـباع من قبـل المجتمع. أما «الأنا» عنده فهي تُتَقاذَفُ هنا وهناك بلا حول ولا قوة وسـط الدوافع الغريزية و«الأنا العليا» التي يمكن أن يُشار إليها فقـط. تتميز الأنا العليا بالتحريم والتحطيم بالدرجة الأسـاس. ولا تتوفر مُثُلٌ حقيقية. أما الرغبة في الإنجاز الشـخصي فهي «نرجسية». كما أن الإنسـان بطبعه مولعٌ بالتخريب وتضطره «غريزة الموت» لأن يُدمّر الآخرين أو يشـعر بعـذاب النفس. هـذه النظريات لاتترك إلّا حيـزًّا صغيرًا تجـاه الموقف الإيجابي للتغير. كما أنها تحدّ من قيمة علاجٍ باهـرٍ كان فرويد قد أنشـأه. على النقيض من ذلـك فإنني أعتقد بأن النزعـات القسرية في أمراض العُصاب ليسـت غريزيـة ولكنها تنبع من صلاتٍ إنسـانية مضطربة. إنها يمكن أن تتغير حالما تتحسـن هذه الصـلات وإن أية صراعات تنبثق عن مثل هذا المنشـأ يمكن أن تُبدّد فعلاً. إنّ هذا لا يعني كون العلاج المستند إلى المبادئ التي أدعو إليها بـلا حدود. ويظل علينا أن نقوم بعمـل كثير قبل تعيين هذه الحدود،

بشكل واضح. إنها في الحقيقة تعني امتلاكنا أسبابًا مستندة لأساس متين لتقبّل حدوث تغيير جوهري.

لماذا يكون مناسبًا. بعدئذ، إدراك ومعالجة قنوط المريض؟ أولاً يتمتع هذا الأسلوب بأهميته في التعامل مع معضلات خاصة كالاكتئاب والميول الانتحارية. نستطيع فعلاً أن نقتلع الاكتئاب الفردي بمجرد إزاحة الستار عن الصراعات الخاصة التي يؤسر الشخص في شباكها عندئذ، دون المساس بقنوطه الشامل. لكننا إذا لم نرد عودة الاكتئاب مرة أخرى فسوف يتعين علينا مقارعته لأنه المنبع الأعمق الذي تنطلق منه أحاسيس الاكتئاب. وهل سيكون بوسعنا أن نكافح الكآبة المزمنة الماكرة، ما لم يتجه المرء نحو هذا المنبع الأساس؟

يصدق الأمر ذاته مع حالات الانتحار. نحن نعلم أنّ مثل هذه العوامل كالقنوط الحاد والتحدي والحقد ربما تقود إلى اندفاعات انتحارية ولكن قد يكون فات الأوان في الغالب لمنع الانتحار بعدما يصبح الحافز ظاهرًا تمامًا. من المحتمل أنّ بالإمكان تجنب الكثير من حوادث الانتحار بتركيز دقيق حول ظواهر القنوط الأقل إثارة وبواسطة طرح المشكلة على المريض في الوقت المناسب.

و مما له أهمية أشمل من ذلك، هو قنوط المريض الذي يقف حائلاً دون شفاء أي عُصاب حاد. كان فرويد يميل إلى تسمية كل شيء يعيق تماثل المريض نحو الشفاء على أنه مقاومة. لكننا قلما نستطيع أن ننظر

إلى القنوط بهذا المنظار. إذ يتعين علينا في تحليل النفس أن نتعامل مع تفاعل متقابل من قبل قوىً تتحرك تقدمًا وتقهقرًا مصحوبة بمقاومة وحافز. تمثل المقاومة تعبيرًا شاملاً لكل القوى في باطن المريض والتي تفعـل فعلهـا في الإبقاء على الوضع الراهن. مـن جهة أخرى يتكون حافـزه بالطاقة البناءة التي تسـتحثه بقوة نحو الحريـة الباطنية: القوة الدافعة هذه والتي نعمل بواسـطتها كل ما نشاء. إنها القوة التي تعين المريـض على التغلـب على المقاومـة وتجعل علاقاته مثمـرة كما تقدم الفرصة للمحلل لاستيعاب أفضل. إنها تمنحه القوة الباطنية لتحمّل ألم النضـوج الـذي لابد منه، وتزيـد من رغبتـه في المجازفة وبالتخلي عن المواقف التي كانت قد وفرت له الشـعور بالأمن والمبادرة بالقفز إلى عالم مجهول. ليس بوسـع المحلل أن يسحب المريض ببطء خلال هذه العملية إذ يجب أن يكون المريض نفسـه راغبًا في المضي. تلك هي القوة التي لا تثمّن والتي تُشلّ بسبب حال قنوطه هذه. وعند الفشل في إدراكهـا ومعالجتها يجرد المحلل نفسـه من أفضل سـبله في المعركة ضد عُصاب المريض.

لا يمثـل قنـوط المريـض معضلـة يمكـن أن تُحـلّ بتأويـل واحد فحسـب. سرعـان مـا يكـون هنـاك كسـب حقيقي لـو بـدأ المريض بإدراكهـا كمعضلة قد تحـلّ في النهاية بدلاً من الانغماس في الشـعور بالقدر المشـؤوم وقـد تحرّره هذه الخطوة للانطلاق. سـتحصل هناك نجاحات وعثرات، وقد يشعر المريض بالتفاؤل والذي قد يتضاعف

إذا اكتسب شيئًا من نفاذ البصيرة المفيدة، ليستسلم إلى قنوطه مرة أخرى، حالما يقترب من معضلة أشدّ إقلاقًا. في كل مرة يجب أن تعالج القضية مجددًا. لكن تمكن القنوط من المريض سيتضاءل عندما يدرك أنّ بوسعه أن يتغير فعلاً، وسيزداد حافزه طبقًا لذلك. فقد يكون الحافز مقتصرًا عند ابتداء التحليل على مجرد الرغبة في التخلص من أعراضه المرضية الأشد إزعاجًا. لكنه سيكتسب قوة عندما يصبح المريض واعيًا لأغلاله متذوقًا طعم الشعور بالحرية.

الفصل الثاني عشر

النزعات السادية

إن بوسع الأشخاص الواقعين فريسة للقنوط العُصابي «مواصلة» المسيرة بطريقة أو بأخرى. فإذا لم تكن قابليتهم على الإبداع قد تضررت بإفراط شديد نتيجة عُصابهم فقد يكونون قادرين على ترويض أنفسهم والالتفات بوعي كامل تجاه حياتهم الشخصية مضاعفين اهتمامهم بالحقول المنتجة. وقد ينغمسون في حركة اجتماعية أو دينية أو في عمل مرتبط بإحدى المنظمات. قد يكون عملهم نافعًا ويمكن تفهّم الحقيقة في افتقارهم للحماس بسبب افتقادهم لأية مصلحة شخصية يتطلعون إليها.

أما الآخرين فإنهم يكيّفون أنفسهم ضمن وضع خاص من أوضاع الحياة وهكذا قد يتوقفون عن الارتياب فيها لكنهم مع ذلك

لا يعلقون عليها اهتمامًا كبيرًا ويحاولون فقط تنفيذ التزاماتهم. يُصوّر جـون ماركاند هذا النوع من الحيـاة في جملة: «يا له من وقت قصير». أعتقد أنها الحال التي يصفها إيريك فروم في تغيره مع مرض العُصاب على أنها حال «خلل». وإنني أفسرها كثمرة للعمليات العُصابية.

من جهة ثانية، قد يهمل المصابون بالقنوط العُصابي كل الاهتمامات الجـادة والمجدية ويتوجهون نحو هامش الحيـاة محاولين انتزاع شيء من المتعة. وقد يجـدون مصلحتهم في إحدى الهوايات أو في المسرّات الطارئة كالأكل الجيد والشرب والمرح وشيء من العلاقات الجنسية. أو أنهـم قـد ينجرفون مـع التيار فيفسـدون ويقذفون بأنفسـهم نحو الانهيـار. ولكونهـم غير قادريـن على القيـام بأي عمـل ثابت، فهم يلجأون إلى احتسـاء الخمـر أو لعب القمار والدعـارة. قد يمثل نوع الإدمان على المسكرات الذي يصفه چارلس جاكسون في **عطلة نهاية الأسـبوع الضائعة** نهاية مرحلـة لمثل هذه الحال. بهـذا الصدد مما يثير الاهتـمام أن يتأمـل المرء هنـا التصميم اللاواعي علـى الانهيار الذي قد يقدم مسـاهمة نفسـية فعالة في مثل تلك الأمراض المزمنة كالسـل والسرطان.

أخـيرًا قـد ينقلـب الأشـخاص الفاقديـن للأمل إلى أشـخاص مخربين. غير أنهم يقومون في الوقت نفسـه بمحاولة العودة إلى سابق عهدهم من خلال الحياة البديلة التي يحيونها. هذا كما أعتقد هو معنى النزعات السادية.

كان اهتمام تحليل النفس قد تركز بصورة واسعة على ما يدعى بالانحرافات السادية نظرًا لأن فرويد اعتبر النزعات السادية نزعات غريزية. غير أنّ النماذج السادية في العلاقات الجارية، رغم عدم إهمالها، لم تكن قد عُرِفت على وجه الدقة. لقد كان أي نوع من السلوك المؤكد للذات أو العدواني يُعتبر تعديلاً أو تساميًا للنزعات السادية الغريزية. فاعتبر فرويد مثلاً أي نضال من أجل السلطة نوعًا ما يمثل هذا التسامي. حقًا إنّ الكفاح من أجل السلطة يمكن أن يكون ساديًا غير أنه يمكن أن يمثل كفاحًا من أجل البقاء لدى شخص يرى الحياة بصورة معركة يتولاها الجميع ضد الجميع. وفي الحقيقة ليس من الضروري أن يكون ذلك عُصابيًا على الإطلاق. إنّ محصلة هذا الافتقار إلى التمييز هي أننا لا نمتلك صورة شاملة عن الأشكال التي قد تتقمصها المواقف السادية ولا أية معايير دقيقة عن حقيقة السلوك السادي. الأمر متروك للحصافة الفردية بدرجة كبيرة لتحديد ما قد يدعى سادية بحق وما قد لا يدعى كذلك، وهو وضع قلما يقود إلى رؤية سديدة.

إن مجرد القيام بإيذاء الآخرين لا يمثل بحد ذاته مؤشرًا لوجود ميل سادي. فقد يكون رجل ما منهمكًا في مسعى ذي صفة شخصية أو عامة ويضطر أثناءه لإيذاء خصومه وأصدقائه أيضًا. وقد يكون العمل العدائي تجاه الآخرين أيضًا مجرد رد فعل. فمن المحتمل أن يشعر شخص ما بالأذى أو الرعب ويريد أن يكيل بقوة الصاع

صاعـين لكنها ليسـت متكافئـة مع الإثـارة الموضوعية إلا أنهـا ذاتيًا تتماشـى معها. من السـهولة خـداع الإنسـان ذاته بهذا الشـأن. ويتم الادّعـاء غالبًـا برد فعل مـبرّر في وقت تكون فيه أحد الميول السـادية قد فعلت فعلها. لكن الصعوبة في تمييز الواحد عن الآخر لاتعني أنّ العمـل العدائي، كرد فعلٍ، ليس لـه وجود. أخيرًا تتوفر هناك خطط للهجـوم، وجميعها مرتبطة بالنمط العدواني، والذي يشـعر أنه يقاتل من أجل البقاء. ينبغي ألّا أسمي أيًا من هذه الاعتداءات بأنها سادية، فقـد يتـضرر آخرون بها ولكـن الإضرار أو الأذى يمثل ناتجًا عرضيًا لابـد منه أكثـر من كونه نية مبيتة. يمكننا القول للتعبير عنها ببسـاطة أنـه على الرغم من كونها عدوانيـة أو حتى هجومية لكنها لم ترتكب بروح خبيثة. إذ ليس هناك ارتياح شعوري أو لا شعوري مستمد من حقيقة الإيذاء ذاتها.

على سـبيل التغير دعنا نتأمل بعض المواقف السادية النموذجية. يمكن ملاحظة هذه لدى أشـخاص واضحـين في التعبير عن ميولهم السـادية تجاه الآخريـن، إن كانـوا واعين أو غير واعـين بوجود مثل هذه الميول. وحينما أتحدث عن شـخص سادي أعني شخصًا تتصف مواقفه نحو الآخرين بسادية متسلطة.

قد يرغب مثل هذا الشـخص أن يسـتعبد الآخرين أو أن يستعبد شريـك حياته بصفة خاصة. إنّ «ضحيته» يجب أن تكون عبدًا لرجل يسـمو عن البشر ومخلوقًا ليس دون رغبات وأحاسـيس أو مبادرات

خاصة به فحسب بل دون أية مطالب أيضًا. قد يتخذ مثل هذا الميل شكل ترويض أو تعليم الضحية مثلما يُروّض البروفيسور هيجنز شخصية إليزا في رواية بيجماليون.

وفي أحسن الأحوال يمكن أن تمتلك بعض الجوانب البناءة، كما هو الأمر في حال الآباء مع المصاحب السّادي الأكثر نضوجًا. غير أنه حتى في تلك الحال ستبرز قرون الشيطان إذا عبرّ العبد عن أية إشارة تعني أنه يرغب في الذهاب لحال سبيله أو في أن يكون لديه أصدقاء أو هوايات خاصة به. في أغلب الأحوال تنتاب السيد غيرة حب التملك ويتخذها كوسيلة للتعذيب. ومن المثير للغرابة في العلاقات السادية مثل هذه أن إبقاء السيطرة على الضحية يمثل شغلاً شاغلاً يفوق اهتمام المرء بحياته الشخصية. إنه سيهمل مهنته وسيمتنع عن مسرات وفوائد الاجتماع بأشخاص آخرين بدلاً من رضاه بتخويل صاحبه أي استقلال.

إن الطرق التي يبقى من خلالها على صاحبه مستعبدًا هي طرق ذات صفات مميزة. وهي تتنوع فقط ضمن مدى محدود نسبيًا وتعتمد على بنية الشخصية لكل من الطرفين. سيقدم الشخص السّادي للآخر ما يكفي فحسب لجعل العلاقة جديرة باهتمامه، إنه سيحقق حاجات معينة من حاجات ذلك الصاحب رغمًا عن بقائها عند أدنى مستوى من العيش. كما أنه سيؤكد له الميزة الفريدة لعطائه. سيوضح له أنّ ليس هناك من يستطيع أن يمنحه مثل هذا التفهم ومثل هذه

المعاونة أو إشباع الهوايات العديدة وليس هناك شخص آخر يستطيع أن يتحملـه أبدًا. ثم قد يحتفظ به ضمن إغراء لأوقات أفضل تلميحًا أو تصريحًـا كالوعـود بالحـب أو الـزواج أو بمركـز مـالي أفضـل أو بمعاملة أحســن، أحيانًا سـيؤكد السّـادي حاجته الشـخصية للرفيق الذي يحاوره على ذلك الأساس. إنّ تأثير هذه الوسائل سيكون أشد من خلال السيطرة والاسـتخفاف الكبيرين حيث يعزل صاحبه عن الآخرين. إذ لو تحرّر الأخير نهائيًا فقد يهدد في النهاية بالهجر.

و لا تـزال هناك وسـائل أخـرى للتهديد قـد تسـتخدم ولكن لهذه الوسـائل حيويـة كبـيرة خاصة بها سـتناقش بصـورة منفصلـة في مجال آخر. لا شك أننا لا نستطيع أن نفهم ما يدور في علاقة كهذه دون أخذ خصائـص الصاحب بنظر الاعتبار. فهـو في الغالب من النمط المطاوع ومـن هنـا يكون خائفًا من الهجر أو قد يكون شـخصًا دوافعه السـادية الخاصة مكبوتة بعمق، وهو عاجز بسبب ذلك كما سيتضح لنا فيما بعد.

إن الاتـكال المتبـادل المتراكـم لمثـل هذا الموقـف يثـير الغيظ عند الاثنـين. فإذا كانـت حاجة الرجـل الأخير للعزلة صريحة فسـيكون السّادي مسـتاءً بصفة خاصة لإزاحة الأول الشيء الكثير من تفكيره وطاقتـه. فقد يوبّخ الصاحب لكونه جشـعًا أو متكالبًا دون أن يدرك أنه هو نفســه كان قد خلق هذه الروابط المتشـنجة. إنها تمثل رغبته في الإفلات، بمناسـبات كهذه، تعبيرًا عن الخـوف والكراهية مثلما تمثل وسيلة من وسائل التهديد.

لا تهـدف كل رغبة سـادية ملحّة نحو الاسـتبعاد. هناك نوع آخر منها يجد متعة في **التلاعب بعواطف** شـخص آخر كما لو كان يداعب آلة موسيقية. يرينا سفرين كيركجارد في رواية **يوميات الغاوي** كيف أنّ أحد الرجال **ممن لا يأمل شيئًا من حياته الشخصية** يمكن أن يكون غارقًـا تمامًـا في اللعبة ذاتها. فهو يعلم متى يُبـدي اهتمامًا ومتى يكون غـير مكترث. إنه مرهف الحساسـية في توقعه وملاحظته لردود فعل الفتاة بالنسـبة له. وهو يعلـم ما سـيثير ويُزيّنُ رغباتها الشهوانية. غير أن حساسـيته تقتصر على متطلبات اللعبة السادية. فهو لا يبالي تمامًا بـما قـد تعنيه هذه التجربة بالنسـبة لحياة الفتاة. إنّ ما يمثل حسـابات واعية مدروسـة في رواية كيركجارد يحدث غالبًا بصورة لا شعورية. لكنها اللعبة نفسـها والمتميزة بالانجذاب والصد وبالإغراء والفشل وبرفعة الشأن والضِعَة وبإثارة الفرح وبعث الحزن.

الصفـة الثالثة هي استغلال الصاحب حيث لا يكون الاسـتغلال بالضرورة مشروعًا سـاديًا لمجرد الكسـب فحسب، قد يكون الكسب في الاستغلال السّـادي أحد الاعتبارات لكنه يكون في الغالب خادعًا ولا يتناسـب كليًا مع الجهد المبذول في ملاحقته. ويصبح الاسـتغلال بالنسـبة للسـادي نوع من الشـغف بحـد ذاته. والمهم هـو تجربة فرحة الانتصار لنيل أفضل ما لدى الآخرين. وتظهر صبغته السـادية المميزة في الأسـاليب المسـتخدمة مـن أجل الاسـتغلال. يَتعـرَّضُ الصاحب بصـورة مباشرة وغـير مباشرة لمطالب تتزايد باستمرار كـما يدفع إلى

الشعور بالإثم والحقارة إن لم يَقُم بتنفيذها. إنّ بوسع الشخص السّادي دائمًا أن يجد مبررًا للشعور بعدم القناعة وبكونه يعامل بظلم، ومبررًا للمطالبة بالمزيد أيضًا. وبناءً على ذلك توضح شخصية الكاتب إبسن، ميدا كابلر، كيف لا يثير تنفيذ مثل هذه المطالب أي امتنان وكيف أنّ المطالب هي نفسها في الغالب تحفز من قبل التوق الشديد في إيذاء الشخص الآخر وإبقاءه في موضعه ذاك. قد تتعلق هذه المطالب بأشياء مادية أو حاجات جنسية أو مساعدة لتأسيس مهنة ما، وقد تكون المطالب من أجل تميز خاص أو من أجل اندفاع أكبر أو من أجل صبر لا حد له. لن يكون هناك شيء سادي مميز في محتواها. وما يشير إلى السادية فعلاً هو التوقع في أنه ينبغي على المصاحب وبما يتوفر لديه من وسائل أن يملأ حياة هي خاوية عاطفيًا. كما توضح هذه أيضًا بصورة جيدة من قبل شخصية مياكابلر عبر شكواها المتواصلة المرتبطة بمشاعر الملل والرغبة في التحفز والإثارة. كقاعدة، تكون الحاجة للعيش كذلك وعلى الحيوية العاطفية لشخص آخر، لاشعورية تمامًا، لكنها قد تكون مستقرة في قعر الرغبة الشديدة للاستغلال وإن هذه تكوّن التربة التي تنبت فيها المطالب الصريحة.

تصبح طبيعة الاستغلال أكثر وضوحًا عندما ندرك أنّ هناك ميلاً نحو إحباط الآخرين في الوقت نفسه. سيكون من الخطأ أن نقول إنّ الشخص السّادي لا يريد أن يقدّم شيئًا على الإطلاق. فهو في ظروف معينة قد يكون كريمًا جدًا؛ إنّ ما هو نموذجي في السادية كونها ليست

شُحًّا بمعنى الإمساك، بل هي اندفاع شديد القوة، رغمًا عن كونه غير واعٍ، نحو إحباط الآخرين ونحو تدمير سعادتهم وتبديد آمالهم. إن أية قناعة أو تفاؤل عند الشريك يثير الشخص السّادي بصورة عنيفة ويندفع إلى تدميرها بطريقة ما. فإذا تشوّق الشريك إلى رؤيته فسيبدو متجهّما وإذا أراد هذا مزاولة الجنس فسيكون فاتر العاطفة أو لا قدرة له على الإطلاق. وقد لا يستدعي الأمر أن يفعل شيئًا أو أن يفشل في القيام بأي شي إيجابي. إنّ مجرّد إشاعة الوجوم سوف يثبط من همته. وهو هنا كما هو الأمر في النص الذي نقتبسه للمؤلف آلدوس هكسلي: «لم يكن عليه أن يفعل شيئًا، كان يكفيه مجرد أن يكون. فذبلوا واستحالوا سودًا بمجرد العدوى». وبعد ذلك بقليل: «أي تفنن رفيع لإرادة السلطة، أية قسوة رائعة! وأية موهبة مذهلة في ذلك الوجوم الوبائي، الذي يثبط كذلك أسمى المشاعر ويخمد إمكانية المتعة ذاتها».

إنّ ما يماثل أيًا من هذه في الأهمية هو ميل الشخص السّادي إلى ذم وازدراء الآخرين. فهو حاذق بشكل متميز في رؤية العيوب واكتشاف مواطن الضعف لدى الآخرين ولفت النظر إليها. إنه يعلم بالسليقة كيف يكون الآخرون مرهفي الإحساس وأين يمكن إيلامهم. وهو يميل إلى استعمال بديهته منتقدًا ومنتقصًا الآخرين. قد يبرر هذا على أنه صدق أو رغبة في المساعدة؛ وقد يجد نفسه قلقًا من جراء الشكوك المتعلقة بكفاءة أو تكامل الشخص الآخر،

لكنه سيصاب بالذعر إذا شعر بالارتياب في مصداقية شكوكه. قد يبدو ذلك أيضًا مجرد ريبة. فقد يقول المريض: «لو أمكنني الوثوق بذلك الشخص فحسب!». غير أنه بعد أن يرى في أحلامه ما تعافُه النفس صفة لصاحبه كالخنفساء أو الفأرة، كيف يتسنى له أن يثق به؟! بعبارة أخرى يمكن أن تكون الريبة مجرد حصيلة الانتقاص من شخص آخر. فإذا لم يكن الشخص السّادي واعيًا لموقفه المنتقص فقد يكون شاعرًا بالريبة الناتجة فحسب. وقد يبدو من المناسب أن نتحدث عن الرغبة الشديدة للبحث عن الأخطاء وهي أكثر من مجرد ميل بسيط. إنه لا يُوجّه أضواءه الكاشفة نحو الأخطاء الواقعية فحسب بل هو شديد التطرف في اكتناه عيوبه الذاتية وهكذا يختلق قضية ضد الشخص الآخر. فإذا كان قد أزعج شخصًا آخر بسلوكه الخاص مثلاً عندها يُبدي اهتمامًا فوريًا أو ربما احتقارًا يتضح في عدم الاستقرار العاطفي لذلك الشخص. وإذا لم يكن الشريك صريحًا معه تمامًا فسيوبّخه لكتمانه أو لكذبه. سيوبخه لأنه قد أصبح عالةً عليه في الوقت الذي كان هو نفسه قد عمل كل ما في وسعه ليجعله كذلك. ليس هذا التخريب مسألة كلمات مجردة بل يكون مصحوبًا بكل أنواع سلوك الاحتقار. ويمكن أن يكون الازدراء أو الحط من شأن الممارسات الجنسية واحدًا من مظاهره.

حينما يُحبطُ أي من هذه الدوافع أو حينما تنقلب الأوضاع ويشعر الشخص السّادي أنه هو نفسه متسلط عليه ومُستغلٌ أو محتقرٌ حينها

تصيبه نوبات من الغيظ الجنوني. فيدخل في روعة أن ليس هناك عذاب عظيم بما يكفي ليصبه على المذنب. فقد يركله ويضربه أو يقطّعه إربًا.

من الممكن أن تكبت نوبات الغيظ السّادي هذه وأن تؤدي إلى ظهور حال من الذعر الحاد أو بعض الاضطرابات العضوية الوظيفية التي تشير إلى تصاعدٍ في التوتر الباطني.

و بعد ذلك يبرز التساؤل: ما معنى هذه النزعات؟ ما هي الضرورات الذاتية التي تضطر أحد الأشخاص للتصرف بمثل هذه القسوة؟ إنّ الافتراض بأن النزعات السادية تمثل تعبيرًا عن دافع جنسي منحرف لا أساس له في الحقيقة. ولكن من المستطاع التعبير عنها ضمن السلوك الجنسي. وهي بهذا لا تمثل استثناء للقاعدة العامة في أن جميع مواقفنا التي جُبلنا عليها يمكن أن تبرز بشكل ما في عالم الجنس، مثلما تبرز في طريقتنا في العمل وفي طريقة مشينا وفي خط يدنا. من الصحيح أيضًا أنّ كثيرًا من الرغبات السادية تنفذ بإثارة معينة أو كما ذكرت مرارًا بعاطفة مشبوبة. إنّ المحصلة في أن مشاعر المتعة والإثارة هذه تكون جنسية في طبيعتها حتى وإن تجاهلناها يستند فقط على افتراض أن كل إثارة هي جنسية في حدِّ ذاتها. غير أنه لا يتوفر دليل لإثبات مثل هذا الافتراض. إن كلاً من الإحساسين المتعلقين بالمتعة السادية والتهالك الجنسي يبدو مختلفًا تمامًا في طبيعته.

يمتلك التأكيد بأن الاندفاعات السادية تمثل نزعة طفولية مستمرة جاذبيـة خاصة، حيث يعامِلُ الأطفـال الصغار الحيوانات والأطفال الآخريـن الأصغر منهم سـنًا بقسـوة ويبدو أنهم يسـتمتعون بذلك. وقد يقول المرء في ضوء هذا التشابه إنّ قسوة الطفل البدائية كانت قد تهذبت فقط عندما كبرَ. لكنها في حقيقتها لم تهذب فحسـب؛ فقسـوة السّـادي البالغ تختلف في النوع. وهي تمتلك سـمات بارزة، كما رأينا، تنعدم في قسـوة الطفل العفوية. تبدو قسـوة الطفل اسـتجابة بسيطة للشـعور بالاضطهاد أو بالاحتقـار. فيؤكد ذاته بالثـأر من مخلوقات أكثر ضعفًا منه.

بينما تكون النزعات السادية المعنية أشد تعقيدًا وتنمو وسط جذور أكثر تشابكًا. إن كل محاولة لتعليل الأعمال الشاذة المتأخرة عن طريق ربطها مباشرة بالخبرات المبكرة تُخلّفُ سؤالاً بالغ الأهمية دون إجابة، وهو: ما هي العوامل التي تفسر بقاء وتطور القسوة؟

يرتكـز كل مـن الافتراضـين أعـلاه بقـوة على جانـب واحد من السـادية فقـط: الاتجاه الجنسي في حالة، والقسـوة في الحالة الأخرى، ويفشـل كلاهما حتى في تعليل هذه المميزات. ويمكن أن يقال الشيء نفسـه عن شرحٍ تقدم به إيريك فروم بالرغم من اقترابه إلى العناصر الأساسـية أكثر من الآخرين. يبين فروم أن الشخص السّادي لايريد أن يحطـم المـرء المتعلق بـه بل لأنه لا يسـتطيع أن يحيـا حياته الخاصة لـذا كان عليه أن يسـتخدم شركـه من أجل وجـود متضامن. إنّ هذا

صحيح بالتأكيد، لكن تفسيره ما زال يُجهل بشكلٍ كافٍ: فلماذا يُدفَعُ أحد الأشخاص قسرًا ليعبث بحياة الآخرين ولماذا يتخذ هذا العبث الصور المقررة التي يتقمصها؟

إذا اعتبرنا السادية عرضًا لمرض عُصابي، فيجب أن نبدأ، كما هي الحال دائمًا، لا بمحاولة شرح العارض المرضي بل بمحاولة فهم بُنية الشخصية التي تطوّره. حينما نعالج المشكلة من هذه الزاوية ندرك أن ليس هناك من تتطور عنده نزعات سادية صريحة ولا يتملكه شعور غامر بتفاهة ما يتصل بحياته الشخصية، لقد أدرك الشعراء بالفطرة هذه الحال الخفية قبل وقت طويل من اكتسابنا القدرة على إظهارها بملاحظتنا السريرية الثاقبة. كان الاحتمال في كل من حالتي هيدا كابلر والغاوي من أنهما سيصنعان من نفسيهما أو من حياتهما شيئًا ذا قيمة يمثل قضية محسومة. فإذا لم يكن بوسع أحدهم في مثل هذه الظروف أن يتجه نحو الاستسلام فإنه سيصبح بالضرورة شديد الامتعاض وسيشعر أنه مُبعَدٌ ومغلوبٌ على أمره إلى الأبد.

لذلك، يبدأ كارهًا الحياة وكل ما هو إيجابي فيه. لكنه يكرهها كشخص يتملكه حسدٌ مشتعل، قد صُدَّ عن أمر يرغب فيه. بحماس عظيم، إنه الحسد المرّ المتصل بشخص يشعر بتجاوز الحياة له. كان نيتشه يدعوه «حسد العيش». إنه لا يشعر بأن للآخرين أحزانهم أيضًا، «هم» يحبون ويبدعون ويتمتعون ويشعرون بالعافية والراحة وينتمون إلى مكان ما. فتغيظه سعادة الآخرين وآمالهم

«الساذجة» في المرح والمتعة. إذا لم يستطع أن يكون سعيدًا وحرًا فلماذا ينبغي أن يكونوا هم كذلك؟ وبتعبير شخصية الأبله عند الروائي دوستويفسكي: إنه لا يستطيع أن يغفر لهم سعادتهم. يجب أن يطأ بقدميه على ابتهاج الآخرين. وتشرح موقفه هذا قصة المعلم الذي فتك به مرض السل فكان يبصق في شطائر تلاميذه فترتفع معنوياته لقدرته على سحقهم. كان ذلك فعلاً واعيًا مرتبطًا بحسد حقود لئيم. وكعبدٍ يكون الميل نفسه عند الشخص السّادي لإحباط وسحق معنويات الآخرين لاشعوريًا بصورة عميقة. لكن غايته تمثل الغاية نفسها في الرذيلة لذلك المعلم وهي أن ينقل شقاءه إلى الآخرين. فإذا شعر الآخرون بالهزيمة وحقارة الشأن فسيخف بؤسه الشخصي ولا يعود يشعر بأنه هو نفسه الوحيد المبتلى بالمرض اللعين.

هناك طريقة أخرى لتخفيف حدة الضّيم تتمثل في أسلوب «العنب الحامض» وهي متقنة حدَّ الكمال وربما ينخدع بها حتى المراقب المتمرس. وفي الواقع يكون حسده دفينًا في أعماق سحيقة قد تخفى عليه هو ذاته وسينكر أي إيحاء عن وجوده. لذلك لن يكون تركيزه على الجانب المؤلم والثقيل أو القبيح من الحياة تعبيرًا عن مرارته فحسب بل ربما عن اهتمامه في أن يُبرهن لذاته بأنه لم يفتقد شيئًا. وينشأ بحثه الدائم عن الأخطاء. وسبل الحط من قيمة الآخرين من هذا المنظار. فهو سيلاحظ ذلك الجزء الوحيد غير المثالي

في جسد امرأة جميلة. عندما يدلف إلى إحدى الغرف فستتسمر عيناه على اللون الوحيد أو قطعة الأثاث الوحيدة التي لا تنجسم مع غيرها. سيلتقط الغلطة الفردية في خطبة عصماء من بين كل الجوانب الأخرى. وبصورة مماثلة سيأخذ أي عيب في حياة الآخرين أو في خلقهم أو في دوافعهم المحتملة أبعادًا هائلة في ذهنه. فإذا كان متحذلقًا فسينسب هذا الموقف لكونه حساسًا للعيوب. لكن الحقيقة هي أنه يوجّه ضوءه الكاشف نحو هذه الأمور فحسب تاركًا كل شيء آخر مُغلّفًا بالظلام.

وبالرغم من نجاحه في إطفاء حسده وإزالة امتعاضه فإن موقفه المستخف بدوره سيبعث فيه شعورًا دائمًا بخيبة الأمل والتذمر. فإذا رُزِقَ بأطفال فإنه سيفكر أساسًا بالمتاعب والالتزامات المرتبطة بهم وإذا لم يكن كذلك فسيشعر بأنه حُرم من أعظم ما في الوجود. وإذا لم تكن له علاقات جنسية فسيشعر أنه محروم وسيكون مهتمًا بأخطار كبت الجنس، وإذا كانت له علاقات جنسية فسيشعر بخجل منها وأنه مهان بسببها. ولو توفرت له فرصة للقيام برحلة قصيرة فسينوء بمتاعبها، وإذا لم يستطع السفر فسيعتبر أنّ من العار عليه البقاء في البيت. ولن يخطر بباله أنّ مصادر تذمره المزمنة يمكن أن تكمن في دخيلته هو ذاته. سيشعر بأنه مخول في إشعار الآخرين بأنهم يخذلونه، ثم يتقدم بمطالب أعظم من أي وقت مضى دون أن يجعله تحقيقُها يحوز على رضاه أيضًا.

إن الحسد المرير والميل نحو الحط من قيمة الآخرين والتذمر الناشئ عن ذلك يعلل النزعات السادية إلى حد ما. فنحن نفهم لماذا يكون السّادي مدفوعًا باتجاه إحباط الآخرين وتعرضهم للشقاء وكشف عيوبهم وتقديم مطالب لاتنتهي. ولن يكون بوسعنا أن نقدّر مدى أخطائه أو اعتداده الشديد بنفسه حتى نبحث فيما يفعله قنوط المرتبط بذاته.

و بينما ينتهك معظم المتطلبات الأولية للّباقة البشرية فهو يأوي في دخيلته بالوقت عينه صورة مثلى ذات معايير خلقية راقية ولكنها متزمتة بشكل خاص. إنه أحد الذين (كنا قد تحدثنا عنهم سابقًا) بسبب يأسهم من قدرتهم على تحدّي مثل هذه المعايير فقد وطّدوا العزم شعوريًا أو لا شعوريًا بأن يكون قدر استطاعتهم «سيئين». قد ينجح أحدهم في أن يكون «سيئًا» وأن يمتلئ بنوعٍ من البهجة القانطة. لكنه عندما يتصرف كذلك فستصبح الهوة بين الصورة المثلى والذات الحقيقية غير قابلة للردم وسيشعر بأنه بعيد عن الإصلاح، وبعيد عن الصفح والمغفرة. كما يصبح قنوطه أعمق حيث يتطور لديه طيش امرئ لايمتلك شيئًا يخاف أن يفقده. طالما تستمر هذه الحال يستحيل عليه أن يتخذ موقفًا بناءً تجاه ذاته. كما أنّ مصير أية محاولة مباشرة في جعله بنّاءً سيكون مآلها الفشل وتنم عن جهلٍ بحالته.

ويبلغ اشمئزازُه من ذاته أبعادًا عظيمة جدًا لن يستطيع عندها أن يلقي نظرة على نفسه. عليه أن يُحصّن نفسه ضدها بتقوية عنصر

الاستقامة المتوفرة عنده الآن. بوسع أخف تقدير وأقل تجاهل أو غياب التقدير الخاص أن يعبئ احتقاره لذاته، ولذلك عليه أن يرفض اعتباره غير منصف. لهذا السبب فهو مكره على تخريج احتقار ذاته بلوم وتوبيخ وازدراء الآخرين. وهذا مما يطوّح به في شباك حلقة مفرغة. فكلما اشتد احتقاره للآخرين قل الوعي باحتقاره لذاته؛ وكما أصبح احتقار ذاته أشد عنفًا وقسوة أصبح أشد قنوطًا. إذًا يكون توجيه الضربات للآخرين قضيةَ محافظةٍ على الذات. تُشرح العملية بالمثال الذي ذُكر سابقًا للمريضة التي اتهمت زوجها بالتردد وأرادت أن تمزق نفسها إربًا عندما أدركت أنها كانت حقًا حانقةً ضد ترددها هي شخصيًا.

في هذا الضوء نبدأ بتقدير السبب البيّن للشخص السّادي في أن ينتقص الآخرين. كما نستطيع الآن أن نلمس أيضًا المنطق لدافعه القسري الباطني والمتزمت في الغالب باتجاه إصلاح الآخرين أو على الأقل باتجاه إصلاح الشريك. فلكونه لا يستطيع هو الارتقاء نحو صورته المثلى يتوجب على ذلك الشريك أن يفعل الشيء ذاته. حينها يجد غيظه القاسي تجاه نفسه متنفسًا ضد شريكه. وقد يسأل نفسه أحيانًا «لِمَ لا أتركه وشأنه؟» لكن من الجلي أن مثل هذه الاعتبارات المنطقية لا تجدي طالما تستمر المعركة الباطنية ويستمر تخريجها. وهو عادة يبرّر الضغط الموجّه نحو الشريك باسم «الحب» أو الاهتمام في «تطور» هذا الشريك. ولا حاجة للقول إن ذلك لا يمثل الحب.

ولكنـه ليس اهتمامًا بتطور شـريكه وفقًا لمسـاراته الشـخصية أو طبقًا لقوانينـه الباطنيـة والذاتية. فهـو حقًا يحاول فرض المهمة المسـتحيلة علـى شريكه أملاً في تحقيـق صورته ،أي صورة السـادي، المثلى. إن الاسـتقامة المطلقة التي تعيّن عليه أن يطوّرها كدرعٍ واقٍ ضد احتقار الذات قد تتيح له أن يفعل ذلك بثقةٍ بالغة.

يعطينا فهم هـذا النضال الباطني نفاذ بصيرة أفضل في عامل آخر أكثـر شـمولاً كامنٍ في الأعراض المرضية السـادية وهـو الحقد الذي يسـيل كالسّـم خلال كل حجيرة في شـخصية الرجل السـادي. فهو يُضطـر أن يكون حقودًا ليوجـه إلى الخارج احتقـاره العنيف لذاته، ولأن اسـتقامته تمنعـه من رؤيـة مسـاهمته في أية مشـكلة ظاهرة فهو لذلك يشـعر بأنـه هو المرء الـذي تُسـاء معاملته والـذي يُضحى به. ونظرًا لعدم استطاعته لرؤية مصادر يأسه ،لأنها تكمن في باطن ذاته، لـذا فإنّ عليـه أن يعتبر الآخرين مسـؤولين عن ذلـك اليأس. وأنهم كانـوا قـد دمّـروا حياته وعليهـم الآن أن يدفعوا ثمـن ذلك وعليهم أن يجرعـوا ما سـيحدث لهـم من جرائـه. إنّ هذه الـروح الثأرية هي التي تقتل في قرارة نفسـه كل مشـاعر العطف والرحمة. لماذا ينبغي أن يعطـف على أولئك الذين حطموا حياتـه وفوق ذلك يجدهم أفضل منـه حـالاً؟ في أحوال خاصة قد تكون روح الثأر شـعورية لديه وقد يعيهـا كـما يتعلق الأمر بوالديـه مثلاً. غير أنه علـى كل حال، لا يعي كونها نزعة شخصية سائدة.

إنّ الشخص السّادي كما رأيناه حتى هذه اللحظة هو من يتصرف بشكل مسعور موجهًا تنفس غيظه تجاه الآخرين في حال الانتقام الأعمى لأنه يشعر بأنه منبوذ مقضي عليه. وكما ندرك الآن بحثه عن تخفيف بؤسه الشخصي من خلال ما يشعر به الآخرون من أسباب البؤس. غير أن هذا قلما يمثل هنا التفسير برمّته. إن مظاهر التخريب لا تفسّر لوحدها الانفعال الشاغل الذي هو سمةٌ لازمة لكثير من الهوايات السادية. يمكن أن تتوفر هناك منافع أكثر وضوحًا، منافع تمتلك بالنسبة للسادي أهمية حيوية. وقد يبدو هذا التعبير متناقضًا مع الافتراض بأن السادية هي ثمرة القنوط. فكيف يمكن لشخص قانط أن يتأمل شيئًا ويلاحقه وبمثل هذه الحيوية المهلكة؟ حقًا إن هناك الكثير من الفوائد ومن وجهة النظر الشخصية. ففي الحط من شأن الآخرين لا يهدئ من احتقار ذاته الشديد فحسب بل يعطي نفسه إحساسًا بالتفوق أيضًا. وحينما ينظم حياة الآخرين فهو لا يكتسب شعورًا محفزًا بالتسلط عليهم فحسب بل يكتشف أيضًا مغزىً بديلاً لحياته. حينما يستغل الآخرين عاطفيًا فهو يزود نفسه بحياة عاطفية بديلة تقلل من إحساسه بالخواء. وحينما يهزم الآخرين فهو يفوز ببهجة الانتصار طاويًا هزيمته الشخصية القانطة. من المحتمل أن تكون هذه اللهفة الشديدة من أجل الظفر الانتقامي تُمثّلُ قوته الدافعة الأشد حدةً.

كذلك تفيد كل هوايته في إشباع جوعه للمتع والإثارة. لا يكون الشخص المعافى، المتزن تمامًا بحاجة لمثل هذه المتع. إذ كلما

كان ناضجًا كلما قلّ اهتمامه بها. لكن حياة الشخص السّادي تكون خاوية. حيث تكون جميع المشاعر تقريبًا قد توقفت عدا مشاعر الغضب والظفر. فهو فاقد تمامًا للإحساس بحيث يصير بحاجة لهذه الحوافز الجامحة ليشعر أنه ما زال على قيد الحياة.

أخيرًا وليس آخرًا، إنّ تصرفاته السادية مع الآخرين تمنحه شعورًا بالقوة والغرور يعزز إحساسه اللاواعي بالقدرة التامة. يمر موقف المريض تجاه نزعاته السادية بتغيرات عميقة أثناء تحليل النفس. ومن المحتمل أن يتخذ موقفًا حاسمًا تجاهها عندما يصبح واعيًا لها لأول مرة. لكن رفضه الضمني لا يمثل له موقفًا صادقًا بل يمثل اللامبالاة بالمعايير المتداولة. وقد تنتابه نوبات من الاشمئزاز من الذات بين الحين والآخر. وقد يشعر حينما يقترب من نبذ طريقته السادية في الحياة بأنه على وشك أن يفقد شيئًا نفيسًا. لأول مرة بعد ذلك سيجرّب بصورة واعية سرورًا عظيمًا في كونه قادرًا على أن يفعل ما يشاء مع الآخرين. وقد يعبّر عن قلقه حتى لا يحيله تحليل النفس لإنسان ضعيف محتقر. مرة أخرى وكما يحدث غالبًا في تحليل النفس يكون لقلق المريض ما يبرره شخصيًا. فبحرمانه من سلطانه في جعل الآخرين يخدمون حاجاته العاطفية سيرى نفسه كمخلوق بائس عاجز. وسيدرك بمرور الزمن أن إحساس القوة والكبرياء الذي استنبطه من ساديته يمثل بديلاً ضعيفًا. لقد كان ذلك عزيزًا عليه ولكن القوة الحقيقية والكبرياء الحق لم يكونا في متناول يديه.

عندما نعي طبيعة هذه المكاسب سوف لا نرى أي تناقض في القول بأن الشخص القانط قد يكون في حال بحث محمومة عن شيء ما. لكنه لا يتوقع أن يجد حرية أعظم أو تحققًا أعظم للذات، فكل ما يساهم في تكوين قنوطه يظل ثابتًا وهو لا يعمد إلى تغييره. إنّ ما يطارده يمثل حالات بديلة.

تُحقَّقُ المكاسبُ بواسطة عيشِ حياةٍ بديلةٍ. **أن يكون المرء ساديًا يعني أن يحيا اعتدائيًا وفي معظم الأحيان بصورة هدّامة من خلال أناسٍ آخرين.** لكن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع الشخص السّادي أن يحياها من خلالها. فالطيش الذي يطارد به غاياته متولد بسبب قنوطه الشديد. ولأنه لا يمتلك شيئًا حتى يخسره لذلك فهو يحاول أن يكسب فحسب. إنّ للجهود السادية ضمن هذا المعنى غرضًا إيجابيًا ويجب أن تُعتبر على أنها **تُمثل محاولةً في العودة إلى الوضع السابق.** يكمن السبب في مطاردة الغرض بانفعال شديد، في أنّ الشخص السّادي يكون قادرًا على إزالة إحساسه الشخصي بالهزيمة المُذلة عبر انتصاره على الآخرين.

لا يمكن أن تبقى العناصر المخربة في هذه المساعي دون مضاعفات بالنسبة للمرء ذاته، كنا قد أشرنا الآن إلى تصاعد احتقار الذات. كما تتمثل إحدى المضاعفات التي تماثله في الأهمية في انبعاث القلق. وهو في أحد أجزائه خوف من المقابلة بالمثل. فهو يخشى أن يعامله الآخرون كما يعاملهم هو، أو كما يريد أن يعاملهم. ويبدو هذا

بصــورة واعية لا كخوفٍ منهم مثلما يبدو كثقة واضحة بأنهم ســوف «يعاملونه بخشــونة» لو اســتطاعوا. أعني إذا لم يمنع ذلك عن طريق البقــاء علــى أهبة الاســتعداد بصورة مســتمرة. لذلك عليــه أن يبقى حذرًا جدًا في اكتشــاف وإحبــاط أي تصادم محتمل بحيث يتصور أنه غير قابل للاختراق عمليًا ومن جميع الجوانب.

غالبًا ما تلعب قناعته اللاواعية بمنعته الذاتية ضد الاختراق دورًا لا يُســتهان به لتمنحه شــعورًا فخمًا بالأمن. فهو لــن يتمكن أحدٌ من إيذائــه ولن يتمكن أحــد من فضحه ولن يصــادف أي حدث طارئ أو يصاب بعدوى لأحد الأمراض وليس من الممكن أن يموت أبدًا! وإذا حدث أن أصيب بالأذى فعلاً من قبل أشخاص أو ظروف فإن أمنه الزائف قد يتناثر ومن المحتمل أن يصاب بذعرٍ بالغٍ.

يمثــل قلقه جزئيًــا خوفًا من العنــاصر المتفجرة المدمــرة في دخيلة نفســه. فهو يشعر كما يشعر شخص حامل لقنبلة شديدة الانفجار في حلهِ وترحاله. لذلك هو بحاجة لضبط ذاتٍ فائقٍ واحتراس متواصل من أجل إبقاء هذه العناصر الخطيرة خاضعةً للرقابة. وقد تطفو هذه العناصر الخطيرة على السطح حينما يحتسي الخمر، إذا لم يشعر بخوفٍ شــديدٍ جدًا مــن أن تنحلّ عقدة لســانه بتأثير الـشراب. بعد ذلك قد يصبح مخربًا بشــكل عنيــف. كذلك قد تقــترب اندفاعاته من الوعي بصورةٍ أعظم بتأثير ظروف خاصة تمثل إغراءً بالنسبة له. لهذا السبب يصبح السّادي في رواية زولا **الوحش البشري** مذعورًا حينما ينجذب

لإحـدى الفتيات لأن هذا يثير فيه اندفاعًا شـديدًا لقتلها. كما تبعث فيه رؤيته لأي حدث طارئ أو أي عمل من أعمال القسـوة موجةً من الخوف لأنها توقظ اندفاعه الذاتي في التخريب.

إن هذين العاملين وهما احتقار الذات والقلق مسؤولان بصورة واسـعة عن كبت الاندفاعات السـادية. كما تختلف شمولية وعمق الكبـت. وغالبًا ما تُسـتبعد الاندفاعـات التخريبية مـن الوعي. إنّ مـا يبعـث على الذهول هو مقدار السـلوك السّـادي الذي يمارسـه الفـرد دون ما شـعور. فهو يشـعر برغبات طارئة في إسـاءة معاملة شـخص أضعف منه وقد يسـتثار حينـما يتفهم الأفعال السـادية أو عندما تسـتحوذ عليـه بعض التصـورات السـادية الواضحة. لكن هـذه اللمحـات المتفرقة تبقـى في عزلة. وفي معظـم الأحيان يكون الحجم الأعظم مما يفعله تجاه الآخرين لاشعوريًا في سلوكه اليومي. كما يمثل خدَرَ إحسـاسـه بالنسبة لذاته وللآخرين أحد العوامل التي تطمس القضية، وحتى يُبدّد هذا، لن يكون بوسعه أن يُحسّ عاطفيًا بـما يفعلـه، إلى جانـب ذلك، يكـون التبرير الـذي يُقـدَّمُ في إخفاء النزعات السـادية في الغالب وبدرجة كافية بحيث لا يخدع الشخص السّـادي ذاتَه فحسب بل حتى أولئك المتأثرين بتلك النزعات. يجب ألّا ننسـى أنّ السـادية مرحلـة نهائيـة لمـرض عُصاب حـاد. من هنا سـيعتمد نوع التبرير المسـتخدم على بنية العُصاب الشـخصية التي تتطور عنها النزعات السـادية. فعلى سـبيل المثال سَيَسـتَعبِدُ النمط

المطاوع شريكَه بادّعاء الحب اللاواعي. وستنسب مطالبه إلى حاجاته. فينبغي على ذلك الشريك أن يفعل الأشياء نيابة عنه لأنه شديد العجز والقلق أو شديد المرض. ولأنه لا يستطيع أن يكون وحيدًا ينبغي على الشريك أن يكون معه دائمًا. كما سيعبّرُ عن خيبته بصورة غير مباشرة من خلال إقامته الدليل وبصورة لا شعورية على ما يكابده من قبل الآخرين.

يُعبّر النمط العدواني عن النزعات السادية بصورة صريحة جدًا ولكن هذا لا يعني بأنه يعيها تمامًا. إنه لن يتردد في إعلان تذمره واشمئزازه ومطالبه، ولكنه يشعر فوق ذلك أنه مُحقٌّ تمامًا ومتميّز بالصراحة. وهو سَيُخرّجُ عدم اعتباره للآخرين والرغبة في استغلالهم وسيهددهم بعبارات لا يرقى إليها الشك كما يسيئون هم معاملته.

عند التعبير عن نزعات سادية يتميّز الشخص المنعزل بأنه غير فضولي بصورة فريدة. فهو يُشعرُ الآخرين بالإحباط وبعدم الاطمئنان لو أبدى استعداده للانسحاب مثيرًا الانطباع بأنهم يضايقونه أو يقلقونه وهكذا يصير متمتعًا بلذة خفية بتركهم وهم يتصرفون بحماقة.

لكن بوسع الاندفاعات السادية أن تكبت بصورة أعمق، وبعدئذ تُسبّبُ ما قد يُدعى بالسادية الارتكاسية. وما يحدث بهذا الصدد هو كون الشخص السّادي يخشى اندفاعاته إلى درجة عظيمة جدًا بحيث أنه يميل إلى التردد من فضحها لذاته أو للآخرين. وينأى

بنفسه عن كل ما يؤكد ذاته كالعدوان أو الخصومة. وفي المحصلة سيكون مكبوتًا بعمق وشمول.

سنجد فكرةً موجزةً عما تتضمنه هذه العملية. فالميل إلى التردد لاستبعاد الآخرين يعني عدم القابلية لإصدار أي أمر بل وأدنى من ذلك كثيرًا فهو يعني عدم تحمل أي موقع يتميز بالمسؤولية أو القيادة. وهذا يدعو إلى الحذر المفرط في ممارسة التأثير أو إسداء النصيحة. كما يتضمن كبتًا حتى لأكثر مشاعر الغيرة المعقولة. سيلاحظ المراقب الثاقب النظر أن الشخص مصاب بصداع، بوعكة معوية أو ببعض الأعراض المرضية الأخرى لو كانت الأمور لا تجري كما يشتهي.

إن الميل إلى التردد في استغلال الآخرين يدفع إلى المقدمة ميول إزالة الذات. يبدو ذلك في فقدان الجرأة للتعبير عن أية أمنية أو ربما حتى على امتلاكها وفقدان الجرأة في إعلان العصيان ضد الظلم أو حتى بالشعور بالظلم في الميل لتبرير آمال ومطالب الآخرين وجعلها أعظم أهمية مما يخصه شخصيًا. كما أنه يُفضل أن يكون مُستغلاً من قبل الآخرين بدلاً من مصلحته الذاتية. مثل هذا الشخص واقع بين فكي الرحى. فهو خائف تارةً من اندفاعه لاستغلال الآخرين وتارة يحتقر ذاته لنكوصه الذي قد يعتبر جُبنًا. وحينما يُستغَلُّ كما سيحدث بصورة طبيعية، فإنه يقع أسير دوامةٍ شائكةٍ وقد يكون رد فعله بصورة اكتئاب أو إثارة بعض الأعراض العضوية الأخرى.

و بصورة مماثلة سيبدو مفرط القلق لئلا يُخيّب آمال الآخرين وعليه أن يتصف بمراعاة شعورهم وأن يكون كريمًا معهم بدلاً من إحباطهم. سيبذل قصارى جهده كي يتجنب ما يمكن أن يؤذي مشاعرهم أو ازدراءهم بأية طريقة. سيجد بالسليقة شيئًا «لطيفًا» يذكره، كملاحظةٍ جميلةٍ ليزيد من ثقتهم الذاتية. إنه يميل إلى إلقاء اللوم على نفسه تلقائيًا وستبدو أعذاره كثيرة جدًا. وإذا تعيّن عليه إبداء النقد فسيبديه بأكثر ما يمكن من الاعتدال. وسوف لا يُظهر شيئًا غير «التفهم» حتى عند شعوره بظلم الآخرين له. لكنه في الوقت نفسه يكون شديد الإحساس بالنسبة للاحتقار متعذبًا من جرّائه بصورة موجعة.

عندما يكون التلاعب السّادي بالعواطف مكبوتًا بعمق فقد يحل مكانه شعور بعجز المرء لاجتذاب أي شخص. لهذا السبب قد يظن شخص ما بأنه غير جذاب بالنسبة للجنس الآخر ويتعين عليه أن يقنع نفسه بالقليل النادر. وإذا وصفنا حالته بالشعور بالنقص فقد يكون ذلك مجرد استخدام لتعبير آخر يعيه الشخص على أية حال وهو بكل بساطة تعبير عن احتقاره لذاته.

لكن فكرة عدم الشعور بالانجذاب قد تكون نكوصًا لا واعيًا عن الإغراء باتجاه ممارسة اللعبة المثيرة في الإخضاع والرفض. وقد يصير واضحًا أثناء التحليل أنّ المريض كان قد زيّف لا شعوريًا صورة علاقات الحب عنده. هنا سيحدث تغيّر مثير: فيصبح «البطوط

القبيح» واعيًا برغبته وقدرته على جذب الآخرين غير أنه يقابلهم بحنق واحتقار حالما يحملون مداعباته هذه على محمل الجد.

تتميز صورة الشخصية اللاحقة بالمواربة وصعوبة التقويم. يكون تناظرها مع النمط المطاوع بارزًا تمامًا. وبينما ينتمي الشخص السّادي الصريح عادة إلى النمط العدواني يكون السّادي المرتكس قد ابتدأ في تطوير نزعات مطاوعة بشكل عام. كما يكون الاحتمال الأقوى هو أنه كان قد تلّقى ضربة قاسية بشكل خاص أثناء مرحلة الطفولة. كان قد زيّف مشاعره وبدلاً من أن يعلن العصيان ضد المستبد انقلب ليحبه. وحينما أصبح أكبر سنًا أي في سن البلوغ أصبحت الصراعات لا تطاق فالتجأ إلى العزلة. لكنه عندما جُوبِهَ بالفشل لم يستطع الاستمرار في تحمل عزلة برجه العاجي. بعد ذلك ارتدّ راجعًا في ظاهره إلى اتكاليته السابقة. لقد أضحت حاجته للحنو يائسة جدًا بحيث أنه كان راغبًا في دفع أي ثمن كي لا يُترك وحيدًا. كانت فرصة في العثور على الحنان قد تضاءلت لأن حاجته للعزلة والتي ما زالت قائمة أخذت تتدخل باستمرار في رغبته الملحّة لأن يرتبط بشخص ما. ثم أصبح قانطًا وتطورت لديه ميول سادية بعد أن أصبح منهكًا بسبب هذا الكفاح. لكن حاجته للناس كانت ملحةٌ جدًا بحيث لم يستطع أن يكبت نزعاته السادية فحسب بل صار ميالاً لإخفائها أيضًا.

في هذه الحال يتصف حضوره مع الآخرين بتوتر شديد رغم أنه لا يدرك ذلك. صار يميل إلى التكلف والخجل. إذًا عليه أن يلعب

دائمًا دورًا معاكسًا لاندفاعاته السادية. عليه أن يفكر هو ذاته بشدة حبه للناس وحينما يصحو أثناء التحليل يُذهل لسماع الحقيقة كونه لا يضمر لهم إلا أقل ما يمكن من المشاعر، أو على أقل تقدير إنه غير واثق من حقيقة مشاعره نحوهم. يميل عندئذ إلى تفهم النقص البارز كونه حقيقة غير قابلة للتغير. لكنه في حقيقة حاله يجتاز مرحلة الإقلاع عن تظاهره بالمشاعر الإيجابية ويفضل بدون وعي منه ألّا يشعر بشيء على أن يواجه اندفاعاته السادية. هنا يمكن أن ينمو شعور إيجابي إذ يتعرّف على هذه الاندفاعات محاولاً التغلب عليها.

هناك عناصر معينة في الصورة ستبين للمراقب المتدرب وجود نزعات سادية، بدءًا من الأساليب التي يُشاهد فيها وهو يقوم بتهديد وباستغلال وبإحباط الآخرين. إذ يتوفر هناك عادة ازدراء ملحوظ غير واعٍ نحو الآخرين منسوب ظاهريًا لمعاييرهم الخلقية الأدنى. بالإضافة لذلك هناك عدد من التناقضات تشير إلى السادية. ففي بعض الأحيان مثلاً قد يتحمل الشخص السلوك السّادي أو ازدراءً يوجّه إليه. وأخيرًا فهو يثير الانطباع بأنه «يتلذذ بالتعذيب»، أي في الانغماس بالشعور بأنه كبش فداء. ولكن من الأفضل أن نبتعد عنه وأن نصِفَ بدلاً من ذلك العناصر ذات العلاقة. ستُساء معاملة السّادي المرتكس لكونه يشعر بكبت شامل تجاه تأكيد ذاته. غير أنه في حقيقته ينجذب صراحة نحو الأشخاص الساديين لأنه ينوء تحت ضعفه الشخصي، معجبًا بهم ومشمئزًا منهم في آن واحد مثلما يكون

الأخيرون منجذبين إليه وهم يشعرون بأنه ضحية سهلة. بهذا يضع نفسه في طريق الاستغلال والإحباط والازدراء. إنه يتعذب بسبب هذه المعاملة السيئة ولا يستمتع بها. فما تقدمه له يمثل الفرصة لأن يعيش اندفاعاته السادية الخاصة من خلال شخص آخر دون أن يُضطر لمواجهة ساديته الشخصية. يستطيع أن يشعر بأنه بريء وحانق معنويًا بينما يتأمل في الوقت نفسه الحصول على أفضل ما لدى رفيقه السّادي وقد ينتصر عليه.

لقد لاحظ فرويد الصورة التي أصفها غير أنه أفسد نتائج بحثه بتعاميم لا مبرر لها. لقد ظنّها بعد وضعها في إطار فلسفته برمّتها برهانًا على أنه مهما كان الشخص صالحًا ظاهريًا فهو مخرّب بطبعه. إن الحال في الواقع هي ثمرة مستقلة ناتجة عن عُصاب مستقل.

لقد اجتزنا طريقًا طويلةً بعيدًا عن وجهة النظر التي تعتبر الشخص السّادي منحرفًا جنسيًا أو تلك التي تستعمل تعابير طنانة كأن تصفه بأنه خسيس وخبيث. إن الانحرافات الجنسية نادرة نسبيًا. وحينما تتواجد فهي تمثل مجرد إحدى النواحي لموقف عام تجاه الآخرين. ليس بوسعنا إنكار النزعات التخريبية؛ لكننا عندما نفهمها سنرى كائنًا بشريًا معذبًا خلف السلوك غير الإنساني ظاهريًا. إننا بهذا نفتح الطريق للوصول إلى مثل هذا الكائن البشري عبر العلاج. وسنجده فردًا يائسًا يبحث عن استعادة حياةٍ قد هزمَتهُ.

خاتمة

تصريف الصراعات العُصابية



كلما أدركنا مقدار الضرر الكبير الذي تحدثه الصراعات العُصابية في الشخصية كلما بدت الحاجة ماسة حقًا لتصريفها. إن هذا التصريف لايمكن أن ينفذ بالقرار الواعي ولا بالمراوغة ولا ببذل قوة الإرادة، فكيف ينفذ إذًا؟ هناك طريقة واحدة فحسب. إن تصريف الصراعات يمكن عبر تغيير تلك الظروف الكامنة في داخل الشخصية والتي أدت فيما بعد إلى ظهورها.

إنها طريقة جذرية وصعبة. كما ندرك جيدًا الصعوبات المتصلة بتغيير أي شيء من دواخل أنفسنا إذ ينبغي أن نجوس في الأرض بحثًا عن سبلٍ مختصرة. ربما كان ذلك هو السبب في أنّ المرضى غالبًا ما يتساءلون: هل يكفي أن يبصر المرء صراعه الأساس؟ الجواب بوضوح هو كلا.

وعندما يستطيع المحلل أن يُعين المريض على إدراك هذا الصدع بعد اكتشافه بصورة مبكرة للغاية، وكيف يكون المريض منقسمًا على نفسه بالضبط، فإن نفاذ البصيرة هذا لن يكون ذا فائدة على الفور. وقد يكتسب المريض شيئًا من الراحة حيث يبدأ برؤية سبب ملموس لمشاكله هذه بدلاً من أن يكون ضائعًا وسط ضباب كثيف من الغموض. ولكنه لن يستطيع الإفادة من ذلك في حياته. إذ إن تصوّره كيف تعمل وكيف تتداخل أجزاءه المتنافرة مع بعضها فذلك لن يجعله أقل انقسامًا على ذاته. فهو يصغي لهذه الحقائق كشخص يستمع إلى رسالة غريبة تبدو جديرة بالتصديق ظاهريًا ولكنه لا يدرك مضامينها بالنسبة له شخصيًا. وهو يصمم على تفنيدها بمختلف التحفظات الفكرية اللاواعية. سيصرّ لا شعوريًا أنّ المحلل يبالغ في حجم صراعاته وأنه سيكون على خير ما يرام لو لم يكن الأمر بسبب ظروف خارجية وأن الحب أو النجاح سيخلصانه من محنته وأنه يستطيع أن يتحاشى صراعاته بالبقاء بعيدًا عن الناس. وأن ما يقوله المحلل قد يصدق على سوية الناس لأنهم لا يستطيعون أن يقوموا بخدمة سيّدين أما هو فقادر لأن يقوم بذلك لتمتعه بالقوة والإرادة والذكاء. أو قد يشعر وبصورة غير واعية بأن المحلل ليس أكثر من أحمق حسن النية عليه أن يعلم بأن المريض يائس بدرجة لا ينفع فيها إصلاحٌ. ذلك يعني أنّ المريض يستجيب لإيحاءات المحلل عبر إحساسه الذاتي بالقنوط.

إن مثـل هـذه التحفظات الذهنية تشـير إلى حقيقـة كون المريض متشـبثًا بمحاولاته الشـخصية في الحل، أو لأنه يقنط حقًا من الشفاء لذا يجب العمل على النفاذ نحو تلك المحاولات ونتائجها جميعًا قبل أن يصبح من المستطاع مقارعة ذلك الصراع الأساس بصورة مجدية.

كان البحث عن طريقة أسـهل قد أدى إلى تسـاؤل آخر كما أشار إليه فرويد في الأصل، وهو هل يكفي إرجاع هذه الدوافع المتصارعة إلى جذورها ومظاهرها المبكرة في مرحلة الطفولة؟

و الجواب سيكون كلا. ومرة أخرى تنطبق الأسباب الآنفة الذكر نفسـها إذ إن أكثر الذكريات تفصيلاً عن خِبرَ المريض المبكرة لا تقدم لـه إلا النزر اليسـير في جعل مواقفه أكثر تسـاهلاً وأكثـر صفحًا تجاه نفسه. إنها لا تجعل صراعاته الحاضرة أقل تمزيقًا بأية طريقة.

إن المعرفـة الشـاملة بالمؤثـرات البيئيـة المبكـرة والتغيـيرات التي أحدثتهـا في شـخصية الطفل بالرغـم من كونها تمتلـك قيمة علاجية مبـاشرة ضئيلة فهي تمتلك تأثيرًا حقيقيًا لتسـاؤلنا عن الظروف التي تتطـور فيها الصراعـات. كانت التغييرات في علاقاته مع نفسـه ومع الآخريـن هـي التي سـببت تلك الصراعـات في الحقيقـة. وكنت قد وضعـت هذا التطور في مؤلفاتٍ سـابقة وكذلك في الفصول الأولى مـن هذا الكتاب. باختصار قد يجد الطفل نفسـه في حال تهدد حريته الباطنية وإحساسـه بالأمن وثقته بنفسـه. فيشـعر بعزلته وعجزه وفي النتيجـة فإن محاولاتـه الأولى في الاندماج بالآخرين لا تقرر بسـبب

مشاعره الحقيقية بل عن طريق الضرورات الاستراتيجية. إنه بوضوح لا يستطيع أن يحب أو لا يحب وأن يثق أو لا يثق، وأن يعبر عن أمانيه أو يحتج على أماني الآخرين ولكنه يستطيع أن يستنبط طرقًا ليقارع الناس ويناورهم بأدنى ضررٍ لنفسه. يمكن تلخيص المميزات الأساسية التي تنبثق بهذه الطريقة على أنها اغتراب عن الذات وعن الآخرين وإحساس بالعجز وإحساس شامل مرهف وتوتر عدواني في علاقاته الإنسانية التي تتأرجح بين الاحتراس الشامل والبغض البيّن.

ليس بإمكان الشخص العُصابي مهما حدث أن يستغني عن أي من دوافعه المتصارعة طالما استمرت هذه الحال. على نقيض ذلك تصبح الضرورات الباطنية التي تنشأ عنها أشد إلحاحًا أثناء التطور العُصابي. كما أن الحلول المزيفة تزيد الاضطراب في علاقاته مع الآخرين ومع نفسه ويزداد الحل الحقيقي بُعدًا بصورة مستمرة.

لذلك فإن هدف العلاج يمكن أن يتمثل في تغيير الحالات نفسها فقط. يمكن أن يُساعد الشخص العُصابي على استعادة ذاته وأن يصبح واعيًا لمشاعره ورغباته الحقيقية، أن يستنبط مجموعة قيمه الشخصية وأن يوصل نفسه بالآخرين على أساسٍ من مشاعره وقناعاته. إذا استطعنا أن نفعل ذلك بمزيد من الدقة فستتلاشى الصراعات عندئذٍ. لكننا يجب أن نتعرّف على الخطوات التي يمكن اتخاذها لإحداث التغيير المطلوب.

ولأن كل عُصـاب – مهما كان مثيرًا ومهما كانت أعراضه المرضية تبـدو ظاهريًا غير شـخصية – يُمثـل اضطرابا في الشـخصية، تكون مهمـة العـلاج تحليـل بنيـة الشـخصية العُصابيـة برمتهـا. ومـن هنا كلما اسـتطعنا أن نكون أكثـر وضوحًا في تحديد هذه البنية وأشـكالها الفردية، اسـتطعنا وبدقة أكبر أن نخطط للعمل الذي يتعين إجراؤه. فـإذا تصورنا العُصـاب كصرح واقٍ مشـيّد حول الصراع الأسـاس صار بوسعنا أن نقسّم تحليل النفس إلى جزئين بصورة عامة.

يؤلـف الجـزء الأول فحـص جميـع محـاولات الحـل اللاواعيـة بالتفصيل والتي كان مريضٌ معينٌ اتخذها مع تأثيرها على شـخصيته بكاملها. هذا سـيتضمن دراسـة جميع مضامين اتجاهـه النفسي البارز وصورته المثلى وتخريجه وغيرها، دون أن نأخذ بنظر الاعتبار علاقة هـذا المضامين بالصراعات الكامنة. وسـيكون مـن الخطأ الافتراض بـأن المحلـل لا يسـتطيع أن يفهم ويتعامـل مع هـذه العوامل قبل أن تكون الصراعات قد توضحت. لأن هذه المضامين كانت قد نشـأت بسـبب الحاجـة للتوافق مع الصراعـات فهي تمتلك حيـاة خاصة بها وتحمل ثقلها الخاص وتستخدم سلطانها الخاص أيضًا.

يتضمـن الجزء الثاني العمل مع الصراعات ذاتها. سـوف لا يعني هذا تقريب المريض لإدراك مسـاراتها العامة، بل في مسـاعدتها لرؤية أسـلوب عملهـا بالتفصيـل، أي كيـف تتداخـل دوافعـه المتضاربـة والمواقف التي تنشـأ عنها مع بعضها، وفي أحـوال معينة كيف تكون

الحاجـة في إخضاعـه لنفسـه والمعـززة من قبل السـادية الارتكاسـية مثلاً، والتي تمنعه عن الفوز في لعبة ما، أو عن إتقان عمل من الأعمال التنافسـية بينما هي في الوقت نفسـه تجعل الظفر ضرورة ملحّة تدفعه للانتصـار نحـو الآخرين. أو كيـف يبدو الزهد الناشـئ عن مصادر مختلفـة متدخلاً في الحاجة إلـى العطف والحنو والانغماس في الذات. علينـا أن نريه كيف يقع بين طرفي نقيض، وكيف يتراوح بين التّزمّت والتسـاهل المفرطـين مـع نفسـه، أو كيـف تتكـون طلباتـه المخرَّجة المفروضـة على ذاته، والتي ربما تعززها الدوافع السـادية والمتضاربة مع حاجته في أن يكون شديد المقدرة وكثير التسامح، وكيف يستطيع بالنتيجـة أن يتذبـذب بـين الإدانـة والصفح عـن كل شيء ينهض به الشـخص الآخر، أو كيف يسـتطيع تغيير اتجاهه بين انتحال الحقوق جميعًا لنفسـه وبين الشعور بأنه لا يمتلك أية حقوق على الإطلاق.

سيشـمل هذا الجزء من العمل التحليلي إضافة لذلك تفسير جميع التسويات التي يحاول المريض القيام بها، كمحاولة الربط بين الأنانية مع الكرم، والقهر مع الحنو، والتسلط مع التضحية.

سيتضمن ذلك مسـاعدته على أن يفهم تمامًا كيف تكون صورته المثلـى، وتخريجه مما كان قد أدى إلى إبعـاد صراعاته هذه وفي التعتيم عليها وتلطيف قوتها المخرّبة. بإيجاز سيتضمن تقريب المريض للفهم الشـامل لصراعاتـه هذه بتأثيرها العام على شـخصيته ومسـؤوليتها المحدودة عن أعراضه المرضية.

سيقدم المريض نوعًا مختلفًا من المقاومة في كل من هذين الجزئين للعمل التحليلي. فحينما تحلل محاولاته في كشفها نفسيًا، يصير مصممًا للدفاع عن القيم الذاتية الكامنة في مواقفه ونزعاته، ولذلك يمحو أي تبصر للذات في طبيعتها الحقيقية. وسيهتم بصورة رئيسة أثناء التحليل لصراعاته بالبرهنة على أنها ليست صراعات أبدًا، ولذلك يُموّه ويقلل من شأن الحقيقة في تضارب دوافعه الشخصية.

أما بشأن السياق الذي ينبغي أن تُجابه به الصراعات فإن نصيحة فرويد ستكون دائمًا ذات أهمية قصوى إذ بعد دراسته لتحليل النفس وفق مبادئ ثبتت صحتها في المعالجة الطبية أكّد فرويد على الأهمية لاعتبارين اثنين في أي تعامل مع مشاكل المريض. أولاً ينبغي أن يكون أي تفسير نافعًا وثانيًا ينبغي ألا يكون هذا التفسير مؤذيًا. بعبارة أخرى إنّ السؤالين اللذين يجب أن يحتفظ المحلل بهما في ذهنه هما: هل يستطيع المريض أن يتحمل نفاذ بصيرة معينة في هذا الوقت؟ وهل يكون من المحتمل أنّ لأحد التفسيرات معنى معينًا بالنسبة له وأن يدفع به إلى التفكير بطريقة بنّاءة؟ إننا ما نزال نفتقر إلى معايير ملموسة تتعلق بقدرة أحد المرضى لتحمّله بالضبط وما يؤدي إلى استثارة نفاذ بصيرة بناءة. إن التباين في البنية بين مريض وآخر تبدو عظيمة جدًا، بحيث لا تسمح بأية وصفات ثابتة تتعلق بضبط التفسيرات لكننا نستطيع القول إن معضلات معينة لا يمكن أن تُجابه بصورة نافعة دون مجازفة إلا بعد تغييرات محدودة في مواقف

المريض. وبوسعنا على هذا الأساس أن نُشير إلى إجراءات قليلة يمكن تطبيقها بصورة ثابتة.

إنّ من غير المجدي مجابهة المريض مع أي صراع رئيس طالما يكون مصممًا على ملاحقة أشباح تقوده للنجاة حسبما يتصور. يجب أن يشاهد أولاً أن هذه التطلعات لا طائل من ورائها وهي تتدخل في حياته. وبعبارة واضحة جدًا ينبغي تحليل محاولات الحل قبل الصراعات. إنني لا أقصد أنه ينبغي أن يتجنب أي ذكر للصراعات بصورة دائمة. أما الذي يتطلبه نوع من المفاتحة الحذرة فيعتمد على ضعف البنية العُصابية كلها. بعض المرضى قد يصابون بذعر إذا أُبرزت لهم صراعاتهم قبل الأوان. وسوف لن تتضمن أي معنى بالنسبة لغيرهم إذ ستتلاشى دون أن تترك أي أثر. لكن المرء لا يستطيع منطقيًا أن يتوقع امتلاك المريض لأي اهتمام حيوي بصراعاته طالما كان متمسكًا بحلوله الخاصة متأملاً أن «ينجح» مع وجودها.

يتمثل الموضع الآخر الذي يتعين أن يطرق، بالصورة المثلى. قد ننجرف بعيدًا عما نحن بصدده لو بحثنا هنا في الظروف التي يمكن أن تقارع أثناءها نواحي معينة في مرحلة مبكرة جدًا. فالحذر مرغوب فيه بسبب كون الصورة المثلى تمثل الجزء الحقيقي الوحيد بالنسبة للمريض. وقد يكون العنصر الوحيد الذي يزوده بنوع من احترام الذات والذي يمنعه من إغراق نفسه بوسائل احتقارها. يجب

أن يظفـر المرء بمقـدار من القـوة الحقيقية قبل أن يسـتطيع تحمل أي تقويض لصورته.

من المؤكد أنّ العمل على مقارعة النزعات السـادية في فترة مبكرة من التحليل سوف لن يكون نافعًا. ويكمن السبب في التباين الشديد الـذي تظهره هذه النزعات مع الصورة المثلى. حتى بعد فترة متأخرة فإن الوعي بها يملأ المريض بالرعب والاشـمئزاز. لكن هناك سـبب أدق في تأجيـل هـذا الجزء مـن تحليل النفـس بعد أن يكـون المريض قـد أصبح أقـل قنوطًا وأوسـع حيلـةً. إذ لا يمكن إطلاقًـا أن يكون بوسـعه الاهتمام بالتغلب على نزعاته السـادية بينما هو ما زال مقتنعًا لا شـعوريًا أنّ الحيـاة البديلة التي اختارها تمثـل الشيء الوحيد الذي بقي لديه.

يمكن أن يستخدم الدليل نفسه لتوقيت التفسيرات ولكن تطبيقه الفردي يعتمد على بنية الشـخصية المعينة. فمثلاً مع مريض تسـيطر عليـه النزعـات العدوانيـة – مريض يحتقـر العواطف كلهـا بصفتها ضعـف ويُهلّـل لكل سـيّئ يعطي مظهر القـوة – يجـب أن يجابه هذا الموقف بكل مضامينه أولاً. سـيكون من الخطأ أن نعطي أسبقية لأي جانـب من حاجته للمودة الإنسـانية الحميمة مهما كانت هذه الحاجة بيّنـة بالنسـبة للمحلل. سيسـتاء المريض من أي تحرك مـن هذا النوع لكونـه يمثـل تهديدًا لأمنه. سيشـعر أنـه يجب أن يحـترس ضد رغبة المحلـل ليحيلـه رجـلاً «فاضـلاً إلى حد السـذاجة». سـيكون قادرًا

لأن يتحمـل ميوله نحو المطاوعة ومحو الذات عندما يكون أقوى من ذلك بكثير فحسب. مع مريض كهذا يحسن بالمرء أيضًا التوجه بعيدًا عـن معضلة القنوط لأنه من المحتمل أنه سـيقاوم الاعتراف بأي من هذه المشـاعر. القنوط سـيعني بالنسبة له شـفقة على الذات البغيضة ويعني الاعتراف بالهزيمة. وبالعكس من ذلك إذا تسلطت النزعات المطاوعـة فيجـب أن تمحّص كل العوامـل المتصلـة «بالتحرك نحو» الناس تمامًا قبل أن يكون من المسـتطاع مقارعة أي ميول تسـلطية أو انتقاميـة، ومـرة أخرى إذا اعتـبر أحد المرضى نفسـه عبقريًا عظيمًا أو عاشقًا عظيمًا، فسيكون الأمر إضاعة كاملة للوقت إذا بحثنا بأسباب خوفه التي تتعلق بكونه محتقرًا ومرفوضًا وسيكون الأمر أشد انعدامًا في جدواه إذ أردنا أن نقارع احتقاره لذاته.

أحيانًا يكون المجال في المجابهة محدودًا جدًا. يبدو هذا خاصة عندما تتوحـد درجة عالية من التخريج مـع مثالية متصلبة للذات وهي حال سوف ترفض أي عيب. فإذا افتضحـت علامات معينة لهذه الحال فإنه سـيوفر وقتًا كثيرًا بتجنب أي تفسيرات، حتى ولو أشير إليها من بعيد لكونها مصدر مشـكلة المريض الكامن في دخيلـة ذاته. وقد يكون من العمـلي خلال هذه الفترة أن نشـير إلى نواحٍ معينة مـن الصورة المثلى مثل المطالب المتطرفة التي يفرضها المريض على نفسه.

تسـاعد معرفـة القوى المحركـة في بنية الشـخصيـة العُصابية أيضًا على أن يفهـم المحلل بصورة أسرع وأدق ما يريد المريض أن يعبّر عنه

بالضبط في تداعي أفكاره، ومن هنا ما ينبغي أن يتعامل معه في تلك اللحظة. سيكون قادرًا أن يتصور ويتنبأ من خلال مؤشرات تافهة ظاهريًا جانبًا واحدًا كاملاً من شخصية المريض وهكذا يكون بوسعه أن يوجه انتباهه للعناصر التي يتعين أن يترقبها. سيماثل مركزه مركز الطبيب الباطني الذي عندما يعلم أن أحد المرضى يسعل ويعرق ليلاً ثم يكون شديد الإعياء عند العصر، سيفكر هذا الطبيب في إمكان إصابته بتدرن رئوي وينقاد في فحصه طبقًا لذلك.

إذا كان أحد المرضى كثير التبرير في سلوكه ومستعدًا ليعجب بالمحلل، وكاشفًا عن ميول محو الذات في صِلاته، حينها سيتصور المحلل جميع العوامل المرتبطة في «التحرك نحو» الناس وسيتفحص احتمال كون هذه تمثل الموقف المتسلط على المريض؛ وإذا وجد دلائل أخرى فسوف يحاول أن يبحث فيها من كل زاوية ممكنة. كذلك إذا تحدّث أحد المرضى بصورة متكررة عن التجارب التي شعر بالعار منها، وأشار إلى أنه ينظر إلى تحليل النفس في هذا الضوء فسيعرف المحلل أن عليه أن يجابه خوف المريض من الاحتقار. وسوف يختار أصل ذلك الخوف الذي يمكن التوصل إليه بسهولة في تلك الأثناء. وقد يكون قادرًا على ربطه بحجة المريض لإثبات صورته المثالية، بشرط أن بعض أجزاء الصورة قد أوضحت. وإذا كان المريض يظهر تعطلاً من خلال موقف التحليل مثيرًا الشعور بالهلاك، حينها سيتعين على المحلل أن يقارع قنوطه بقدر ما يستطيع ذلك عندئذٍ.

فـإذا حدث هذا منذ البداية فقد يسـتطيع أن يبيّن معنـاه فقط، أي إنّ المريض كان قد يئس من نفسـه. سـيحاول أن ينقـل إليه أن قنوطه لا ينبع من حال ميئوس منها حقًا بل يمثل مشكلة معينة يتعين أن تُفهم وأن تُحل في النهاية. أما إذا ظهر القنوط في فترة متأخرة فقد يسـتطيع المحلل أن يعزيه بصورة أدق ليأسـه في العثور على مخرج من صراعه أو في الارتقاء إلى مستوى صورته المثلى.

مـا زالـت الإجـراءات المقترحة تـترك مجالاً واسـعًا لبديهة المحلل ولحساسـيته لمـا يدور في باطـن المريض، كـما تبقى هذه وسـائل قيّمة لا يمكن الاسـتغناء عنها، وإنّ على محلل النفس أن يكافح في سـبيل تطويرهـا بأقصـى جهـده. لكن اسـتخدام الفطرة لا يعنـي أن النهج يكمـن في مملكة «الفن» أو أنه نهج يكفي فيه تطبيق الفطرة السـليمة. إنّ معرفـة بنية الشـخص العُصابية يجعل الاسـتنتاجات التي تسـتند عليهـا تصبـح علمية بصـورة دقيقة وتمكـن المحلل من قيـادة تحليل النفس بأسلوب دقيق ومسؤول.

مـع ذلك يسـتطيع المحلـل أحيانًا بسـبب الاختلافـات الفردية اللامتناهيـة في البنيـة أن يتقـدم بواسـطة المحاولـة والخطـأ. حينـما أتحـدث عـن الخطـأ فإنني لا أشـير إلـى تلـك الأغـلاط الفادحة، كالدوافـع المنسـوبة إليـه والغريبة علـى المريض، أو إلى الفشـل في فهـم دوافعـه العُصابيـة الأسـاسـية. مـا يـدور في خلدي هـو الخطأ الشائع جدًا الذي يرتبط بإعطاء تفسيرات لا يكون المريض مستعدًا

لاستيعابها في ذلك الحين. وبينما يمكن تجنب الأغلاط الفادحة، سيبقى ثمة خطأ في إعطاء تفسيرات فجّة. نستطيع أن نتوصل لإدراك أسرع لمثل هذه الأخطاء إذا كنّا شديدي الاحتراس تجاه طريقة رد الفعل المريض. ويبدو لي أن تاكيدًا صريحًا كان قد وضع على حقيقة «مقاومة» المريض، أي قبوله أو رفضه لتفسيرٍ ما، كما وضع تأكيد قليل لما يدل عليه رد فعله بالضبط. وذلك لأن نوع رد الفعل بكل تفاصيله هو الذي يبيّن ما يتعين أن يُمحّص قبل أن يكون المريض مستعدًا للتعامل مع المعضلة التي كشف المحلل عنها النقاب. قد تنفع الحال كمثال إيضاحي. أدرك أحد المرضى أنه ضمن علاقاته الشخصية كان يبدي قلقًا عميقًا في الاستجابة لأي مطلب من مطالب الشريك. كان يعتبر أهوَنَ الطلبات أمورًا لا تحتمل، وأصحّ الانتقادات كالإهانات. وفي الوقت ذاته كان يشعر بأنه حر في المطالبة بتفانٍ مطلقٍ وفي التعبير عن انتقاداته الشخصية بصورة صريحة جدًا. لقد أدرك بأنه خوَّل نفسه كل امتياز بينما أنكر كل شيء على شريكه. أصبح جليًا لديه أنّ هذا الموقف كان يقود إلى إفساد العلاقة بينهما إن لم يكن إلى تدميرها. لقد كان حتى هذه المرحلة يتميز بنشاط عال كما كان غزير الإنتاج في أدائه التحليلي. لكن الصمت خيّم على الجلسة التي أعقبت تحسسه بعواقب مواقفه. كان المريض مكتئبًا وقلق البال إلى حدٍ ما. بيّنت خواطره القليلة التي ظهرت فعلاً وجود ميلٍ قوي للتراجع مما كان يتناقض

بشكل حاسـم مع لهفته في الساعات المنصرمة لإقامة علاقة وشيكة مع إحدى النساء.

كان اندفاعـه في التراجـع يمثـل تعبـيرًا لعـدم تحملـه المشـاركة العاطفية بالنسـبة له. لقد كان يقبل فكرة المسـاواة في الحقوق نظريًا ولكنه يرفضها عمليًا. وبينما كان اكتئابه يمثل رد فعل تجاه اكتشـافه لنفسـه ضمـن دوامـة مضطربـة كان ميله للتراجـع يعنـي بأنه كان يتلمـس حلاً. وحينما أدرك عدم جدوى التراجع وشـاهد ألّا مخرج هناك باسـتثناء تغيير موقفه، أضحى مهتمًا بالمسـألة المرتبطة بسـبب عدم قبوله المشـاركة العاطفية. كانـت خواطره التي ظهرت مباشرة بعدئذٍ قد بينت أنه كان انفعاليًا يرى أحد بديلين فحسـب؛ إما حيازة الحقـوق كلها أو عدم وجود أي حق له مهما كان. فعبّر عن خشـيته في أنـه إذا تنازل عن أي حق، فسـوف لن يقـدر أن يفعل ما يريد بل سـيضطر إلى مسـايرة رغبات الآخرين. وقد فتح هـذا بدوره بوابة نزعاتـه المسـايرة والمزيلة للـذات، والتي بالرغم من أنهـا لم تكن قد أُثرت حتى ذلك الحين، لم تكن قد شوهدت قبل ذلك ضمن أبعادها وأهميتهـا الكاملة. كانت مسـايرته اتكالية لأسـباب متعددة عظيمة جدًا حيث تعين عليه سـابقًا أن ينشـط في الدفاع المصطنع المتضمن انتحال وحصر جميع الحقوق لنفسه. كان التخلي عن الدفاع في وقت كانت مطاوعته ما تزال تمثل صورة باطنية ملحة يعني إغراق نفسـه كفرد.

و قبل أن يستطيع حتى مجرد التفكير في تغيير استقراره العفوي كان يتعين عليه أن يبحث في نزعاته المطاوعة.

سيكون جليًا ضمن كل شيء ذكر في هذا الكتاب أن المرء لن يستطيع استنزاف مشكلة، بحثًا وتمحيصًا عبر طريق واحدة. إذ يجب أن يعود إليها ثانية وثالثة من مختلف الزاويا. لأن أي موقف منفرد ينبع من أصول متفرقة، ويتقمص وظائف جديدة أثناء التطور العُصابي. وهكذا يمثل موقف الاسترضاء و«التحمّل» للكثير، جزءًا أساسيًا من حاجة الشخص العُصابي للحنو الذي يجب أن يقارع أثناء التعامل مع تلك الحاجة. كما يجب أن يستأنف إمعان النظر فيها مليًا عند البحث في الصورة المثلى. في ذلك الضوء سيشاهد الاسترضاء كتعبير عن فكرة المريض بأنه قدّيس وسيفهم الحاجة لتجنب الاحتكاك حينما تُناقض عزلته. كما ستصبح طبيعة الموقف القسرية أكثر جلاءً حينما يظهر للعيان خوف المريض من الآخرين، وميله إلى التقهقر أمام اندفاعاته السادية. قد تشاهد حساسية أحد المرضى تجاه الإكراه، أولاً كموقف وقائي ناشئ عن عزلته، ثم كإسقاطٍ لرغبته الملحة الخاصة نحو السلطة وربما بعد ذلك كتعبير عن التخريج والإكراه الباطني أو النزعات الأخرى.

يجب أن يُفهم ويدرس أي موقف أو صراع عُصابي أثناء تحليل النفس من خلال صلته بالشخصية ككل. وهذا ما يدعى بالتحرر التدريجي. وهو يتضمن الخطوات التالية: مواكبة جميع المظاهر الخفية

والعلنيـة للنزعة أو الصراع المحدود، ومسـاعدة المريض على إدراك طبيعتـه القسريـة، وتمكنه من التوصل إلى قـدر كل من أهميته الذاتية وعواقبه المضادة.

حينـما يكتشـف المريـض ميـزة عُصابيـة غريبـة ويميل إلـى عدم تمحيصها من خلال طرح السؤال مباشرة: «كيف حدث هذا؟»، فهو يأمل حل المشـكلة الخاصـة متجهًا إلى أصولها التأريخيـة. وهنا على المحلل أن يُبصّره بعدم جدوى تذكر الماضي. وأن يصبح على اطلاع حسن بالميزة غير المألوفة. يجب أن يتعرّف على الطرق المحدودة التي تظهر فيها نفسـه، والوسـائل التي يلجأ إليها هـو لتغطيتها والتعرّف علـى مواقفـه الشـخصية تجاهـا فـإذا كان منبـع فزع المريـض كونه مسـايرًا بشـكل جلي، حينها ينبغـي أن يُبصّر بمقدار مـا يصل إليه في غيظـه وخوفه واحتقاره لنفسـه ولأي مـن أنواع محبي الـذات. عليه أن يميـز الضوابط التـي كان قد أقامها لا شـعوريًا للتخلص من كل إمكانـات المطاوعـة وكل مـا يتعلـق باتجاهـات المطاوعـة في حياته. سـيفهم بعد ذلك كيف تخدم المواقف المختلفـة ظاهريًا غاية واحدة، كيف أمكن له أن يُخدّر حساسيته تجاه الآخرين حيث أصبح غير واعٍ بمشـاعرهم وبرغباتهـم أو ردود أفعالهم وكيف أمات أي إحسـاس بالحنـان تجاه الآخرين وكذلك بإخفـاء أية رغبة لأن يُحبَّ من قبلهم. كيف أنه يستخف بمشاعر الرقة والطيبة عند الغير؛ كيف يميل تلقائيًا للالتماسات وكيف يكون شـعوره تجاه علاقاته الشخصية. قد يكون

متقلب الطبع ونزاعًا إلى النقد كثير المطالب ولكنه ينكر على الغير أيًا من هذه الامتيازات. وإذا كان إحساس المريض بالقدرة الكلية هو الذي تبلور فلا يكفي حينها أن يميز امتلاكه لهذا الإحساس. يجب أن يدرك كيف يكلف نفسه منذ الصباح حتى المساء بمهمات مستحيلة، وكيف يفكر في القدرة لأن يكتب بحثًا لامعًا لموضوع معقد بسرعة فائقة، وكيف يتوقع أن يكون عفويًا ومتألقًا برغم إنهاكه الشديد، وكيف يتوقع أثناء التحليل حلَّ مشكلة ما في اللحظة التي يسترق إليها النظر.

ثم ينبغي أن يعرف المريض أنه مدفوع للأداء موافقًا للنزعة المعينة وبغض النظر عن، أو ربما على نقيض رغباته أو مصلحته الشخصية العليا. ويجب أن يدرك تأثير القسر دون تمييز ودون دراسة الظروف الواقعية. عليه أن يلاحظ موقفه في البحث عن الأخطاء الموجّهة نحو خلّانه وأعدائه على حد سواء. فهو يلوم شريكه مهما كان تصرف الأخير. فإذا كان هذا لطيفًا يرتاب لشعوره بالذنب لشيء ما، وإذا كان حقّق ذاته فهو مستبد، وإذا استسلم فهو ضعيف، وإذا أحب أن يكون برفقته فهو سهل المنال بصورة مفرطة، وإذا رفض شيئًا فهو شحيح، وهكذا. أو إذا كان الموقف الذي تجري مناقشته متعلقًا بشك المريض في كونه مرغوبًا أو محتفى به فيجب أن يميز استمرار الموقف رغمًا عن جميع الأدلة المعاكسة. كما يتضمن فهم طبيعة النزعة القسرية أيضًا إدراك ردود الفعل تجاه إحباطها. فإذا كانت النزعة التي انبثقت

تتصل بحاجة المريض للحنو سيتعين عندها فهم الشعور بالضياع والرعب في أية علاقة للرفض أو اضمحلال المودة مهما كانت تلك العلاقة تافهة أو مهما كان مقدار أهمية الشخص بالنسبة له.

و بينما تبيّن أولى هذه الخطوات للمريض سعة مشكلته الشخصية لتؤكد الثانية في ذهنه كثافة القوى الكامنة وراءها. كلتاهما تثيران اهتمامًا من أجل إمعان النظر فيهما.

حينما يصل الأمر إلى دراسة القيمة الشخصية للنزعة الخاصة فغالبًا ما سيكون المريض نفسه توّاقًا للإدلاء بالمعلومات. قد يبيّن أن عصيانه وتحدّيه للجميع يمثل إكراهًا ضروريًا، أو في الحقيقة هو مسألة حياة أو موت لأنه كان واقعًا تحت تأثير أبٍ مسيطر. وقد أعانته أفكار التفوق، وما زالت، على مواصلة السير ضد افتقاره لاحترام الذات، وأنّ عزلته أو موقفه في أن «لايبالي» يحميه من الأذى. حقًا إن خواطرًا كهذه تنطلق بروحية الدفاع لكنها تكون معبرة أيضًا. فهي تذكّرنا بالأسباب التي أدت إلى اكتساب الموقف الخاص بالدرجة الأولى وبذلك تظهر لنا أهميتها التأريخية وتعطينا فهمًا أفضل لتطور المريض. غير أنها تقود المسيرة أيضًا باتجاه فهم وظائف النزعة المتوفرة. وهذه تمثل الوظائف التي تتميز بأهمية قصوى من وجهة نظر العلاج. إذ لا تصير أية نزعة أو أي صراع مجرد تحفة تشير إلى الماضي، فهي لو اكتسبت مرة فستستمر إلى الأبد. إن بوسعنا أن نتأكد كونها تتقرر من إلحاح الضرورات في قرارة بنية الشخصية الحالية. من الممكن أن

يكون مجرد المعرفة لسبب تطور ميزة عُصابية غريبة أصلاً ذات قيمة ثانوية فقط، لأن ما يجب أن نغيّره هو تلك القوى المؤثرة في الوقت الحاضر.

إن القيمة الذاتية لأي حال عُصابية تكمن في موازنتها المتقابلة لبعض الميول العُصابية الأخرى. لذلك سيعطي الاستيعاب الشامل لهذه القيم مؤشرًا لأسلوب التقدم في حال معينة. فإذا كنا نعي كون أحد المرضى لا يستطيع التخلص من إحساسه بالقدرة الكلية لأنها تهيئ له فرصة الخطأ، متصورًا إمكاناته الكامنة هي وقائع، وخططه المجيدة هي منجزات حقيقية، فسنعلم أننا قادرون على فهم مقدار وُلوجِه في دنيا الخيال. وإذا سمح لنا مشاهدة حياته بهذه الطريقة صائنًا ذاته ضد الفشل فسيوجّه انتباهنا للعوامل التي لا تقوده إلى توقع الفشل فحسب بل إلى بقائه في فزعٍ دائمٍ منه أيضًا.

تتمثلُ الخطوة العلاجية الأعظمُ أهميةً في لفت نظر المريض كي يشاهد الوجه الآخر للعملة: التأثيرات المعجزة الناجمة عن دوافعه وصراعاته العُصابية. كان قد تم تناول جزء من هذا العمل خلال الخطوات السابقة لكن من الحيوي أن تكون الصورة كاملة بكل تفاصيلها. وبعد ذلك فقط سيشعر المريض بالحاجة لأن يتغير. يتطلب الأمر حافزًا قويًا شديدًا ليرجح على كفة القوى المثبطة في ضوء حقيقةِ أنّ كلّ شخص عُصابيٍّ منقادٌ للمحافظة على الوضع الراهن لديه. يمكن أن يتأتى مثل هذا الحافز فقط من رغبته الشديدة

في الحرية الباطنية وفي السعادة وفي النمو، ومن الإدراك أنّ كل مشكلة عُصابية تقف حجر عثرة لتحقيقها. وإذا كان ميالاً نحو نقد الذات المحط من القدر عليه أن يرى كيف يبدّد هذا الاحترام ذاتَه ويتركه يائسًا. وكيف يجعله مكروهًا ومقاسيًا الأذى، وهذا يدفعه بدوره ليصبح حقودًا ومشلول الحوافز والقدرة على العمل. وكيف يضطر تحاشي السقوط في هاوية احتقار الذات، ولاتخاذ مواقف الدفاع كتعظيم الذات والابتعاد عن ذاته، واكتساب أحاسيس وهمية عن نفسه وبذلك يديم مرضه العُصابي.

عندما يكون صراع معين مرئيًا أثناء عملية تحليل النفس فيجب العمل على أن يعي المريض تأثيره على حياته. في حال توفر صراع ثابت بين ميول إزالة الذات، والحاجة للانتصار يجب أن تفهم جميع المشاعر المكبوتة المعوقة الكامنة في السادية الارتكاسية. يجب أن يرى المريض كيف يستجيب لكل تحرك يتميز بالقضاء على الذات بأسلوب احتقار الذات وبالغيظ من الشخص الذليل وكيف يستجيب لكل محاولة منتصرًا على بعض الناس باشمئزاز شديد من ذاته وبخوف من المقابلة بالمثل.

أحيانًا، يحدث أن يصبح أحد المرضى على وعي بسلسلة العواقب المناوئة ولا يبدي اهتمامًا من أجل التغلب على الموقف العُصابي الخاص. وفوق ذلك تبدو المعضلة وكأنها قد تلاشت من الصورة. فهو يزيحها جانبًا بلا وعي تقريبًا دون أن يكسب شيئًا. إن

افتقـاره للاسـتجابة يلفت النظر علـى أنه كان قد شـاهد الضرر كله والـذي يصاب هـو به. ومع ذلك ما لم يكن المحلل داهية في تمييز هذا النـوع من رد الفعل فقد يمرّ تجاهـل المريض دون ملاحظته. فيتناول المريـض موضوعًـا آخر ويتبعـه المحلل حتـى يصلا ثانيـةً إلى مأزق مشـابه. سـيكون المحلل واعيًا بالحقيقة في أن التغييرات التي حدثت عند المريض لا تتناسب مع الجهد المبذول.

إذا علـم المحلـل أنه قـادر على توقـع رد فعل من هـذا النوع فإنه سيسـأل عن العوامل المؤثـرة في باطن المريض والتـي تمنعه من قبول الحقيقـة. عليـه أن يغيّر الموقـف المعين بما يجـرّ خلفه من سلسـلة من العواقـب المـضرة. هنـاك بعض من هـذه العوامـل في العـادة، ومن المسـتطاع مقارعتها شـيئًا فشـيئًا. وقـد يكون المريض مشـلولاً بتأثير قنوطه شللاً عظيمًا بحيث لا يفكر في إمكان التغيير. وقد يكون دافعه في الانتصار على المحلل وفي إحباط همته وفي جعله أضحوكة نفسه، أقوى من مصلحته الذاتية. وقد يكون ميل المريض للتخريج لا يزال عظيمًا جدًا بحيث أنه بالرغم من إدراكه للعواقب لا يستطيع أن يفهم نفاذ البصيرة على نفسـه. وقد تكون حاجته للشعور بالقدرة الكلية ما زالـت قوية جدًا بحيث أنه بالرغم من رؤيته للعواقب كأمر لا بدّ منه فهـو يخلق تحفظًا ذهنيًا ضـد قدرته على تجنبها. كما قد تكون ما زالـت صورتـه المثلى متصلبة جدًا بحيث لا يسـتطيع مواكبة أية مواقف أو صراعات عُصابية. بعد ذلك سيحاسـب نفسـه وسيشعر أنه ينبغي أن

يكون قادرًا على قهر المشكلة المعينة لأنه مطلع عليها بوضوح. من المهم متابعة هذه الاحتمالات لأنها إذا أهملت فسوف تؤدي بحافز المريض نحو التغيير، ومن المستطاع أن ينحدر تحليل النفس بسهولة إلى ما يدعوه هاوستون بيترسون «الهوَس النفسي» أي علم النفس لذاته كعلمٍ للنفس. يمثل دفع المريض لقبول ذاته في هذه الظروف كسبًا واضحًا. فهو سيحصل على شعور عميق بالارتياح وسيوضح أنه يريد حل عقدة شراك العنكبوت المستقرة في دخيلته حتى ولو لم يكن قد تغير أي شيء في الصراع نفسه. وحالما يكون قد أُنجز بناء هذا الظرف المناسب للعمل فإن التغييرات ستحدث عاجلاً.

إن العرض المذكور لا يقصد به أن يكون رسالة تتعلق بالبراعة الفنية للتحليل. فلم أكن قد حاولت أن أعرض كل العوامل التي تزيد الطين بلة والتي تفعل فعلها خلال العملية ولا الإشارة إلى كل العوامل المعافية. إذ لم أكن قد ناقشت أيًا من المصاعب أو المنافع التي تتضح بتقديم المريض كل الخصوصيات والإمكانات لعلاقته مع محلل النفس، رغمًا عن أن هذه تمثل عنصرًا ذا أهمية بالغة. وتؤلف الخطوات التي كنت قد وصفتها بالعمليات الأساسية والتي يجب المرور عبرها في كل مرة لتصبح فيها إحدى النزعات أو الصراعات الجديدة ظاهرة للعيان. في الغالب، يكون من المستحيل التقديم ضمن ترتيب معين سلفًا لأن مشكلة ما قد لا تكون في متناول المريض حتى وإن كانت قد تبلورت بوضوحٍ تام. وقد تفصح مشكلة عن أخرى

ولا بـدّ أن تحلل أولاً، كما شـاهدنا في المثـال المتعلق بانتحال الحقوق. إنّ الترتيب أهمية ثانوية طالما أنّ كل خطوة تعالج في نهاية المطاف.

حقًا إن التغيرات المشـيرة للأعراض المرضية الدقيقة والناجمة عن التحليـل تختلف باختلاف الموضـوع المراد. فقد تهدأ حال من أحوال الذعـر حينما يميـز المريض غيظه الكظيم اللاواعـي مع خليفته. وقد تزول الكآبة حينما يرى المريض الدوامة التي أُسر فيها. لكن كل جزء مـن التحليل الـذي أُتقن إجراؤه يُحدِثُ أيضًـا تغيرات عامة معينة في موقـف المريض تجاه ذاته وتجاه الآخرين، تغيرات تحدث بغض النظر عن المشكلة المعنية التي كانت قد حُرِّرت تدريجيًا.

لو حدث أن أخذنا تلك المشـكلات المختلفـة كالمبالغة في التأكيد علـى الجنس والاعتقاد باتفـاق الحقيقة مع أمنيات المرء والتحسـس العنيف للإكراه فسـنجد تحليلها مؤثرًا في الشـخصية بالطريقة نفسها تمامًا. ليس من المهم أن تحلل أية واحدة من هذه المشكلات فالعدوان والعجز والخوف والاغتراب عن الذات ستتلاشى كلها. دعنا نشاهد كيف يقلل الاغتراب عن الذات كل هذه الحالات. إن الشخص الذي يتهالك على الجنس سـوف يشعر بالنشـاط في الممارسات والخيالات الجنسـية الجامحة وتقتصر انتصاراته وهزائمه على عالم الجنس، كما أن الشيء الثمين الوحيد يصبح مولعًا بجوانب أخرى من الحياة وهكذا يسـترجع ذاته، كما أن الشخص الذي تحاط حقيقته بمشاريع وخطط مخيلته كان قد أخفق في اعتبار نفسه مخلوقًا إنسانيًا يؤدي دوره. فهو لا

يبصر حدوده ولا مؤهلاته الواقعية. وعبر تحليل النفس سيكف عن الخطأ باعتبار إمكاناته منجزات وسيكون قادرًا ليس على المواجهة فحسب، بل على الإحساس بذاته. إنّ الشخص المفرط في التحسس بالنسبة للإكراه كان قد أصبح غافلاً عن رغباته ومعتقداته الذاتية حيث يشعر أن الآخرين هم المسيطرون عليه والمستغلون له. وعندما تحلل هذه الحال فسيبدأ بمعرفة ما يريده حقًا ومن هذا المنطلق سيقدر على مواصلة السير باتجاه أهدافه الخاصة.

في كل تحليل للنفس سيبرز العدوان في الواجهة وبغض النظر عن نوعه ومصدره فهو يحيل المريض أشد قابليةً للانفعال. غير أنه في كل مرة ينبري فيها موقفٌ عُصابي سيضعف العدوان غير الموجّه. وسيكون المريض أقل حقدًا، إذ يرى بعضًا من مشاكله بدلاً من اللجوء إلى تخريجها، وحينها يصبح أقل عرضةً للانفعال وأقل تخوفًا وأقل اتكالاً وأقل مطالبًا وهكذا.

يخف العدوان بانخفاض العجز بصورة رئيسة. فكلما أصبح الشخص أقوى قلّ إحساسه بأنه مهدد من قبل الآخرين. فتزداد القوة نتيجة لمصادر متنوعة. إذ إن مركز ثقله الذي كان قد انتقل إلى الآخرين سابقًا استقر في دخيلة ذاته مدركًا بأنه أكثر حيوية وقدرة لتأسيس قيمه الذاتية. تدريجيًا ستتوفر له طاقة أعظم إذ تُحرَّر الطاقةُ المكبوتة في جزء من ذاته سابقًا ليصير أقل كبتًا وأقل شعورًا بالمخاوف وأقل احتقارًا لذاته وأقل عجزًا. وبدلاً من أن يكون مسايرًا أو مقاتلاً

أو منفّسًا لاندفاعاته العُصابية بلا رويّة سيكون بوسعه التنازل بيسر وهكذا يصبح أشدّ ثباتًا.

أخيرًا على الرغم من أن القلق يستثار مؤقتًا بتقويض الدفاعات المكينة فإن كل خطوة تتخذ بصورة مجدية تقود لاضمحلاله لأن المريض يصبح أقل خوفًا من الآخرين بل ومن نفسه.

تكون المحصلة العامة لهذه التغييرات تحسنًا في صلات المريض مع الآخرين ومع نفسه. فتقل عزلته إلى الحدّ الذي يصبح فيه أقوى وأقل خصومة، ويتوقف الآخرون تدريجيًا عن كونهم مثار تهديد له، ويتعين عليه محاربتهم أو مناورتهم أو تحاشيهم. كما يقدر على امتلاك مشاعر المودة تجاههم. وتتحسن صلاته مع ذاته عندما ينبذ التخريج ويزول عنه احتقار الذات.

إذا محّصنا التغيرات التي تحدث أثناء التحليل، فسنرى انطباقها على الظروف نفسها والتي سببت الصراعات الأصلية. بينما تصبح جميع الضغوط أشد حدة خلال تطور العُصاب يأخذ العلاج الطريق المضادة. فتصبح المواقف التي نشأت عن الحاجة للتغلب على العالم من خلال مواجهة العجز والخوف والعدوان والعزلة متجردة من معناها أكثر فأكثر ومن هنا يمكن الاستغناء عنها تدريجيًا. لماذا يرغب أي امرئ أن يضحي بذاته في سبيل أشخاص يمقتهم وممن يطؤونه بأقدامهم إذا امتلك القدرة لملاقاة الآخرين على قدم المساواة؟ لماذا ينبغي على أي امرئ امتلاك رغبة شديدة من أجل السلطة والتميز

إذا شعر أنه آمن في قرارة نفسه ويستطيع أن يحيا ويكافح مع الآخرين بلا خوف دائم من كونه مغمورًا؟ لماذا ينبغي على أي امرئ أن يتحاشى بلهفةٍ الاتصالَ بالآخرين إذا كان قادرًا على أن يُحبّ وليس خائفًا من أن يقاتل؟

يتطلب تنفيذ هذا العمل وقتًا، إذ كلما كان شخص ما معقدًا وضعيفًا تطلب ذلك منه وقتًا أطول. إن الرغبة في توفر علاج تحليلي قصير أمر يمكن أن يفهم بسهولة تامة. إذ ينبغي أن نرى عددًا أكبر من الناس يستفيدون من كافة وسائل التحليل. كما ندرك أن بعض المساعدة هو خير من عدم جودها على الإطلاق. تتنوع أمراض العُصاب في شدتها بصورة كبيرة ومن المستطاع المعاونة في أمراض العُصاب المعتدلة خلال فترة وجيزة نسبيًا. وبينما تبشر بعض تجارب التحليل الموجز بالأمل والجدوى، فإن البعض منها قائم على أفكار التمني أو الجهل بالقوى الجبارة التي تفعل فعلها في مرض العُصاب. إنني أعتقد أن إجراء التحليل يجب أن يوجز فحسب في حال أمراض العُصاب الحادة، عن طريق تحسين فهمنا لبنية الشخصية العُصابية إلى درجة كبيرة، بحيث يضيع وقت أقصر في تلمّس هذه التفسيرات.

لحسن الحظ لا يمثل تحليل النفس الطريقة الوحيدة لتصريف الصراعات العُصابية. ما زالت الحياة نفسها المعالجَ ذا التأثير الأعظم. إن مختلف أنواع الخبرة لدى أي امرئ قد تكون واضحة جدًا لتحدث تغيرات في الشخصية. ومنها المثال الملهم لشخص

عظيـم حقًـا، أو مأسـاة عامة تنتشـل الشـخص العُصابي مـن عزلته الذاتيـة عـن طريـق دفعـه للاتصـال الوثيـق بالآخرين، وقـد تكون اتصـالاً بأشـخاص يلائمون طباعـه إلى درجة تبـدو معها مناورتهم أو تجنبهم أقل ضرورة. في أحوال أخرى، قد تكون عواقب السـلوك العُصابي متطرفة جدًا ومتكررة الحدوث، بحيث أنها تطبع نفسـها في ذهن الشخص العُصابي وتجعله أقل تخوفًا وأقل تصلبًا.

إن العـلاج الذي تحققه الحياة لا يقع تحت سـيطرة المرء، على كل حال. إذ ليس من المسـتطاع أن تُهيَّأ المشاكل أو الصداقات أو المشورة الدينية لتكون في مواجهة حاجـات الفرد الخاصة. فالظروف المواتية لأحد الأشـخاص قد تسـحق الآخر كليًا. وكما شـاهدنا تكون قابلية الشـخص العُصـابي لتميز عواقـب سـلوكه العُصـابي والتعلم منها محـدودة جـدًا، وبإمكاننـا القول إن بوسـعنا أن نوقـف أي تحليل إذا كان المريض قد اكتسـب هذه القابلية ذاتها مسـتفيدًا من تجاربه. أعني إذا كان بوسـعه تمحيـص حصته من المشـكلات التي تظهـر وفهمها وتطبيق نفاذ البصيرة على حياته.

إن معرفـة الـدور الذي تلعبـه الصراعـات في العُصـاب وإدراك إمكانيـة تصريفها يجعل من الضروري إعادة النظر في تعريف أهداف المعالجـة التحليليـة. إذ رغـم أن العديد مـن الاضطرابـات العُصابية يرجـع إلـى عالم الطـب، غير أنـه ليس مـن العملي معرفـة الأهداف مـن خـلال التعابير الطبية. يجـب تعريف أهداف العـلاج من خلال

بنية الشخصية، ذلك لأنه حتى الأمراض الناشئة عن التفاعل بين الظواهر الجسدية والنفسية تبدأ أساسًا ذروة التعبير عن الصراعات في داخل الشخصية.

إذا أخذنا ذلك الاعتبار فهي تشمل عددًا من الأهداف. يجب أن يحرز المريض القابلية على تحمل مسؤولية نفسه، بمعنى إحساسه بنفسه كقوة فعالة مسؤولة في حياته، وأن يكون قادرًا على صنع القرارات وتحمل العواقب. كما يصحب ذلك قبول المسؤولية تجاه الآخرين استعدادًا لتنفيذ الالتزامات التي يؤمن بقيمتها إن ارتبطت بأطفاله أو أبويه أو أصدقائه أو مستخدميه وزملائه وجماعته أو بلده.

إن الهدف من تحقيق استقلالٍ باطنيٍّ مرتبطٍ بذلك ارتباطًا وثيقًا هو هدفٌ يبتعد كثيرًا عن مجرد تحدي آراء واعتقادات الآخرين كابتعاده عن مجرد تبنّيها. إن هذا يعني بصفة رئيسة قدرة المريض على بناء تسلسل هرمي لقيمه الخاصة وتطبيقه على حياته الواقعية. ذلك سيتضمن بالنسبة للآخرين احترام فرديتهم وحقوقهم وهكذا سيؤلف القاعدة المتجهة نحو مشاركة حقيقية متبادلة. والأخيرة ستتفق مع المُثُل الديمقراطية الحقّة.

كذلك بوسعنا تعريف الأهداف بلغةِ عفويةِ الإحساس أي وعي وحيوية المشاعر، إنْ تعلق ذلك بالحب أو الكره والسعادة أو الحزن والخوف أو الرغبة. سيتضمن هذا القدرة على التعبير وكذلك على السيطرة الطوعية. ينبغي الإشارة في هذا الصدد إلى القابلية للحب

والمودة لأنها أمر حيوي بصورة خاصة. الحب الذي لا يمثل اتكالية طفيلية ولا يمثل تسلطًا ساديًا، بل يمثل، عندما نقتبس كلمات الكاتب مكمري «علاقة... ليست لها غاية وراء ذاتها؛ علاقة نرتبط بها لأن من الطبيعي للكائنات البشرية أن تشارك في خبراتها وأن يفهم أحدها الآخر وأن تجد المتعة والسكينة في العيش سوية وفي التعبير والكشف عن مكنونات أحدها للآخر».مكتبة سُر مَن قرأ

تتمثل أشمل صياغة لأهداف المعالجة في النضال من أجل المصداقية. أي أن يكون المرء خاليًا من الادّعاء وأن يكون صادقًا عاطفيًا، وأن يكون قادرًا على أن يُعبّر عن كل وجوده في مشاعره وفي عمله وفي معتقداته. ويمكن الاقتراب من ذلك بمقدار تصريف هذه الصراعات.

ليست هذه أهدافًا استبدادية كما أنها ليست أهدافًا صحيحة للعلاج، لأنها ببساطة تتسق مع المُثُل التي اتّبعها الحكماء في كل الأزمنة. لكن الاتّساق لم يولد مصادفةً، لأن هذه هي العناصر التي تستقر عليها الصحة النفسية. إنّ لدينا مبرراتِنا للتسليم بهذه الأهداف لأنها تنبع منطقيًا عن معرفة بالعوامل المسببة للأمراض في العُصاب.

و تستند جرأتنا في تحديد مثل هذه الأهداف الخطيرة على الاعتقاد بأن بوسع الشخصية الإنسانية أن تتغير. ليس الوليد الصغير هو المتلك لقابلية التغير والتكيف فحسب. إننا جميعًا نحتفظ بقابلية التغير وملاحقة أحوالنا الأساسية، طالما أننا على قيد الحياة. إن

الخبرة تدعم هذا الاعتقاد. ويمثل تحليل النفس أعظم السبل حيوية في إحداث تغيرات جوهرية. وكلما فهمنا القوى المؤثرة في مرض العُصاب كانت فرصتنا أعظم في إحداث التغيير المرغوب.

ليس من المحتمل أن يتوصل أي من المحلل أو المريض لكل هذه الأهداف. إنها مُثُلٌ نكافح من أجلها، تكمن أهميتها العملية في توجيهها لنا، وفي علاجنا، وفي كل أوجه حياتنا. إذا لم نكن على بيّنةٍ من مغزى هذه المُثُل، فقد نرتكب الحماقة بإحلال صورةٍ مُثلى قديمةٍ محلّ أخرى جديدة، ويجب أن نعيَ كذلك أنه ليس بوسع محلل النفس أن يُحيلَ المريضَ كائنًا بشريًا خاليًا من العيوب. بل إنّ بوسعه أن يُعينه ليصبح حرًا من أجل النضال والتقرب من هذه المُثل. وهذا يعني منحه الفرصة لأن ينضج ويتطور كذلك.

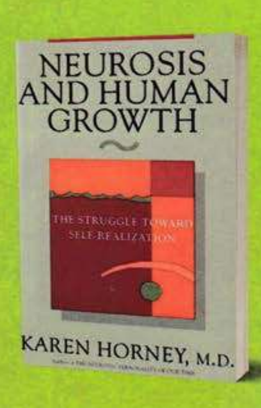



في سبيل
المعرفة

كلما أدركنا مقدار الضرر الكبير الذي تحدثه الصراعات العصابية في الشخصية كلما بدت الحاجة ماسة حقًا لتصريفها. إن هذا التصريف لايمكن أن ينفذ بالقرار الواعي ولا بالمراوغة ولا ببذل قوة الإرادة، فكيف ينفذ إذًا؟ هناك طريقة واحدة فحسب. إن تصريف الصراعات يمكن عبر تغيير تلك الظروف الكامنة في داخل الشخصية والتي أدت فيما بعد إلى ظهورها.

إنها طريقة جذرية وصعبة. كما ندرك جيدًا الصعوبات المتصلة بتغيير أي شيء من دواخل أنفسنا إذ ينبغي أن نجوس في الأرض بحثًا عن سبلٍ مختصرة. ربما كان ذلك هو السبب في أنّ المرضى غالبًا ما يتساءلون: هل يكفي أن يبصر المرء صراعه الأساس؟ الجواب بوضوح هو كلا.

وعندما يستطيع المحلل أن يُعين المريض على إدراك هذا الصدع بعد اكتشافه بصورة مبكرة للغاية، وكيف يكون المريض منقسمًا على نفسه بالضبط، فإن نفاذ البصيرة هذا لن يكون ذا فائدة على الفور. وقد يكتسب المريض شيئًا من الراحة حيث يبدأ برؤية سبب ملموس لمشاكله هذه بدلاً من أن يكون ضائعًا وسط ضباب كثيف من الغموض. ولكنه لن يستطيع الإفادة من ذلك في حياته. إذ إن تصوّره كيف تعمل وكيف تتداخل أجزاءه المتنافرة مع بعضها فذلك لن يجعله أقل انقسامًا على ذاته.





كارين هورني

ولدت كارين هورني (1952-1885) في مدينة هامبورغ بألمانيا، ودرست في جامعة برلين، ثم حصلت على شهادتها في الطب عام 1913. منذ عام 1914 حتى عام 1918 درست الطب النفسي في برلين- لانكوتيز، بألمانيا، ومن عام 1918 حتى عام 1932 أصبحت أستاذة في معهد برلين للتحليل النفسي. لقد ساهمت في العديد من المؤتمرات العالمية، ومن ضمنها المناظرة التأريخية عن تحليل النفس الاعتيادي التي ترأسها سيجموند فرويد.

حضرت الدكتورة هورني إلى الولايات المتحدة عام 1932، وأصبحت المدير المشارك في معهد تحليل النفس بمدينة شيكاغو لمدة سنتين. ثم ذهبت إلى مدينة نيويورك عام 1934 حيث أصبحت أحد أعضاء الهيئة التدريسية في معهد نيويورك لتحليل النفس حتى عام 1941، عندما أضحت أحد مؤسسي جمعية الارتقاء بتحليل النفس والمعهد الأميركي لتحليل النفس، وقد كانت عميدة المعهد الأخير حتى رحيلها. كما كانت، بالإضافة لنهجها الفعال كمدرّسة ومعالجة نفسية، محررة المجلة الأمريكية لتحليل النفس، محاضرة في المدرسة الحديثة للبحث الاجتماعي، في نيويورك: زميلة جمعية طب النفس الأمريكية، وغالبًا ما ساهمت في الحلقات العلمية الدراسية لتلك الجمعية، كما كانت رئيسًا فخريًا لمؤسسة كارين هورني لأغراض تبني خدمات تحليل النفس ذات الكلفة القليلة للمجتمع. تضم مؤلفاتها شخصية عصرنا العُصابية، طرق حديثة في تحليل النفس، تحليل الذات، صراعاتنا الباطنية، هل تفكر جديًا بالتحليل النفسي؟ والعُصاب والنمو الإنساني.

صراعاتنا الباطنية

مهما تكن نقطة الانطلاق وكيفما تكن الطريق ملتوية، فإننا يجب أن نصل في النهاية إلى اضطراب في الشخصية كمصدر للعلة النفسية، نستطيع أن نردد القول نفسه عن هذا كما نستطيع التحدث عن أي اكتشاف نفسي آخر تقريبًا: فهو واقعيًا إعادة الاكتشاف. لقد عرف الشعراء والفلاسفة في كل العصور أن الشخص الهادئ المتزن لن يقع ضحية الاضطرابات النفسية، بل الشخص الذي تمزقه الاضطرابات الباطنية، إن أي عُصاب، مهما كانت صورة الأعراض المرضية، هو بلغة العصر، عُصاب الشخصية. لذلك يجب أن تتجه جهودنا في النظرية والعلاج، نحو فهم أفضل لبناء الشخصية العُصابية.

في الواقع، تركز جهود فرويد الريادي على هذه الفكرة بصورة متصاعدة - رغم أن أسلوبه في النشوء لم يتح له فرصة التوصل إلى صياغته على نحو بيِّن. غير أن الآخرين الذين واصلوا وطوروا جهد فرويد - بصفة بارزة: فرانز الكساندر، أتورانك، ولهليم رايخ، وهارالد شولتز هانكه- كانوا قد قاموا بتعريفه بصورة أكثر جلاءً، على أية حال، لم يتفق أحد منهم حول كنه الطبيعة المحددة والقوى المحركة وراء بنية هذه الشخصية.



نستذكر جوناس سولك الطبيب والعالم وباحث قام بتطوير التجربة الناجحة الأولى للقاح لم يكن يسعى للثروة أو الشهرة من خلال ابتكاراته الشهيرة، في إحدى المقابلات جاء فيها سؤال "من يملك براءة اختراع لقاح شلل الأطفال؟" فأجاب "لا أحد، هل يمكنك استخراج براءة اختراع للشمس؟"

نستذكر دائمًا العلم ومن ضحى في سبيله...


ISBN: 978-9953-592-43-5
9 789953 592435

